مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سلا ورباط الفتح

أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الثالث

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

سلا ورباط الفتح

أسطولهما وقرصنتهما الجهادية

تأليف
جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق
أحمد بن جعفر الناصري

الجزء الثالث

(من ستة أجزاء)

1427هـ - 2006م

أكاديمية المملكة المغربية

أمين السرّ الدائم	:	عبد اللطيف بربيش
أمين السر المساعد	:	عبد اللطيف بنعبد الجليل
مدير الجلسات	:	إدريس العلوي العبدلاّوي
مدير الشؤون العلمية	:	أحمد رمزي

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062
الرمز البريدي 10100
الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فـاكس 75.51.01 (037)

الكتاب : «سَلا ورباط الفتح، أسطولُهما وقرصنتهما الجهادية»

تأليف : جعفر بن أحمد الناصري

تحقيق : أحمد بن جعفر الناصري

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2006/1337

ردمك : 9981-46-042-7 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-045-1 (الجزء الثالث)

الفصل الأول

عن القرصنة وتحديدها، وتاريخها، وأسبابها، وعن المسؤول عنها.

المبحث الأول

القرصنة، تعريفها وأنواعها.
كورسير (Corsaire) وبيراط (Pirate)

لفظة قرصان، دخيلة في اللغة العربية؛ جاءت من لفظة كورس (Course) الفرنسية، الدالة على السرعة في الجري اشتقاقا ومعنى.

وقد تصرف فيها الكُتّاب والمؤرخون المتأخرون، فأطلقوا لفظة :

- قرصان على السفن أو الأسطول جمعا وفردا.

- وقراصنة على البحّارة، أو الجنود، أو النوتية، الذين يركبونها ويسيّرونها للغزو في البحر والهجوم على الشواطئ والسواحل البحرية.

- والقرصنة، على الأعمال التي تصدر منهم، ويقومون بها في البحر، كالهجوم على سفن أخرى وأخذها واستباحتها أو قطع الطريق واللصوصية في البحر.

- والقُرَيْص، مرساة السفينة.

أما لفظة كورسير (Corsaire)، فقد عرّفها الأب دان (Le père Dan) في كتابه المسمى : «تاريخ البلاد البربرية وقرصنة الممالك والمدن كالجزائر، وتونس، وطرابلس، وسلا»، فقال : [1]

(1 Histoire de Barbarie et de ses Corsaires, des Royaumes et des Villes d'Alger, de Tunis de Tripoly et de Salé. Imprimé à Paris en 1649.

«لفظة كورسير (Corsaire)، جاءت من كورس (Corse)، إسم الجزيرة الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط، أو من كورسير (Corsaire)، إسم سكانها، لأنهم كانوا يوصفون بالغلظة والشدة في الأخلاق ؛ ومنها كان العرب يجهّزون سفنهم الغزوانية في البحر الأبيض المتوسط، لمّا كانوا محتلين لها».

ثم قال :

«أو جاءت من اللفظة اللاتنية (Currere)، معناها الجري والسرعة في المشي ؛ ثم أُطلقت على البحّارة الذين يجوبون البحار بسرعة لأجل الحرب والغزو واصطياد سفن أخرى.

كما أن لفظة پيراط (Pirate)، أصلها من اليونانية، وتدل على القُرصان والقراصنة، ولصوص البحر الذين يركبون السفن القرصانية للإغارة على سفن أخرى، أو على شواطئ بلاد أجنبية، والنزول بها، واختطاف أهلها واسترقاقهم، وأخذ أمتعتهم وأموالهم».

وقال جانيل (Jeannel) في كتابه المسمى «القرصنة» «La Piraterie»[2].

«لفظة پيراط (Pirate) جاءت من اليونانية، ومعناها الجري وراء الحظ والسعد، أو خوض البحار لأجل السرقة والنهب والسلب».

ويفهم من لفظة پيراتوري (Piraterie) بعثة أو تجريدة حربية مسلحة تخوض البحار بدون أي إذن من أي حكومة أو دولة معينة، وتستعمل وسائل القوة والسطو والقهر والشدّة لأجل الحصول على ما تريده من الغنائم والأرباح.

وقيل : پيرات (Pirate) جاءت من اللاتنية پيراطا (Pirata).

وعليه، فإن لفظة پيرات (Pirate) لا تطلق في الاصطلاح الدولي إلاّ على لصوص البحر والقراصنة الذين لا ينتمون إلى حكومة معينة، ويقطعون طرق المواصلة البحرية، ويأخذون كل سفينة غصبا، كما هو شأن لصوص الطرق والمحاربين في البر».

وقد عرّف جانيل (Jeannel) القرصان (Corsaire) [3] بأنها السفن التي تستعملها حكومة مستقلة، وتأذن لها في مهاجمة أو أخذ سفن دولة أخرى تكون في حالة حرب معها.

---

2) ص 7، طبع باريس سنة 1903.

3) نفس المصدر، ص 85.

وجرى العمل في العرف الدولي القديم على إطلاق لفظ كورسير (Corsaire) على البحّار الحربي الذي ربّما تكيّف بصفة اللص البحري (Pirate) في بعض الأحيان، إذا اضطرّ إلى ذلك، وإن كانت القوانين البحرية القديمة تعتبره كمحارب معترف به، لأن الملوك والأمراء في ذلك العهد كانوا يعطونه صكًا رسميًا إلى أجل معلوم، يخوّله حق مطاردة سفن أي دولة أخرى، إذا كانت معادية لهم، أو في حالة حرب معهم، وإن تعدّى ذلك وجاوز الأجل المضروب له، طُبِّق عليه ما تضمّنته المعاهدة الدولية في القرن الخامس عشر، وهو ردّ ما أخذه، أو تعويض ما أفسده من الضمانة المالية التي يضعها تحت تصرف بحرية دولته.

ثم قال جانيل (Jeannel) :

«الفرق بين الكورسير (Le Corsaire) والپيراط (Pirate)، هو أن الأول يعمل بإذن حكومة خاصّة معلومة ضدّ حكومة أو دولة خاصّة معلومة، في حالة حرب معها، ولا يتعدّاها إلى غيرها.

والثاني، يعمل بغير إذن أي حكومة معلومة، ويأخذ سفن سائر الدول التي يصادفها في البحر، سواء كانت محاربة أو مسالمة».

لأن الحرب بين دولتين مستقلتين معترف بهما، تبيح لكل واحدة منهما مهاجمة أسطول الأخرى في عرض البحار، وحصار كل واحدة منهما المراسي الحربية للدولة الأخرى، والاستيلاء عليها وعلى ما فيها من العدة الحربية.

أمّا حرب القرصنة فإن حاكم البلاد أو أميرها يسلم رخصة منه إلى أفراد رعيته ليمكنه أن يُجهّز سفينة أو عدة سفن ليخرج بها إلى البحر طالبا للغنيمة. وفي هذه الحالة فإن هذه السفن تتجنّب السفن الحربية المسلحة التي لا تقدر على مقاومتها، وتتطلب السفن التجارية، لأنها في الغالب تكون غير مسلحة، أو مسلحة تسليحا خفيفا، فتهاجمها وترغمها على الاستسلام إليها.

ورئيس هذه السفن يكون مسؤولا على سفنه شخصيا، وعمّا ترتكبه من المخالفات.

وأمّا الغنيمة، فإنها تكون بحسب اتّفاقه مع أميره أو من جهّزه للغزو.

ولا يخلو أن السفن التي تصادفها السفن القرصانية في البحر إمّا أن تكون لدولة محاربة، وهذه لا شك في أخذها، وإمّا أن تكون لدولة مسالمة فيتعيّن اجتنابها، وإن كانت لها معاهدات، فيجب العمل بمقتضاها، بشرط أن لا تكون حاملة لعدة حربية للدولة المعادية، أو متوجهّة لمرسى من المراسي المحاصرة من قِبَلِ الدولة المُحارِبَة.

وعليه، فإن الحاكم أو الأمير الذي جهّز الكورسير (Le Corsaire)، يكون مسؤولا أمام القانون الدولي البحري عمّا جناه، إذا خالف الكورسير (Le Corsaire) أوامره وتعدى حدود دائرة أعماله، وتناول سفن دول أخرى.

وقد كان لفظ قرصان يُطلق أيضا على السفن التجارية المسلحة في وقت الحرب، سواء كانت مِلْكا للملك أو الأمير أو لشخص آخر معيّن، أو لجماعة، أو لمن يتولّى قيادتها ورياستها وتسييرها، ويكون لها الحق في مطاردة سفن العدو وإغراقها وإحراقها وإتلافها وأخذها بما فيها، ضمن الأجل المحدد لها.

ويوخذ من هذا كله، أن العوائد الحربية، والقوانين البحرية الدولية القديمة، كانت تعتبر الكورسير (Le Corsaire) كمحارب معترف به، في مدة معيّنة، وأجل محدود، بشروط وقيود.

ويعتبر پيراط (Pirate)، مجرد لص خطّاف نهّاب تتعيّن محاربته، ومطاردته في البحر، كما تتعيّن محاربة ومطاردة اللصوص وقطّاع الطرق في البر.

ولا توجد في العربية هذه التفرقة الاصطلاحية. ولفظ القرصنة جامع لمدلوليهما. والمفهوم منه، هو مطاردة سفن دولة لسفن دولة أخرى في البحر، وأسرها وإغراقها. فإن كانت معاهدة فيعدّ ذلك نقض لعهدها، وإن كانت معادية، فقد حلّ بها ما تستحقّه لعداوتها.

أمّا في عصرنا هذا، فإن القرصنة البحرية، تعتبر في القانون الدولي جريمة كبيرة في الحقوق الإنسانية، يعاقب عليها من تعاطاها واسْتَباحَها بأشد العقوبات في حقه في القوانين الدولية المجمع عليها.

كما تُطبّق على سفنه القرصانية، كيفما كان نوعها، الأحكام الخاصّة بها، المنصوص عليها في القوانين البحرية الدولية أيضا، المتّفق على منطوقها ومفهومها.

المبحــث الثانــي

لمحة من تاريخ القرصنة القديمة

للقرصنة تاريخ طويل الذَّيل، مديد السَّيل، يتّصل مبدؤه باقتحام البشر ركوب ثبج البِحَارِ، والسبح في لججها، والطواف حول البِحَارِ، خلجانها وجزرها، والتردُّد على سواحلها وشواطئها، والخوض في أعماقها للتّجارة أو الصيد أو التملك أو الاستباحة أو اكتشاف مكنوناتها، واستخراج لؤلؤها ومرجانها.

وما قصة السفينة التي ﴿كانت لمساكين يعملون في البحر وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾، كما قصَّها الله تعالى في كتابه الكريم، ﴿الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ إلاَّ نوع منها.

وكذلك قصة السندباد البحري، والإخوة المغرورين، والأخبار التي تناقلها الإخباريون، واعتنى بجمعها المعتنون بجمع أحاديث عجائب المخلوقات، وغرائب الموجودات، وخريدة العجائب وغيرها، هي أيضا من هذا القبيل.

و عليه، فإن ظهور القرصنة منذ العصور القديمة مرتبط بالملاحة والحركة التجارية، بواسطة المواصلات البحرية، تتجلى فيه سنّة من سنن الكون، وهي أن القوي يأكل الضعيف؛ ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾.

القرصنة خلال العهود الغابرة

وقد هبّت عاصفتها الأولى في حوض البحر الأبيض المتوسط، وازدهرت وانتشرت به إلى أوائل عصر الميلاد، وشارك فيها سائر الأمم التي كانت منتشرة على شواطئه وسواحله

كلها. وتمكّن اليونانيون في تلك الأزمنة الخالية، بمقتضى وضع بلادهم الجغرافي، وحالة تكوين سواحلهم الطبيعية، من قطع المواصلات التجارية، من الناحية الشرقية، من حوض البحر المذكور[4].

ويعد اليونانيون الأولون كلهم قراصنة، كما حقّقه مونطسكيو (Montesquieu) [5]، وعدوّهم الأكبر إذ ذاك الفينيقيون المشهورون في ذلك العصر بأسفارهم البحرية، لأجل الاستعمار وتأسيس المراكز التجارية بسواحل البحار، وخصوصا المتوسط، والسيطرة على طرق مواصلاتها.

ومن أعظم ما كانوا يتاجرون فيه الرقيق الذي يجلبونه من قطر إلى قطر، ومن مملكة إلى مملكة.

وقد كانت المنافسة البحرية بين اليُونَانِيِّين والفينيقيِّين أول مظهر من مظاهر الصراع بين قوة دولة تجارية وقرصنة منظمة.

ويمكن اعتبار الحروب البونية (Les guerres Puniques) بما اشتملت عليه من شدة وقسوة وسطو ونهب وسلب، وقهر أمة لأمة، بدون مراعاة لأي حق من الحقوق والأخلاق الإنسانية أصلاً لوجود القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط، لأنه بمجرد إعلان الحرب تصبح القرصنة فيه حالة حربية، وتستمر ما استمرّت الحروب دائمة قائمة[6].

وبعد قهر الرومانيين للقرطاجنيين ومحقهم لقوتهم وتحطيمهم لعاصمتهم قرطاجنة، انتشرت القرصنة في البحر الأبيض المتوسط المذكور انتشاراً عظيما. وكانت أعظم سلاح تسلّح به المغلوب إذ ذاك ضد الغالب، وصارت مملكة روما، مع عظمتها وقوّتها، معرّضة للمجاعة واستباحة سواحلها، وقطع مواصلاتها البحرية مع الخارج مدة قرن كامل من الزمن.

وكانت لقراصين صقلية الزعامة والظهور في بحر إيجي (Egée).

وصار بحر الأدرياتيك (Adriatique) ميدانا للصوصية البحرية المتّصلة المتواصلة الممتدة إلى سائر سواحل البحر الأبيض المتوسط.

---

4) «تاريخ القرصنة» لِجَانْ مرسيي "Histoire de la Piraterie" par Jean Mercier، ص 10 و«قراصنة سلا» لكواندرو "Les Corsaires de Salé" par Coindreau، ص 13 و18.

5) «روح الشرائع» لمونطسكيو "L'esprit des Lois" de Montesquieu, 7 XXI.

6) «القرصنة» لجانيل "La Piraterie" par Jeannel، ص 23.

وهكذا استمرّ الصراع بين الملوك والقياصرة والقراصنة، فكانوا تارة يكفّون من غرب القرصنة، وتارة يشجّعونها، حسب ما تقتضيه مصلحتهم ومحاربة بعضهم لبعض إلى قُرب عصر الميلاد.

القرصنة خلال القرون الوسطى

ويقول الأوربيون : إنه لمّا سقطت الدولة الرومانية، زمن الفتح الإسلامي، ظهرت القرصنة من جديد في صورة أخرى من القوة والشدّة.

ونحن نقول : إنها صورة الجهاد، وانتشار الفتوح الإسلامية، وانتظام الممالك التي على سواحل هذا البحر في سلك الدولة الإسلامية الجديدة من بلاد الشام إلى شواطئ مصر، وسواحل إفريقية، ثم تجاوزتها من بوغاز جبل طارق إلى السواحل الإصبانية في عهد الدولة الأموية، وشنّت الأساطيل الإسلامية هجومها على الشواطئ الأوربية.

وفي نظرنا أن هذه ليست قرصنة، ولا ينطبق عليها تعريفها وحدودها وصفتها، وإنما هي حروب بحرية، بين الدولة الإسلامية الجديدة الناشئة، وبين الدول المسيحية التي كانت لها السيادة المطلقة على البحار، وخصوصاً البحر المتوسط في ذلك العهد.

وكان مبدأ هذه الحروب الدعوة إلى الدين، وقوامها حراسة الممالك التي شملتها أحكامه، وثبت فيها دستوره ونظامه.

وقد وقعت أثناء هذه الفترة من الزمن معارك بحرية فاصلة، بين الأساطيل الإسلامية، وأساطيل الدول المسيحية، وحاول ملوكها وأمراؤها كف غاراتها، وإيقاف تيارها، فَلَمْ يقدروا على ذلك.

وكان هذا الأسطول الإسلامي في ذلك العهد كثير العدد، وافر المدد، بما أسسه الخلفاء والملوك من دُور الصناعة لإنشائه وتجديده بمراسيهم البحرية على ضفاف البحر المذكور.

قال ابن خلدون في «المقدمة» ما ملخصّه :[7]

كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامه، فكانت لَهُمْ المقامات المعلومة من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزر المنقطعة عن السواحل فيه، مثل ميورقة و منورقة ويابسة وسردينية وصقلية.

---

7) ص 212، طبع بولاق.

ثم قال :

"وانحازت أمم النصرانية بأساطيلها إلى الجانب الشمالي الشرقي منه، من سواحل إفرنجة والصقالبة والجزر الرومانية لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضرَّت عليهم ضرّ الأسد على فريسته، وقد مَلأتْ الأكثر من سطح هذا البحر عدة وعددا، واختلفت في طرفه سلماً وحرباً جائية وذاهبة، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح، وصاروا سلاطين البحر كما كانوا سلاطين البر.".

هكذا كان حال حوض البحر الأبيض المتوسط في القرون الأولى للهجرة (السابع والثامن والتاسع للميلاد) إلى أن أدرك الدولة العبيدية بمصر، والأموية بالأندلس، مرض الانحلال والاختلال بحكم ناموس التاريخ، وأفاق الإفرنج من سِنَتهم، وعادوا إلى استرجاع ما خسروه من السواحل والجزر البحرية، وسطوْا على بلاد المسلمين فتنقّصوها من أطرافها، واكتسحوا ما قدروا عليه من بلادها.

وبعد هذا العصر ابتدأت الحروب الصليبية بالشرق الأوسط. وكانت أساطيل الصليبيين تتردّد بين مراسي أوربا ومصر والشام، حاملة الجيوش والعدة والسلاح والذخائر والمؤن إلى فلسطين، فقاومها المسلمون حينئذ بما كان بقي لديهم من قوة برية وبحرية، ومنها أساطيلهم القرصانية، حتى إنّ صلاح الدين طلب الإعانة البحرية من الأساطيل القرصانية الموحدية.

وأصبح البحر الأبيض المتوسط في هذا العصر لا تُسلك لجّته، لأن قرصان المسلمين يجول فيه، وتُخشى سطوته، وتُتّقى بَطشته، وكلّما مرّ به أسطول صليبي تخطّفته قراصين المسلمين وأغرقته وأبادته وأحرقته، أو ساقته إلى الأسر والاسترقاق مقهوراً ذليلا حقيراً.

وبعد الصليبيين، ظهر في البحر الأبيض المتوسط فرسان مالطا (Les chevaliers de Malte)، وهم ورثتهم السالكون طريقتهم، الناهجون نهجهم، فكانوا عوناً وعيوناً لقراصنة أوربا المحاربة للقرصنة الإسلامية، حتى صار يُطلق عليها في ذلك العهد : "القرصنة الباربارية"، لأن سفنها كانت تخرج من شواطئ إفريقية، الباربارية، وتلتجئ إليها كلّما ضايقتها قرصنة أوربية، حتى إن الأب دان (Le père Dan) [8] صرّح بأن القرصنة الباربارية منذ سنة تسعين وثلاث مائة وألف (793/1390) بلغت شهرة كبيرة، وضيقت الخناق التجاري على الدول الأوربية في مجال البحر الأبيض المتوسط، وأقلقت راحتها، وأتعبتها، وأقضت مضاجعها.

---

8) «تاريخ البلاد الباربارية وقرصنتها» "Histoire de la Barbarie et ses Corsaires"، ص 18.

وقد دامت هذه "القرصنة الباربارية" - كما كانوا يعبّرون عنها -، في ازدهار وانتشار طوال القرون الوسطى إلى القرن الثامن عشر (أوائل الثاني عشر الهجري)، وتأثّرت بحوادث الطرد والعسف الذي لقيه المسلمون بإصبانيا، لاسيما بعد سقوط غرناطة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة (897/1492)، وهجرة المسلمين منها إلى تركيا وبلاد المشرق أولا، ثم إلى إفريقيا الشمالية بعد ذلك، حسبما تقدّم الكلام عنه في محلّه.

وحقّاً، لقد كانت هذه الحوادث كلها منشأ لمشاكل لا تحصى، سياسية واقتصادية واجتماعية، لأن أولائك المطرودين خرجوا من بلادهم حاملين لمن أخرجوهم منه عداوة وضغناً وحقداً حملهم على الانتقام منهم بكل ما كان في استطاعتهم من حول وقوة، لعلّهم يسترجعون بعض ما ضاع لهم من متاع وضياع بسبب ما كُتب عليهم من الجلاء والعذاب في الدّنيا.

وتفرّق الذين نزحوا إلى إفريقية الشمالية، بطرابلس وتونس والجزائر والمغرب، وكانت لهم مواهب ومعارف لا يُسْتهان بها، فشمّروا على ساعد الجد، وشنّوها حربا شعواء بحرية قرصانية علي إصبانيا، وهي إذ ذاك تقول : "من أشد منّا قوة ؟" ثُمّ تعدّتها إلى غيرها من الدول الأخرى.

وانضم إلى هؤلاء كل من رغب في الربح والغنى والشهرة والرياسة من الأتراك والمسيحيين الداخلين في الإسلام، فاستعانوا بهم في تحسين وتنظيم قرصنتهم الجديدة ونشرها بسائر حوض البحر الأبيض المتوسط.

وكان ظهور هذه القرصنة الجديدة بإفريقية الشمالية في صور شتّى، حسبما اقتضته الظروف، ودعت إليه حاجة الدول المتعاقبة عليها، لمّا تشوّف العدو إلى استعمارها.

ودخل عليها تحسين جديد في صناعة سفنها وهيأتها وتسييرها، أَلْفَتَ نظر أوربا إليها، فحسبت لها حسابها، لاسيما وقد كان الأمراء والملوك يشجعونها، ويزيدون في الاعتناء بها، طمعا في عشر المغانم التي كانوا يأخذونها، وبذلك أصبحت القرصنة بإفريقية الشمالية عنصراً من عناصر الحياة التجارية في ذلك العهد.

الأخوان بابا عرّوج وخير الدين باشا

في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، ظهر في أفق البحر الأبيض المتوسط صقر القرصنة الجهادية البحرية : بابا عرّوج، وأخوه خير الدين باشا،

وهما تركيان من الأناضول، وُلدا بجزيرة مدلي، ونشئا بها، وتعاطيا حرفة القرصنة البحرية منذ صغرهما، وأنشأ كل واحد منهما جفناً للتجارة والإغارة البحرية.

وأُسِرَ عرُّوج، وسيق إلى جزيرة رُودس (Rhodes)، وبقي بها أسيراً مدة، ثم تخلّص من الأسر بحيلة، وذهب إلى مصر، ومنها انحدر إلى تونس، واتصل بسلطانها الحفصي، وحظي عنده بما قدّمه له من الهدايا...

وهناك اجتمع بأخيه خير الدين، واتفقا على العمل معاً يداً واحدة في القرصنة والجهاد برّاً وبحرا.

وكانت لهما مواقف ووقائع في البر والبحر، استُشْهد أثناءها بابا عروج، وبقي خير الدين قائماً بعمله، سائراً في خطّته، سالكاً لنهجه وطريقته، فكان كأنه صاعقة أرسلها الله على الأساطيل القرصانية المسيحية السابحة في البحر الأبيض المتوسط، يتخطّفها من سائر أطرافه وسواحله، ويلتقطها من خلجانه وجزره، ويتردد بينها وبين إصبانيا لنقل المهاجرين والمطرودين منها، حتى نقل نحو السبعين ألفا منهم، كانوا من جملة بحارته وجنوده.

ولا يخفى أن إصبانيا في ذلك العهد كانت محتلة لعدة مراسٍ ومواقع استراتيجية بتونس والجزائر والمغرب، وعاملة كلما في وسعها وطاقتها على امتلاك إفريقية الشمالية كلها، مهما وجدت لذلك سبيلا، فحاربها خير الدين برّاً وبحرا، وقضى على آمالها بما أذاقها من المرائر ووالى عليها من الهزائم.

وقد انتهت هذه الحروب الطّاحنة بخيبة الآمال الإصبانية، وسقوط الدولة الحفصية بتونس والدولة الزيانية العبدوادية بتلمسان، وإقامة الدولة التركية مقامها.

وكانت وفاة خير الدين بإصطمبول سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة (1546/953)، بعدما بلغ شهرة كبيرة، وحظوة ورياسة عظيمة عند الخلفاء العثمانيين وخصوصا الخليفة سليمان القانوني، وقبره معروف بمسجد باشكطاش.

وكانت العادة جارية أنه لا تبارح سفينة تركية قرن الذهب حتى يذهب رئيسها إلى زيارة قبر خير الدين، ويترحم عليه، ويسأل النّصر والسلامة من الله تعالى عنده.

وعليه، فإنّ حروب خير الدين البرية، وقرصنته البحرية، كانت جهاداً ودفاعاً عن حوزة الملة الإسلامية، بإفريقية الشمالية.

وأخبار عرُّوج وخير الدين طويلة فصّلها من تصدّى لها من المؤرخين تفصيلاً وحلّلوها تحليلا، وليست من موضوعنا هنا.

المبحث الثالث

محاولة الدول الأوربية إيقاف تيار الأعمال القرصانية

لمّا طغى تيار القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط، وتوالى الهجوم على سواحله وعلى قراصين أوربا السابحة في لُجَجه، قبل زمن خير الدين وفي عهده وبعده، وكاد حبل المواصلة التجارية أن ينقطع، حاول الأوربيون بكل ما في وسعهم إيقاف تيار القرصنة "البارباريّة" والعروجية الخير الدينية، بتدمير أساطيلها، ودعوا ملوكهم وأمراءهم إلى الاتحاد وجمع الرأي والكلمة ليحتلوا مدنها، ومراكزها وملاجئها، إذ بذلك يُمْكن القضاء عليها، فلم يُوفّقوا، ولم يتّفقوا، لأن الدول الأوربية في ذلك العصر كانت مفرّقة الوحدة المعنوية والحقيقية، بعيدة كل البعد عن الاتحاد، لاختلاف مذاهبها السياسية، ومصالحها الاقتصادية، وتنوّعها، وتلوّن أشكالها، وحب كل واحدة منها الانفراد بالسيطرة والامتياز في الحكم، والاختصاص بمد النفوذ التجاري والاستعماري في الممالك الإفريقية، وخصوصا شمالها، فكانت كلما أبرمت واحدة منها عهدا، نقضته الأخرى.

وهكذا عاشت القرصنة في جوّ هذا الخلاف المذهبي العنصري الاستعماري دهراً طويلا[9].

فحار التُّجار في أمرهم، ونظروا لمصلحتهم، وألّفوا شركات للدفاع على مراكبهم والمحافظة عن بضائعهم، وهي نوع من شركات التأمين (Assurances) الموجودة في زمننا هذا.

9) «القرصنة» لجانيل "La Piraterie" par Jeannel، ص 46.

وكانت تلك الشركات، تتولّى القضاء لنفسها بنفسها، وتنتقم من المعتدين استبداداً على حكوماتهم مهما وجدت لذلك سبيلا.

ثم تجاوزت هذا الحد، وصارت تأخذ بثأر غيرها من التجار، وتكوّنت في مراسي البحر الأبيض المتوسط شركات أخرى على هذا المنوال.

ولمّا طال الأمد على تلك الشركات، وانحلّت عُراها، وتضاعف عمل القرصنة، واستفحل أمرها، واستحكم داؤها، أصدرت حينئذ بعض الدول نظاماً حرّمت فيه القرصنة إلاّ بإجازة خاصة من ملك البلاد أو رئيسها، وهو أول نظام عُرف في الأعمال القرصانية.

ثم اتفقت دول أخرى كفرنسا وإصبانيا سنة خمس وتسعين وثمانمائة (1489/895) على أن تلك الإجازة لا يسمح بها ملك البلاد أو رئيسها لأحد من رعاياه إلاّ إذا رفع المعتدى عليهم شكواهم إلى ملك أو رئيس المعتدين، ولم يُنصفهم ممّن تعدّى عليهم.

وبعد ذلك اشترطت فرنسا وإنكلترا في معاهدة سنة أربع وعشرين وتسعمائة (1518/924) عدم جواز القرصنة لأي أحد كان إلاّ على سبيل الانتقام ممن استباح أساطيلهم التجارية، وتعدّى عليها، ولم ينالوا منهم تعويضاً عمّا لحقهم من الخسائر، مع مطالبتهم بها مدة معينة.

ولمّا اشتدّت الحرب الاستقلالية المشهورة بين الولايات المتّحدة الأمريكية وإصبانيا، شجّع الأمريكيون القراصنة، وانضمّ إليهم المرتزقة والمغامرون، وانتشروا في البحر مسلّطين على السفن الاصبانية نهباً وسلباً وتفريقاً وتغريقاً وتحريقا.

ثم تطاولوا على مراكب الدول الأخرى وأضرّوا بها ضرراً فاحشا، أثّر على التجارة والملاحة الدولية تأثيراً كبيرا.

وقد استمرت القرصنة على ما هي عليه إلى أن انتهت حرب القريم (La Crimée)، بين روسيا وتركيا، وفرنسا وإنكلترا بمعاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف (1272/1856)، وذُيّلت لمعاهدة أخرى تضمّنت إلغاء القرصنة نهائيا، وصادق على هذا الإلغاء أربع وثلاثون دولة، إلاّ اصبانيا والمكسيك والولايات المتحدة الأمريكية.

– أمّا إصبانيا والمكسيك، فاحتجّتا بضعف قوّتهما البحرية.

– وأمّا الولايات المتحدة الأمريكية فقد كانت حجّتها الفرق العظيم بين عدد سفنها التجارية وعدد سفن دولة أخرى، وهي في ذلك العهد في المقام الثاني بين الدول البحرية،

ولذلك تعتبر نفسها ضعيفة بالنسبة للدول الأخرى فضلا عن كونها حكومة جمهورية لا يتسنّى لها إعداد قوة حربية بحرية تناسب مركزها التجاري والجغرافي، وادّعت أن القرصنة أكبر مساعد لها في الحرب.

وقد استفادت إنكلترا من الغاء القرصنة أكثر من أي دولة أخرى، وأصبحت في ذلك العهد تدّعي أو تُدْعى سيّدة البحار(10).

والذي يظهر هو أن القرصنة قُضي عليها بسواحل إفريقية الشمالية التي على البحر الأبيض المتوسط منذ احتلال الجزائر سنة ثلاثين وثمانمائة وألف (1246/1830).

ومع ذلك فقد استمرّت موجودة إلى أواخر القرن التاسع عشر (آخر القرن الثالث عشر الهجري)، ولكن الدول كانت متّفقة مجمعة على تحريمها، وأنها جناية يُعاقب عليها بأشد العقوبات القانونية المفروضة في حق مرتكبيها.

وها نحن نرى أن القرصنة تجلّت في عصرنا هذا في صفة أخرى، وانتقلت من البحر إلى الجو، وصار قراصنة الجو يُرغمون الطائرات على الاتجاه إلى غير الوجهة المتّجهة إليها، فتضطرّ إلى النزول في مطارات بلاد معادية أو محاربة لشخص أو أشخاص من ركّابها من ذوي الرياسة والشان في بلادهم، أو لمقصد سياسي آخر، فتأسرهم وتستولي على الطائرة بما فيها، ولا يطلق سراح باقي ركّابها إلاّ بعد أخذ وردّ ومخابرة طويلة عسيرة، ربّما استمرّت عدة أيام.

هذا، وأمّا القضاء على القرصنة السلاوية والرباطية، وأسباب اضمحلالها وتناسيها، فسياتي الكلام عليه آخر بسط أخبارها وأعمالها، وقوّتها وتفوّقها، وضعفها وانحلالها، والأسباب الموجبة لذلك.

---

10) «حقوق الملل ومعاهدة الدول»، ص 83، و«تاريخ القراصنة» لجان ميريان "Histoire des Corsaires" par Jean Merrien، ص 219 والتي تلي.

المبحث الرابع

من المسؤول عن القرصنة ؟

إنّ مسؤولية هذه القرصنة وما نشأ عنها، لا يتحمّلها المغاربة وحدهم، بل يتحمّل القسط الكبير منها أمم البحر الأبيض المتوسط، لأنهم تعاطوها قبل المغاربة، وشاركوا فيها منذ أعصر طويلة، وهم الذين أرادوا الاستيلاء على المغارب الثلاثة، وطردوا المسلمين من الأندلس، فاضطرّ سكّان المغارب الثلاثة والأندلسيون إلى الدفاع عن أنفسهم، وصيانة كيانهم وبلادهم.

قال ماس لاتري (Mas Latrie) :

"اتفق المؤرخون المنصفون على أن القرصنة انتشرت عند المسحيين والمسلمين على السواء، وتعاطوْها معاً في البحر الأبيض المتوسط، وكانت آفة وداءاً تعذّر دواؤه في القرون الوسطى، ولذلك يتعيّن رفض قول من قال من المؤرخين إن العرب وحدهم هم المسؤولون عن القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط وما نتج عنها، لأن الدّاء كان عامّا، لا تختص به أمّة دون أخرى.

ويُظَنّ أنه لو أُحصي ما وقع من النّهب والسّلب وأنواع اللصوصية بالبحر الأبيض المتوسط منذ القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر (من السادس إلى العاشر الهجري) لوُضع على كاهل المسيحيين منه عبء ثقيل تنوء به عصبة أولي القوة.

وإذا كان يظهر لنا أن المسيحيين نالتهم خسائر كبيرة من جرّاء القرصنة الإسلامية، فما ذاك إلاّ لأنهم كانت لهم تجارة واسعة مهمة، وسواحلهم تصعب حمايتها والدفاع عنها، وتاريخهم العام مدوّن ومعروف عندنا أكثر من تاريخ العرب".

وزيادة على ذلك، فإن شهادة المسيحيين أنفسهم تقرّ بما جناه قراصنتهم».

وهذا الأب دان (Le père Dan) منهم، صرّح بأنّه لا يُمكن التجاوز عن ملام القرصنة المسيحية عمّا صدر منها في حق أعداء العقيدة.

ولاشك أن القرصنة بين الطرفين كانت تتقنّع بقناع الجهاد والحروب الدينية.

وهذه إصبانيا أعلنت حربها الصليبية على مسلمي إفريقية بقولها : (Guerra a los Moros). أعداء الدين والوطن منذ الأجيال القديمة، لأن المسيحيين كانوا أعداء للمسلمين في ذلك العهد.

ومع هذا، فلا ننسى أن سائر القراصنة، من سائر الملل والدول، قديماً وحديثا، كانت غايتهم ومرماهم من تعاطيها مادية محضة، وهي الربح والغنى المترقّب من فداء الأسرى.

وقد صرّح الكونت دوكاسطري (De Castrie) باعتقاده أنه لولا الأموال التي كانت تبذل في فذاء الأسرى، لم تكن قرصنة للمغرب.

هذا، وليس المسلمون وحدهم من تعاطوا القرصنة، وباعوا الأسرى، وأخذوا فديتهم. بل إن المسيحيين كذلك. وكان الجنويون لا يتورّعون عن التجارة في الرقيق الأبيض، ويمدّون سرايا مصر والمغرب بالسركسيات، والجواري المختطفات من خذورهن.

وكانت في القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) قصور وديار مجهّزي السفن القرصانية بجنوة مملوءة بالأسرى المسترقين من البلاد البربرية.

وأخبر مويط (Mouëtte) بأنه في التاريخ المذكور، كان أحد أهل تلمسان المأسورين عبداً لكردينال أراكون (Aragon).

وذكر كوصْ (Gosse) أن فرسان سان جان (Les chevaliers de Saint Jean) عاشوا زمناً طويلا من نهب القرصنة[11].

والحاصل من هذا كلّه، أن قراصنة المغرب من الأندلسيين وغيرهم تعاطوا القرصنة انتقاماً ممن بدأهم بالشر، ودفاعاً عن وطنهم الذي نشبت فيه مخالب الاستعمار، وحماية لدينهم الذي تطاول عليه المبشرون والرهبان، محاولين إطفاء نوره، ﴿ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره﴾ ولو كره الرهبان والمبشّرون. ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾.

ومَنْ لَمْ يذدْ عَنْ حَوْضِـهِ بسلاحـه ... يُهَـدّم ومن لا يتّقي الشتم يُشْتَمِ.

---

11) «قراصنة سلا» لروجي كواندرو "Les corsaires de Salé" par Roger Coindreau، ص 26-27-28.

المبحث الخامس

استفحال القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط
وما نشأ عنها من الأسر والاسترقاق

علمنا ممّا تقدّم في الفصلين المتقدّمين أن القرصنة قديمة جدًا، وأن أوّليتها تتصل بأولية اقتحام البشر ركوب البحار، وأن عاصفتها الأولى هبّت بحوض البحر الأبيض المتوسط قبل عصر الميلاد، وأن الأمم القديمة التي نشأت وانتشرت بسواحله وشواطئه، كلها باشرت ومارست القرصنة، وشنّت حربها البحرية بعضها على بعض، كاليونانيين والفينيقيين والرومانيين والقرطاجنيين، وأن سفن هذه الأمم القرصانية لم تزل سابحة جائلة فوق ثبج هذا البحر طوال هذه الأعصار والأحقاب المتعاقبة.

ولمّا برزت للوجود، - بهذا العالم الموجود -، الدولة العربية الإسلامية، وعمّت دعوتها وفتوحاتها سواحل هذا البحر القاصية والدّانية، كان من الطبيعي أن تدافع عن كيانها ووجودها، بأساطيلها البحرية بحرا، وجيوشها البرية برّا، وتقابل المثل بالمثل. فانتشرت الجيوش الفاتحة تفتح الممالك التي كانت تحت سيطرة فارس والروم، رافعة أعلام الدولة الجديدة الناشئة، تحميها الأساطيل السابحة في هذا البحر الذي كان يسمى بحر الروم، بين سواحل الشام واليونان وإيطاليا وإصبانيا والجزر القريبة منها والمضافة إليها، وما قابلها من الشواطئ الإفريقية كمصر وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى.

ودامت هذه المقاومة البحرية في مدٍّ جزرٍ قروناً وأجيالاً متعاقبة متلاحقة، اشترك فيها أهل هذه الممالك كلّها، وكانت تقوى وتضعف بحسب قوّة وضعف الدول الناسخة بعضها لبعض على ضفاف هذا البحر بمقتضى الحوادث المتجلية فيها، والحروب المتسببة عنها، المؤثّرة على كيانيها.

ولمّا سقطت دولة بني الأحمر بالأندلس، واحْتُلَّتْ غرناطة، وطُرد المسلمون من الأندلس بعد ذلك، حسبما تقدّم، وقويت شوكة إصبانيا والبرتقال والدول الأوربية التي على سواحل هذا البحر، وشرهت إلى الفتح والاتساع واستعمار الممالك البربرية، بإفريقية الشمالية، وتطاولت على تونس والجزائر والمغرب الأقصى، واحتلت مراسيه، اضطرّ سكان هذه الممالك إلى الدفاع عن أنفسهم، وحماية أوطانهم، فقاوموا الخطر المحيق بهم، وأعلنوها حربا جهادية إسلامية على المسيحية برّا وبحرا، وأعلنت أمم المسيحية حربها الصليبية على هذه الأمم مرّة أخرى.

وحينئذ تجلّت القرصنة بحوض هذا البحر بأعظم قوتها، وأبشع صورها، ثم آلت إلى طلب الحصول على الثروة والغنى والترف، لا من طريق الكدّ والصناعة والإنتاج والتجارة الحرة، ولكن عن طريق النهب والسرقة واللصوصية.

ودامت هذه الحالة المفزعة المفجعة متجلية بين سواحل القارّات الثلاث : إفريقيا وأوربا وآسيا دهراً طويلا، من أوائل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري).

وعليه، فقد تبيّن من هذا العرض الموجز أن القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط لم تكن خاصّة بالمسلمين أو المغاربة وحدهم كما تقدّم، بل كانت عامة شاملة شائعة في أمم هذه القارات كلّها الموالية لهذا البحر والناشئة في جزره.

حالة أسرى المسلمين بأوربا والجهود المبذولة في فدائهم.

كان من نتيجة انتشار القرصنة بسواحل البحر الأبيض المتوسط في عهد الدول الإسلامية وخصوصاً في القرن السادس الميلادي (العاشر الهجري) وما بعده استفحال أسر واسترقاق تلك الأمم بعضها لبعض. ولم يكن هذا الأسر والاسترقاق مقتصراً في ذلك العهد على القرصنة البحرية وحدها، بل تعدّاها إلى أسر واختطاف السكان من المدن الساحلية بأوربا والمغرب، ولاسيما بعد استيلاء البرتقال والإصبان على سواحله ومراسيه فكانوا يفاجئونهم في دورهم ومنازلهم، واتخذوا جماعة من اللصوص ممّنْ هان عليهم دينهم يسمّون "الحَنَّاشَة"، كانوا يبيعون أولاد المسلمين للنصارى. ولذلك كانت أسواق الرقيق بإصبانيا والبرتقال وإيطاليا وفرنسا ومالطا بالتجارة فيه نافقة، وبشباب المغرب وبناته من

سوس ودكّالة والغرب دافقة، وكذلك كانت أسواق فاس ومراكش وسلا ورباط الفتح زاخرة بأسرى الأوربيين على اختلاف أجناسهم.

وتجاوزت القرصنة اختطاف السكّان، إلى اغتصاب الأموال والذّخائر النفيسة برّاً وبحرا كالخزائن العلمية، والمخطوطات الإسلامية، كالخزانة الزّيدانية السعدية، وقصّتها معلومة.

وكم استُبيحت طوال هذه القرون من أعراض، وانتُهبت من أموال، واستُرِقّ من أحرار، وأُهين من أشراف، وامْتُحن من أعلام، وفُتِنَ في دينهم من أعيان، نذكر منهم على سبيل المثال :

بعض أعيان المسلمين الذين امتحنوا بالأسر بسبب القرصنة

- فمن أمراء المسلمين بالأندلس :

* الأمير علي بن مجاهد العامري(12)

هو الأمير، علي بن الأمير أبي الجيوش، مجاهد العامري؛ وكان من حديث أسره أنه لمّا خرج والده في أسطوله الضّخم من جزيرة سردانية (La Sardaigne) إلى مقرّ إمارته بدانية (Denia)، وميورقة، تعرّض له قراصنة العدو في البحر، وأوقعوا به وقعة شنعاء، وملكوا أسطوله، ولم يخلص منه إلاّ خمسة مراكب. وكان مشحوناً من سبي سردانية بنحو ثمانية آلاف فارس، واستولوا على حريمه، وفيهن نساؤه وبناته، وعلي ولده، وهو ابن سبع سنين، وجودُ أمّه النصرانية، فافتدى بعضهنّ سريعا، وتأخّر فداء ولده الأمير علي، لأنه وقع في سهم لصاحب الألمانيين، فاحتبسه للمباهاة به، وأعيا والده أمر فدائه، وبدل فيه عشرة آلاف إلى أن خلص بعد زمن طويل، واختارت أمّه ملّتها وتبعتها أختها، فأعرض عنهما.

---

12) ملخص من «أعمال الأعلام»، لابن الخطيب، ص 252 و 254، طبع الرباط، سنة 1353/1934.

وكان افتكاك الأمير علي سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة (1031/443)، ورجع إلى ميورقة ودانية بعد أن أقام في الأسر بضعة عشر عاما، وهو فتى كامل يتكلّم بلسان الروم الذين ربّي فيهم، ويتزيّا بزيّهم، ويقول بقولهم، فعرض عليه والده الإسلام من جديد فقبله، وحسن إسلامه، وختّنه، وتولّى الإمارة بعده فجلّى فيها...

– ومن سلاطين المغرب :

*** السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد**

الشيخ الوطّاسي المعروف بالبرتقالي[13]

أسره البرتقال وهو صبي، لمّا استولوا على أصيلا سنة ست وسبعين وثمانمائة (1471/876)، وأخذوا بيت مال الوطّاسي الذي كان بها وابنته وزوجتيه وجماعة من الأعيان، وكان الخطب عظيما. ثمّ افتكّه والده بعد ذلك، بعدما لبث في الأسر سبع سنين، وتعلّم اللغة البرتقالية، وكان يتكلّم بها.

وتولّى الملك بعد والده سنة عشر وتسعمائة (1504/910).

– ومن العلماء الذين امْتُحنوا بالأسر :

*** قاضي سلا أبو علي الحسن ابن عشرة**

من أسرة بني عشرة السلاويين، وكان متوليا قضاء سلا في أول عهد المرينيين، وأسره الإصبان لمّا نزلوا بها، واستباحوها، سنة ثمان وخمسين وستمائة (1259/658).

وبقي أسيرا عندهم إلى أن فداه السلطان، أبو يوسف، يعقوب بن عبد الحق، في جملة من فداه من السلاويين، وقد تقدّمت ترجمته في أخبار بني عشرة.

---

13) «الاستقصا»، ص 159 و 170، من ج 2، طبع القاهرة. وص 326 و355 من ج 4 لطبعة وزارة الثقافة سنة 2001.

* أبو الحسن الوزّان المعروف بليـون الإفـريقـي[14]

وممّن جرت عليه محنة الأسر من أعيان المسلمين، المؤرخ الجغرافي، أبو الحسن، علي الوزّان الزّياتي أو الزّيادي، المعروف بليون الإفريقي (Léon l'Africain)، صاحب كتاب «وصف إفريقيا» (Description de l'Afrique).

أسره قراصنة إيطاليا قرب جزيرة جربة، سنة ست وعشرين وتسعمائة (1519/926)، وذهبوا به إلى نابولي (Napoli)، وقدّموه هدية إلى البابا ليون العاشر بروما. وهناك ألّف كتبه في الجرافية والطّب.

وهو من الذين فُتنوا في دينهم.

ويُقال إنه فَرَّ إلى تونس، ورجع إلى الإسلام بها. وذلك في حدود سنة أربع وثلاثين وتسعمائة (1528/934) بعد أن لبث في الأسر حوالي إثني عشر عاما. والله أعلم.

* أبو الحسن علي بن مصباح ابن عسكر[15]

ومن أعيان المغرب الذين أُسروا، الشيخ أبو الحسن، علي بن مصباح، المعروف بابن عسكر، والد صاحب «دوحة الناشر».

وحديث أسره، كما حدّث به عن نفسه قال :

«أسرنا العدو الكافر بطنجة، أنا وصاحب لي، وجعلنا في مطمورة، فضاقت علينا الأرض بما رحبت، وبقينا كذلك عشر ليالٍ. فلما كان في الليلة العاشرة، وإذا بنداء من باب المطمورة في جوف الليل : ياعلي، فقلت نعم، وأنا في حال اليقضة، حاضر الفهم والذهن، وإذا هو صوت امرأتي عائشة مع الست ريسون، أم الشيخين الشريفين : أبي زيد عبد الرحمان، وأبي الحسن علي، فقالتا لي معا : لا بأس عليك، الساعة يفك الله سراحك أنت

---

14) مقتبس من ترجمته المنشورة أول جزء 1 من كتابه «وصف إفريقيا» "Discription de l'Afrique". طبع باريس 1376/1956.

15) «دوحة الناشر»، ص 19 و20.

وصاحبك، فقلت لصاحبي : أبشر بالخير، الساعة يطلق الله سراحنا، فقال لي : ومن أين لك ذلك ؟ فبينما هو يُخاطبني، وإذا بباب المطمورة فُتح، والسجّان يقول : إطلع يا مسلم، فطلعت أنا وصاحبي، وإذا بجمع من النصارى، وفي أيديهم الشمع الموقود، ففكوا عن أرجلنا الحديد، وذهبوا بنا إلى القبطان. فلمّا مثلنا بين يديه قال : اذهبوا إلى بلادكم، واخرجوا الآن. فلما ولّينا عنه قال : إمش سريعا. فخرجنا ليلا، وسرنا في بلاد الفحص حتى بلغنا بلاد المسلمين...»

* الشيخ أبو محمد عبد الله المعروف بالكوش[16]

ومنهم الشيخ أبو محمد، عبد الله المعروف بالكوش، من أهل مراكش. أسره النّصارى بأزمور، وفداه المسلمون.

ولمّا عزم على الخروج – وكان مأسوراً عند امرأة نصرانية – ناولته كتباً وقالت له : هذه كتب عندي من كتب المسلمين ولا حاجة لي بها، فخذها إليك، فخرج بها في قفة على رأسه. ومن جملتها كتاب «تنبيه الأنام، في الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام»، فكان ذلك أول دخوله لهذه البلاد على يده.

وكانت وفاته سنة ستين وتسعمائة (1552/960)، رحمه الله تعالى.

* الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي[17]

وممن أُسر من أشياخ المغرب وأعيانه، الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي البوسبعي.

قال في «ممتع الأسماع» : أسره النّصارى بآزمور أيضا، وافتكّه المسلمون.

وتوفي – رحمه الله – في السادس والعشرين من شعبان عام واحد وستين وتسعمائة (26 شعبان 28/961 يوليوز 1553).

---

16) «ممتع الأسماع»، ص 95.

17) «ممتع الأسماع»، ص 170. و«دوحة الناشر»، ص 81-82.

* العلاّمة أبو عبد الله محمد

ابن خروف التونسي[18]

ومن العلماء الذين أُسروا الشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل، خرُّوف التونسي، نزيل فاس، وشيخ الجماعة بها. رحل للحج، وامتُحن بالأسر ستة أعوام في خدمة مستشرق إصباني، فكان يُقرؤه العربية، حتى فداه السلطان أبو العبّاس أحمد بن محمد البرتقالي، الوطّاسي بثلاثمائة دينار (300). وكان إذا كتب أمضى كتابه بِـ : «مُعتَق إيالتكم خرُوف». وبه اقتدى ابن القاضي في علامته كما سيأتي.

وكانت وفاته، رحمه الله، سنة ست وستين وتسعمائة. (1588/966).

* قاضي سلا أبو العباس أحمد،

المعروف بابن القاضي.

وممن امتحن بالأسر من أعلام المسلمين وقضاتهم، العلامة المؤرخ، قاضي سلا، أبو العبّاس أحمد بن محمد، المعروف بابن القاضي، صاحب المؤلفات الحِسَان، كـ «جذوة الاقتباس»، و «درّة الحجال» وغيرهما.

وكان من خبر أسره ما حدّث به عن نفسه في كتابه : «المنتقى المقصور، على محاسن أبي العبّاس المنصور»، قال رحمه الله :[19]

... ولقد فداني – رحمه الله تعالى، وأبقاه كهفاً وملاذاً للمسلمين – من يد العدو الكافر بما يُعادل عشرين ألف أوقية، وقام بمسألتي معهم أتمّ قيام، عامله الله بأحسن ما يُعامل به. ولا نعمة كشبه نعمته عليّ، إذْ كنت مع العدو الكافر في بلاء عظيم من الجوع والبرد والتّكليف، بما لا يُطاق من الضّرب وغير ذلك، بما لا يُمكن وصفه من عذابهم، أذلّهم الله تعالى. فها أنا الآن حسنة من حسناته وصنيع اصطنعه بآلائه.

ثم قال أيضا :

---

18) «درة الحجال» لابن القاضي، ص 249 من ج 1، و«سلوة الأنفاس»، ص 281 من ج 3.

19) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1059، الباب الثامن في طيب نفسه وسخائه.

ومن مآثره الحسنة، ومفاخره المستحسنة، ما اتّفق لي معه من إخراجه إيّاي من الأسر، حيث أُسِرْت في حال رحلتي لمصر لأجل طلب العلم، بعدما استشرته – أيده الله – في ذلك وأذن لي. فسافرت في البحر متوجّهًا للمقصود، فكان من أمر الله تعالى الملك المعبود، ما كان من أسري في يوم الخميس الرابع عشر من شعبان سنة أربع وتسعين وتسعمائة (14 شعبان 994/1 غشت 1585).

فعند ذلك، لجأت إلى الله تعالى، وتوكّلت عليه، وعلمت أن خلاصي لا يكون إلاّ على يديه، لما تحصّل عندي من عظيم فضله، وكريم أصله، أيّده الله، فكاتبته بأبيات حضرتني من بلاد الكفرة، أذلّهم الله، ورغبت منه أن يُخلّصني ممّا أنا فيه، وهي هذه :

تَجَلَّتْ عنِ العَانِي الأَسِيرِ المُكَبَّلِ هُمُومٌ سَرَتْ فِي الجِسْمِ في كلِّ مَفْصِلِ
بِذِكرِ الإمَامِ الهَاشِمِيِّ الذِي سَمَا بِسِيمَةِ خَيْرِ الخَلْقِ فِي كُلِّ مَحْفِلِ
إمامِ العُلاَ المَنْصُورِ فَخْرِ أَئِمَّةٍ بِهِ قَدْ تَحَلَّى كُلُّ جِيدٍ مُعَطَّلِ
به رَاقَ وَجْهُ الأَرْضِ وَافْتَرَّ ثَغْرُهُ وَحُلِّيَ جِيدٌ مِنْهُ بالدُّرِّ والحُلِي
إمَامٌ هُمَامٌ هَمُّهُ طُولُ هِمَّةٍ ظُبَا مَالهِ غيرِ المَعَالي بِصَيْقَلِ
فكمْ تضْحَكُ الخَيْرَاتُ في بَطْنِ كَفِّهِ وَيَبْكِي دِمَاءً كُلُّ رُمْحٍ وَمُنْصُلِ
وَكَمْ جَاوَزَ الغَايَاتِ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ أَرَادَ الثُّرَيَّا أَمَّهَا في التَّنَزُّلِ
فَغُرُّ اللَّيَالي مِنْ سَنَاهُ تَوَقَّدَتْ ضِيَاءً بِنُورٍ للخِلاَفَةِ مُشْعَلِ
زَكِيٌّ زَهِيٌّ للسَّمَاحِ سَمَاءُهُ جَنَاحٌ لِّنَسْرِ النَّصْرِ في كلِّ جَحْفَلِ
إِمَامُ الهُدَى بَحْرُ النَّدَى قَسْوَرُ الرَّدى إلى المُعْتَفِي والفَاجِرِ المُتَضَلِّلِ
بِحَقِّ الذي أَوْلاَكَ مُلْكًا فَنَجِّنِي من الهُلْكِ يَا قَصْدَ الأسِيرِ المُكَبَّلِ
وكُنْ يا إمَامَ العَدْلِ في عَوْنِ حَائِرٍ أَسِيرٍ كَسِيرٍ ذي جَنَاحٍ مُذَلَّلِ
لَقَدْ مَزَّقَتْ أَيْدِي الزَّمَانِ وَرِيدَهُ وَدَارَتْ عليهِ الدَّائِرَاتُ كَجُلْجُلِ
وَأَخْنَى عليهِ الدَّهْرُ منْ كُلِّ وِجْهَةٍ وَدَاسَتْ عليهِ النَّائِبَاتُ بِأَرْجُلِ
وَعَافَاكَ رَبُّ العَرْشِ يَا مَالِكَ العُلاَ وَدُمْتَ إِمَامًا في عَلاَءٍ مُزَمَّلِ
وَلاَزِلْتَ حَجَّ المُعْتَفِينَ وَكَعْبَةً مَطَافًا لأهْلِ الفَضْلِ في كُلِّ مَحْفِلِ

فما بلغت إليه – أيّده الله – إلاّ بعد تكفّل همّته العلية بإخراجي، لأنه – أيّده الله – كان كتب في شأني لقوّاد الثّغور أنْ يبحثوا عني، وفي أي موضع من بلاد الكفرة – أذلّهم الله – مستقرّي. فانظر همّته العلية، ما أكرمها، ونجدته الهاشمية، ما أعظمها،

هكذا هكذا وإلاّ فلاَ لاَ.

هذا هو شأنه – أيده الله – في شأن خَدَمَتِهِ ومُحبِّيه، أبقى الله وجوده وأدام سعوده.

ولو تتبّعتُ ما فعل بالكفرة من التضييق عليهم بسبب مسألتي، لما وسع هذه العجالة.

ولقد تذكّرتُ بُنَيَّةً في ذات يوم، ففاضت دموعي، مع ما كان من ذلّتي وخضوعي، فقلت :

يَـا أُمَّ عِـزٍّ حَـالَ بَيْنِي عَنْكُـمُ   فَتَـقَاطَرَتْ بِفِرَاقِكُـمْ أجْفَانِـي
أَجْرَتْ دُمُـوعًا بَلْ دَمًـا بَلْ مُـهْجَةً   حَلَّتْـهَـا فَـتَـرَاكَمَـتْ أَحْزَانِـي
أَجْـرِي دُمُـوعَكِ لِلْفِـرَاقِ وَأَسْـعِـدِ   فَـمُـصِيبَـتِي في الأَهْلِ والأَوْطَانِ

وكان خروجي في السابع عشر رجب سنة خمس وتسعين وتسعمائة (17 رجب 24/995 يونيو 1587)، بعدما لبثْتُ في السّجن نحو أحد عشر شهرا، وقام عليه فدائي بما يُعادل عشرين ألف أوقية، وفرّج عنّي كربتي، فرّج الله عنه كرب يوم القيامة، لما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من فرّج عن أخيه المسلم كربة من كُرَب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب الآخرة"

وحيث بلغت للحضرة العلية – مراكش حرسها الله – في يوم الإثنين الثامن من شعبان، من عام تاريخه (15 يوليوز) قمت بين يدي مولانا المنصور بالله، – أيده الله – بقصيدة نونية مطلعها :

مِنَ العَـتِـيقِ عَـقِـيقُ العَـيْنِ هَتَّـانُ   سَلْ عَنْهُ سَلْعًا فَمَـا يُغْنِيكَ نَعْـمَانُ

وفي آخرها يقول :

أَنْقَـذْتَنِي منْ وَثَاقِ الأَسْـرِ يَا أَمَلِـي   ومنْ هُمُـومٍ لَّهَا في الصَّـدْرِ بُنْيَـانُ
لاَزِلْتَ تَرْفُلُ في العَلْيَـا وَ فِي حُلَلٍ   بِهَا منَ النَّصْرِ والتَّأْيِيـدِ أَلْـوَانُ
مَادامَ ثَغْـرُكَ لِلْعَافِيـنَ مُبْتَسِمًـا   وَمَـا هَمَـا مِنْ جَزِيلِ البَذْلِ هَتَّـانُ

ثمّ قال :

وتوخّى الطريق على البحر، فركب السُّفين من ثغر تِيطاون، فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق، فأسرتهم، وحصل في ورطة عظيمة، لولا ما تداركه من ألطاف الله تعالى، وشمله من عنايته على يد أمير المومنين بعوائد صلاته، ومآثره الفخمة التي تجلي الخطوب المدلهمّة، وتفكُّ عن العناة قيود النوائب الملمَّة، فطيّر إلى أبوابه العليّة كُتبه من أرض العدو، ضارعاً ومتطارحاً عليه وناشداً للموات التي لا يُخْفرُ ذمامها لديه، فانبعث لها أيّده الله، وحفظ عهودها، ووصل إليه أيضا أخوه العدل الشهير من صنف الحضر بفاس بوفور العقل وكمال الدهاء محمد شقرون ابن القاضي في جملة أهل بيتهم بفاس وأشفق منه، وترحّم له، ووعده بخلاص أخيه، وهنّاه ممّا أهمّهُ من أمره.

وكتب – أيّده الله – في شأنه إلى قائد ثغر تيطّاون وإلى الأمين بها على أخماسها ومغانمها، التاجر الأرضى، أحمد المفضل، يُحرّضهما على السّعاية في افتدائه، وصرف العناية إلى استخلاصه بكل وجه يُمكن.

وكان الكفرة قد توسّموا فيه مخايل السّراوة، وتنسّموا منه رائحة الحسب والأصالة، فانبعثت مطامعهم إليه، وشطّطوا في الفداء عليه. وبعث إلى أهله في ولد نصراني معلم ماهر قد نصبه طاغية قشتالة لصناعة أكوار الأنفاط وعمل السلاح بحجرة بادس، فكان له بذلك عندهم خطر وبال، وزعم النصراني لابن القاضي بافتدائه بولده، وكان من أسارى الجانب العالي الإمامي، ومن سبيِ وادي المخازن، فتقدّم بنو القاضي إلى أمير المومنين أيده الله فيه، وكان لديه – أيده الله – من أهل الفدية والمقاطعة بالأموال الطائلة، فدفعه إليهم، ولم يكن شيء أسهل عليه من بذله لهم على خطره، فذهبوا به لفاس لينطلقوا به إلى تيطّاون للموعد الذي ضربوا به مع والده، فوافق ذلك ما كان من خلاص أخيهم الفقيه السيد الحاج أحمد وخروجه من سبتة إلى تيطاون بتدبير التاجر الأرضى السيد الحاج الفلّوسي، من أهل مكناسة الزيتون أمّنها الله. كان في بلاد العدو منذ أعوام يُخاصم في مقاطعات بعض الأسارى غدره بها علج ارتدّ إلى دينه الأول، ومرّ في طريقه إلى جبل الفتح بالسيد الحاج أبي العبّاس أحمد ابن القاضي، فاحتال وتلطّف حتى قاطعه بمال لم يخل عن رفق لمكايد اعتمل في استخلاصه بها، فلم يتفطّن لها الكفرة إلاّ من بعد عبوره إلى سبتة، فأدركتهم النّدامة، وطيّروا السّفن إثره، فأفلت من حبالها ابن القاضي، وحصل في أُنشوطتها الحاج الفلّوسي مُسْتخلصه، فلم يتخلّص منها إلاّ بعد عصب الرّيق وبجاه أمير المومنين – أيده الله – وعنايته وإغلاظه على من تحت إيّالته من أساقفة الكفرة وقسّيسيهم الذين على يدهم مفاداة أسارى المشركين.

فعمل الحاج أبو العبّاس ابن القاضي وقومه وجوههم إلى أمير المومنين – أيده الله –، يسألونه الإنعام عليهم بما تقاطع به من المال لبقاء الحاج الفلّوسي رهينة فيه هو وسلعه بسبتة، فلقاه – أيده الله – براً وإكراماً وأمر بتلك العدّة من المال فدُفعت إليه من حينه، وشفّعها له بصكّ سوغه به – أيده الله – ما حصّل منه على ربح عظيم أورثه الثروة.

وكان صاحبنا الحاج أبو العبّاس يزعم أن جملة المال ممّا بذل له أمير المومنين أيده الله في المقاطعة، وما حصل عليه من الرِّبح بسبب ما سَوّغه، وبما طرح عنه من الملازم بعنايته وجاهه تناهز عشرين ألفا يعدُّها عدّا، ويفصلها تفْصيلا.

وهذه مَنقبة عظيمة، ومأثرة جليلة جسيمة، لو لم يكن يُحكى من مناقبه – أيده الله – ومآثره في هذا الباب إلاّ هي لكانت كافية، وبجميع المفاخر وافية، لما تدلّ عليه من عظيم الكرم والجود، ورعي الذّمام وحسن الوفاء بالعهود، والله ولي التوفيق". اهـ.

وكانت ولادته عام ستّين وتسعمائة (1552/960)، ووفاته – رحمه الله – سنة خمس وعشرين وألف (1616/1025).

وقد رمز المكلاتي لوفاته بحروف، وهو شهاب فقال :

وَخَرَّ شِهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ مَنْ بِهِ (وَهُوَ شِهَابٌ) ظُلْمَةُ اللَّيْلِ تَنْجَلِي.

إرغام الأسرى على مفارقة دينهم واستعارة أسماء ذوي الرياسة والجاه منهم

كانت العادة جارية على إرغام الأسرى على مفارقة دينهم، واستعارة أسماء ذوي الشهرة والرياسة منهم، وخصوصاً إذا كانوا من أهل العلم أو ينتسبون إلى بيوت الشهرة والأصالة في الدين من أرباب الزوايا، والأُسَر البارزة في آفاق الرياسة وميادن الجهاد.

وكم قرأنا من قصص أشخاص ينتسبون إلى أُسر حُماة الإسلام والذّابِّينَ عن كيانه بالسِّنان والقلم، ارتدّوا عن دينهم بما لا يكاد يُصدّق.

والغالب على الظّن أن الأحبار والرّهبان كانوا يتّخذون أشخاصاً منهم أو من غيرهم من المبشّرين والمستشرقين ممّن يُتْقن اللغة العربية، ويُحْسن التّكلّم بها وبالبربرية أيضا، ويُسمُّونهم بأسماء الشيوخ والأمراء المشهورين، ويزعمون أنهم اختاروا النصرانية على

وتوخّى الطريق على البحر، فركب السُّفين من ثغر تِيطاون، فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق، فأسرتهم، وحصل في ورطة عظيمة، لولا ما تداركه من ألطاف الله تعالى، وشمله من عنايته على يد أمير المومنين بعوائد صلاته، ومآثره الفخمة التي تجلي الخطوب المدلهمّة، وتفكّ عن العناة قيود النوائب الملمّة، فطيّر إلى أبوابه العليّة كُتبه من أرض العدو، ضارعاً ومتطارحاً عليه وناشداً للموات التي لا يُخْفرُ ذمامها لديه، فانبعث لها أيّده الله، وحفظ عهودها، ووصل إليه أيضا أخوه العدل الشهير من صنف الحضر بفاس بوفور العقل وكمال الدهاء محمد شقرون ابن القاضي في جملة أهل بيتهم بفاس وأشفق منه، وترحّم له، ووعده بخلاص أخيه، وهنّاه ممّا أهمّهُ من أمره.

وكتب – أيّده الله – في شأنه إلى قائد ثغر تيطّاون وإلى الأمين بها على أخماسها ومغانمها، التاجر الأرضى، أحمد المفضل، يُحرّضهما على السّعاية في افتدائه، وصرف العناية إلى استخلاصه بكل وجه يُمكن.

وكان الكفرة قد توسّموا فيه مخايل السّراوة، وتنسّموا منه رائحة الحسب والأصالة، فانبعثت مطامعهم إليه، وشطّطوا في الفداء عليه. وبعث إلى أهله في ولد نصراني معلم ماهر قد نصبه طاغية قشتالة لصناعة أكوار الأنفاط وعمل السلاح بحجرة بادس، فكان له بذلك عندهم خطر وبال، وزعم النصراني لابن القاضي بافتدائه بولده، وكان من أسارى الجانب العالي الإمامي، ومن سبيِ وادي المخازن، فتقدّم بنو القاضي إلى أمير المومنين أيده الله فيه، وكان لديه – أيده الله – من أهل الفدية والمقاطعة بالأموال الطائلة، فدفعه إليهم، ولم يكن شيء أسهل عليه من بذله لهم على خطره، فذهبوا به لفاس لينطلقوا به إلى تيطّاون للموعد الذي ضربوا به مع والده، فوافق ذلك ما كان من خلاص أخيهم الفقيه السيد الحاج أحمد وخروجه من سبتة إلى تيطاون بتدبير التاجر الأرضى السيد الحاج الفلّوسي، من أهل مكناسة الزيتون أمّنها الله. كان في بلاد العدو منذ أعوام يُخاصم في مقاطعات بعض الأسارى غدره بها علج ارتدّ إلى دينه الأول، ومرّ في طريقه إلى جبل الفتح بالسيد الحاج أبي العبّاس أحمد ابن القاضي، فاحتال وتلطّف حتى قاطعه بمال لم يخل عن رفق لمكايد اعتمل في استخلاصه بها، فلم يتفطّن لها الكفرة إلاّ من بعد عبوره إلى سبتة، فأدركتهم النّدامة، وطيّروا السّفن إثره، فأفلت من حبالها ابن القاضي، وحصل في أُنشوطتها الحاج الفلّوسي مُسْتخلصه، فلم يتخلّص منها إلاّ بعد عصب الرّيق وبجاه أمير المومنين – أيده الله – وعنايته وإغلاظه على من تحت إيّالته من أساقفة الكفرة وقسّيسيهم الذين على يدهم مفاداة أسارى المشركين.

فعمل الحاج أبو العبّاس ابن القاضي وقومه وجوههم إلى أمير المومنين – أيده الله –، يسألونه الإنعام عليهم بما تقاطع به من المال لبقاء الحاج الفلّوسي رهينة فيه هو وسلعه بسبتة، فلقاه – أيده الله – براً وإكراماً وأمر بتلك العدّة من المال فدُفعت إليه من حينه، وشفّعها له بصكّ سوغه به – أيده الله – ما حصّل منه على ربح عظيم أورثه الثروة.

وكان صاحبنا الحاج أبو العبّاس يزعم أن جملة المال ممّا بذل له أمير المومنين أيده الله في المقاطعة، وما حصل عليه من الرِّبح بسبب ما سَوّغه، وبما طرح عنه من الملازم بعنايته وجاهه تناهز عشرين ألفا يعدُّها عدّا، ويفصلها تفْصيلا.

وهذه مَنقبة عظيمة، ومأثرة جليلة جسيمة، لو لم يكن يُحكى من مناقبه – أيده الله – ومآثره في هذا الباب إلاّ هي لكانت كافية، وبجميع المفاخر وافية، لما تدلّ عليه من عظيم الكرم والجود، ورعي الذّمام وحسن الوفاء بالعهود، والله ولي التوفيق". اهـ.

وكانت ولادته عام ستّين وتسعمائة (1552/960)، ووفاته – رحمه الله – سنة خمس وعشرين وألف (1616/1025).

وقد رمز المكلاتي لوفاته بحروف، وهو شهاب فقال :

وَخَرَّ شِهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ مَنْ بِهِ (وَهُوَ شِهَابُ) ظُلْمَةُ اللَّيْلِ تَنْجَلِي.

إرغام الأسرى على مفارقة دينهم واستعارة أسماء ذوي الرياسة والجاه منهم

كانت العادة جارية على إرغام الأسرى على مفارقة دينهم، واستعارة أسماء ذوي الشهرة والرياسة منهم، وخصوصاً إذا كانوا من أهل العلم أو ينتسبون إلى بيوت الشهرة والأصالة في الدين من أرباب الزوايا، والأُسَر البارزة في آفاق الرياسة وميادن الجهاد.

وكم قرأنا من قصص أشخاص ينتسبون إلى أُسر حُماة الإسلام والذّابِّينَ عن كيانه بالسِّنان والقلم، ارتدّوا عن دينهم بما لا يكاد يُصدّق.

والغالب على الظّن أن الأحبار والرّهبان كانوا يتّخذون أشخاصاً منهم أو من غيرهم من المبشّرين والمستشرقين ممّن يُتْقن اللغة العربية، ويُحْسن التّكلّم بها وبالبربرية أيضا، ويُسمُّونهم بأسماء الشيوخ والأمراء المشهورين، ويزعمون أنهم اختاروا النصرانية على

الإسلام، ويستعملونهم في دعايتهم التبشيرية، في القبائل المغربية، لعلّهم يُموّهون على ضعفة العقول والسذَّج من الناس.

ومَنْ علم أخبار المبشّرين وأعمالهم ودعايتهم البهتانية، وخصوصاً بالمغرب الأقصى في ذلك العهد، لا يستغرب هذا، لاسيما وقد تكرَّر وقوعه منهم.

ونحن لا ننفي وجود من ينتقل من دين إلى دين، في كل زمان ومكان، وحتى في وقتنا هذا، وإنما ننفي إلصاق هذه التّهمة بأشخاص معيّنين من الأمراء وأرباب الزوايا المشهورين بالرياسة والشرف والتمسُّك بالدين، حتى يقوم الدليل القاطع عليه، وتتظافر على نقله وذكره النصوص التاريخية، وتُصرّحَ به وتقوله وتتناقله، ويعلم صحّة نسبه وأصله وفصله من الأسرة التي نُسب إليها.

والذي نعلمه، هو أن جماعة من المسيحيين معروفين بأسمائهم وأعيانهم، اختاروا الإسلام على دينهم في ذلك العصر، رغبة في الحصول على الشّهرة والجاه والرياسة والغنى والترف، لا للتبشير بالدِّين، فحصّلوا على ما رغبوا فيه، وكان منهم رؤساء القرصنة في البحر، وقواد الجيوش في البر، والتقدم في المناصب السياسية والإدارية السامية، سواء في العهد المريني أو الوطّاسي أو السعدي، بل وقبل ذلك وبعده.

وأخبارهم وتراجمهم معلومة، غير مشكوك فيها ولا موهومة؛ تناقلها المؤرخون، المغاربة والأوربيون بالبسط والتفصيل، والنقد والتحليل؛ ونعوذ بالله من الفتنة في الدين.

وصف حالة الأسرى ومعاملتهم

كانت إصبانيا (كاطلونيا وأراكونيا) والبرتقال وإيطاليا وفرنسا ومالطا وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط زاخرة بآلاف الأسرى المسلمين من تونس والجزائر والمغرب الأقصى، حتى كان الناس يدعون على مَنْ سَخِطوه : "اذهب إلى مالطا، تُباع فيها ولا تُعطى"، أي لا تُفْدى.

وكذلك كانت عواصم إفريقية الشمالية ومدنها الكبرى، كتونس والجزائر وفاس ومكناس ومراكش ورباط الفتح وسلا عامرة بآلاف الأسرى من المسيحيين، كما تقدّم وسياتي بمزيد بيان.

وكان هؤلاء الأسرى من الجانبين مستعملين في المصانع والمعامل، والأوراش الكبرى والمصالح العامة ومباني الدولة والترسانات البحرية، وخصوصاً التجذيف في السفن، في

أعناقهم الأغلال إلى الأذقان فهم مُقمحون، فإذا انتهكت قوتهم، وضعفوا عن العمل بيعوا في الأسواق كما يُباع المتاع، واستُعملوا عبيدًا أو خَدَمة في مساكن القسس والرّهبان، وعَمَلَة في الحقول والأجنّة والضّياع.

وبالجملة، فقد كانت القرصنة والتجارة في الرقيق وبيع الأسرى من أهمّ مواد التجارة وفروعها الكبرى في جميع الممالك التي على سواحل حوض البحر الأبيض المتوسط.

وكانت مهمّة فداء الأسرى، والسعي في إطلاق سراحهم بأراكونيا وكتالونيا بإصبانيا حرفة تجارية يتعاطاها التّجار وأرباب الأعمال للرّبح فيها، وكان يُطْلَق عليهم إسم إكْزِيَاسْ (Exeas)، فيتّفقون مع الأسر الذين لهم أسرى على قدر معلوم من المال للسّعي في فدائهم، ويأذن لهم الملك في الجولان في المدن والقرى لشراء أسرى المسلمين بها، ثمّ يعبرون بهم البحر إلى إفريقية الشمالية، ويجمعون ما قدروا عليه من أسرى المسيحيين، إمّا بالفداء بمن اشتروْه من أسرى المسلمين، وإمّا بالمال الذي جمعوه أثناء تجوّلهم في البلاد الإصبانية، ويرجعون لإصبانيا بأسرى المسيحيين، ويربحون في ذلك أموالا طائلة.

وقد كان هؤلاء التجار في الأسرى المسلمين يتَّجرون فيهم كما يتّجرون في السلع أخذاً وعطاء، سواء بإفريقية الشمالية أو بغيرها من دول أوربا.

وفي «المعيار»[22] أن النصارى يتغالون في شراء أسرى المسلمين لثقتهم فيما يبذله المسلمون من المال في فدائهم.

وفي الغالب كان الذين يتعاطون هذه التجارة من اليهود الكاتالونيين أو المايورقيين، وأسسوا لتجارتهم هذه عدة شركات، ومراكز تجارية بجنوة من بلاد إيطاليا. ولا يخفى ما في هذه التجارة الدنيئة المخلّة بالحقوق الإنسانية من الخزي والعار اللاحق بمتعاطيها على مرّ الأجيال والقرون.

كما كان كل أسير مسلم فَدى نفسه أو تمّ فداؤه وأراد الركوب في سفينة للالتحاق ببلده، يُؤدي ضرائب فادحة متنوعة، زيادة على العراقيل التي يُصادفها في محاولة سفره[23].

وكان كل أسير مسلم بيع في السوق اقتُطع من ثمنه عشرون في المائة (20٪) كضريبة للملك.

---

22) ص 159 من ج 2.

23) ملخص بتصرف من كتاب «اصبانيا الكاتالونية والمغرب في القرنين 13 و14»، ص 77-78.

"L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siècles"

وبعض هؤلاء الأسرى كان يُدفع في الديون والرّهون والمعاوضات التجارية بين الأشخاص، وتُسلّم مفاتيح السّلاسل والأغلال التي في عُنقه إلى محافظ خزينة المالية، ليُحافظ عليها كما يُحافظ على مفتاح الخزينة.

ولمالك كل أسير الحق في تعذيبه كيف شاء، وقتله إذا شاء، واستباحة عرضه متى شاء، ولا يُؤاخذ بذلك.

ولهؤلاء الأسرى لباس خاص يمتازون به عن غيرهم، يُمنح لهم كل سنة، وهو : درّاعة من الملف، وسروال، وقميصان، وطاقية حمراء. ويُلزمون بحلق رؤوسهم ما عدا قُزعة في الوسط، ويمشون في الأزقة والشوارع حُفاة، وطعامهم الخبز اليابس مع شيء من الفول والزيت في بعض الأحيان.

وكان الملك يُخصّص لإطعام كل أسير مسلم عنده عشرة دوانق في اليوم لا يتعداها. وكانوا موضع الشك والحذر متّهمين بكل جريمة يُمكن وقوعها، وبتعاطيهم السحر، واستعمال السموم إذا وجدوها. ولا حق لهم في ولوج المنتديات والمقاهي العامة أو شُرب حتى الماء فيها، ولا حمل شيء مما يُتوهّم أنه سلاح يُمْكن المقاومة به. ومَنْ نُسب إليه شيء من هذا، عوقب بالضرب عشرين سوطا، وأداء ذعيرة قدرها دينار أو درهمان، ويتضاعف العقاب والذعيرة بقدر عِظَم الجريمة وصغرها، ولا يخرجون في الليل إلاّ ومعهم مِشْعل ليعرفهم مَن يلقاهم في الطريق ويتوقّاهم. ولا يُمكن لأحد، كيفما كان، أن يشتري منهم شيئاً أو يستسلفهم شيئاً من الدراهم، ولو كانت قليلة، أو يضيِّفهم، أو ياويهم إلى منزله. وفي بعض الأحيان تتضاعف العقوبة بالجلد المستمر عدة أيام، والتثقيل بالحديد والسلاسل والأغلال.

وربّما كان بعض الملوك المتديّنين يأذن لبعضهم في الاستجداء لجمع ما يفدي به نفسه، وفي الاتصال بأهله وأسرته لأجل ذلك، ويمنع أسيادهم من قتلهم وتجويعهم، لما يُتوقّع من الربح فيهم، ولكن البلاء كان أشدّ.

وفي بعض الأحيان كان الأسير يُكاتبه سيّده على قدر كبير من المال يتّفق معه عليه، فإذا جمعه، سواء من الاستجداء أو الخدمة وسلّمه له، عُتق واسترجع حرّيته، ما لم يحدث مانع.

والمستفاد من هذا كله، هو ما كانت عليه حالة الأسرى، وما كانوا يُقاسونه من أليم العذاب، ويُعاقبون به من أنواع العقاب، وحمل بعضهم على الفتنة في الدين، والتمسّح. ومع ذلك فإن تمسّحهم كان لا يُجديهم شيئا، ولا يُعطيهم حريّتهم ومساواتهم مع المسيحيين

الأصليين، ولا يُزيل عنهم الرّقّ والشك والتهمة بالكيد لمن هم في أسره، وتحت سيطرته وحكمه.

وهكذا كانت حالة المدجّنين كلّهم بعد تقلّص ظلّ الحكم الإسلامي عن بلادهم بالأندلس، حتى هاجروا منها كما كان الواجب عليهم، لأن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة على كل مسلم إلى يوم القيامة. ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعه﴾ ومن تأخرّ عن الهجرة كان مآله الطرد.

وقد أخبر السفير ابن عثمان في رحلته «الإكسير في فكاك الأسير»[24] :

بأنه لمّا كان سفيراً بإصبانيا من قبل السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ومكلّفاً بفداء الأسرى وتفريق الصدقة عليهم، وجدهم معزولين بمدينة إشقوبية (Segovia) في قلعة حصينة لبعدها عن البحر خشية فرارهم، وأن هذه القلعة عالية الأسوار، ويُحيط بها حفير، وأنه اجتمع بهم، وشافههم، وبشّرهم بأن السلطان المذكور مهتمّ بهم، عامل على إنقاذهم، وأن الفرج قريباً سيأتيهم، وسلّم لهم الصدقة التي خصّهم بها، وقدرها عشرة آلاف مثقال[25]، فنال كل واحد منهم خمسة مثاقيل سكة الوقت.

ولقد كان بعض الأسرى من المسيحيين ببلاد المسلمين ينالهم نصيب من العذاب، لما كانوا يُكلّفون به من الخدمة الشاقة التي كانت تختلف باختلاف أوضاعهم ومُلاّكهم. ولكنها كانت أقل مما وصفناه من حالة المسلمين ببلاد المسيحيين، لأن الإسلام حضّ على الرفق بهم، وإن أسلموا كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم[26].

وكثير منهم حصلت له حظوة عند الملوك والأمراء، فاستخدموهم، وقدّموهم، وأحسنوا إليهم، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فيما سبق.

وأما النساء، فقد كان يقع اصطفاؤهنّ ليكنّ ربّات بيوت، وأمهات أولاد، وكم أنجبن من سَراة وأمراء وملوك وأعيان، تراجمهم معلومة، وأخبارهم في الدواوين وسجلات التاريخ مرقومة.

---

24) ص 121 و130.

25) نفس المصدر، ص 6.

26) «إصبانيا الكاتالونية والمغرب في القرنين 13 و14م» ص 71-75.

"L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIII et XIV siècles"

الفصل الثاني

عن عواقب القرصنة الوخيمة :
الأسر، والاسترقاق والفتنة في الدين؛
وما تستوجبه الشريعة والأخلاق
من العمل لتفادي ذلك

مبحث فريد

الجهود المبذولة في فداء الأسرى

لما كانت مسألة فداء الأسرى وإنقاذهم من العذاب المهين من الأخلاق الإنسانية ومن الدين، فقد اهتمّ بها الملوك والأمراء وعامة المسلمين، سواء بالمعاوضة أو الفداء بالأموال الطائلة، ووجّهوا السفارات المتعددة لملوك أوربا من أجل ذلك، وعقدوا المعاهدات والاتفاقات، لأنهم كانوا يعلمون أن فكّ الأسير من فروض الكفاية الواجبة على كل مسلم، فكانت تنجح تارة ويخيب مسعاها أخرى، كما سياتي مُفصّلا في فصله الخاص به.

وكان ملوك أوربا أيضا يُوجّهون سفراءهم إلى ملوك إفريقية الشمالية وأمرائها للمخابرات في شأن فكاك أسراهم بالمنّ أو الفداء.

وربّما وجّهوا أساطيلهم للقيام بمظاهرات عدوانية أمام بعض المراسي المغربية كسلا ورباط الفتح.

ونظّم الأحبار والرّهبان ورجال الدين بالكنائس جمعيات إحسانية لجمع الأموال والتبرعات لفداء أسراهم. وكانوا يتردّدون على المغرب لأجل هذا الغرض، فتارة ينجحون، وتارة يخيبون.

وفي الغالب كانوا يتصرّفون في تلك الأموال المجموعة، ويُنفقون منها على أنفسم وحاجياتهم، في أسفارهم وتنقّلاتهم.

قال ابن عثمان في رحلته : «الإكسير في افتكاك الأسير»[27]، عند الكلام على رخصة البابا للمسيحيين في أكل اللحوم أيّام الصوم، وإعفاء الذين يُحاربون المسلمين منهم من

الصّيام، وكذلك محمد بن عبد الوهّاب الغسّاني في رحلته أيضا المسمّاة : «رحلة الوزير في افتكاك الأسير»[28] أنّ الإصبان كانوا يتهافتون على شراء ورقة الإذن الباباوي المعروفة بالبولة (Bulla) أو" بولة دو لا كروزادا" (Bulla de la Cruzada) [29]. وكان يجتمع منها مال لا عدّ له موقوف على المراكب البحرية... أي القرصانية التي كانت تحارب المسلمين.

هذا، وقد سجّل الكتّاب والمؤرّخون الأوربيون من القسس والرّهبان المبشّرين والأسرى الذين رجعوا إلى بلادهم كمويط (Mouëtte)، وبيسنو (Busnot) في مؤلفات خاصة، والقنصل جان باتيست إيستيل (Jean - Baptiste Estelle) في مذكّراته وتقاريره التي كان يرفعها من مكناس إلى حكومته بباريس وغيرهم من القناصل والسّفراء أخبار القرصنة السلاوية الرباطية والقراصنة، وأحوال الأسرى بإفريقية الشمالية عموماً والمغرب الأقصى في العهد الإسماعيلي خصوصا، وبالغوا فيما قصّوه وسجّلوه ونشروه، وصوّروا الحالة بصورة مرعبة محزنة، بعيدة عن الواقع والحقيقة، خالية من المروءة والأخلاق الإنسانية، تثير الأحقاد والأضغان في القلوب، وتؤبّد العداوة والبغضاء بين الأمم والشعوب، ونسوا أو تناسوا أن يذكروا حالة الأسرى المسلمين ببلادهم، وما كانوا يُقاسونه من أنواع الشقاء، وأليم العذاب، والفتنة في الدين. وعليهم ينطبق المثل السائر : رمتني بدائها وانسلّت؛ وضربني وبكى، وسبقني واشتكى.

قال الكونت دوكاسطري (De Castries) في كتابه المسمى : «مولاي إسماعيل وجاك الثاني»[30] ما مضمّنه :

إن بعض المؤرّخين الأوربيين، ومنهم القناصل والسفراء والأحبار والرّهبان الذين تردّدوا على المولى إسماعيل بمكناس في مهمّاتهم الرسمية لفداء الأسرى وعقد المعاهدات، وصفوه بأوصاف بالغوا فيها وذكروا أنه كان شديداً قاسياً على الأسرى يكلفهم ما لا يُطيقون.

ولا شك أن ما ذكروه خلاف الواقع، وبعيد عن الصحة، وأن الأسرى المسيحيين كانوا يُعاملون كغيرهم من العملة، ويعاقبون كما يُعاقب غيرهم من الجناة. والحامل لهم على تسجيل هذه الأخبار المنتحلة المختلقة، هو إغراء الصدور وتهييج الأفكار للحصول على ما

---

28) ص 87.

29) وهي الحرب الصليبية.

30) ص 25 وما بعدها.

كانوا يريدونه من عطاء العامة، ولم يصفه أحد من مؤرخي عصره من المغاربة بما وصفه به هؤلاء من الشدّة على الأسرى الذين ساقتهم الأقدار إليه، وندّد بالأب بيسنو (Busnot) وغيره من القسّيسين والرّهبان إلى آخر ما ذكره.

ويُعضّد هذا ما ذكره شارل بانز (Charles Penz) في كتابه : «الأسرى الفرنسيون في المغرب في القرن 17» "Les Captifs Français au Maroc au XVII Siecle (1577-1699)"[31] من أن المولى إسماعيل كان يتساهل مع ا لأسرى الذين كانوا عنده، ويحترم عوائدهم وأحوالهم الاجتماعية، ولا يأذن في التفريق بين المرء وزوجه، ولا في بيع أحدهما دون الآخر، ويأذن أيضا في عقد الأنكحة بينهم على مقتضى شريعتهم وقانونهم، ويتولى الآباء والرّهبان الذين كانوا بمكناس القيام بذلك والمصادقة عليه، ويظهر عطفاً خاصّاً على النساء الأسيرات مع أزواجهن، و يُعطي كل أسرة منهم منزلا يختصون به، ممتازين عن باقي الأسرى الغير المتزوجين، بعيدين عنهم.

وإذا كانت امرأة أسيرة لا زوج لها أظهر الحرص على زواجها من بعض الأسرى، ويقول : ينبغي لكل امرأة أن يكون لها زوج يحصنها ويتولاها.

كما كان لا يُكلّف الأسرة المتزوجة بعمل من الأعمال التي يقوم بها الأسرى غير المتزوجين، ليتفرّغوا للقيام بواجبات أولادهم وتربيتهم.

ومن جملة ما كان يتمتّع به هؤلاء الأسرى[32] أنهم كان لهم بالساحة أو المركز المخصص لهم بمكناس كنيسة يقيمون فيها شعائرهم الدينية، بواسطة الأباء والرّهبان الذين كان السلطان رخّص لهم في القيام بها في أيامها المعتادة.

وكان لهم محلات لإيواء المرضى كالمستشفيات يعالجون فيها مرضاهم.

وكان المكلّفون بهذه المستشفيات لا يُكلّفون بخدمة أخرى. كما كان يُرخّص للأسرى في الخروج من محلاّتهم الخاصة بهم والطّواف بالمدينة إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

وزيادة على هذا، فقد كان الأسرى عند المولى إسماعيل يسكنون في المحلات المعدة لهم بدون أجرة، وتُنفّذ لهم الكسوة والمئونة، كل على قدر حاله، ويأخذون شيئاً من الدراهم الوقتية، وإن كان قليلاً كما يقولون.

---

31) ص 281-282.

32) نفس المصدر، ص 284.

ولهم مخابز خاصة بهم، وطبّاخون يطبخون لهم طعامهم وما كان يفضل على مئونتهم من الزيت ونحوه يبيعونه ويتمتّعون بثمنه[33] ثم قال شارل بانز (Charles Penz) :[34]

وعليه، فينبغي أن يُعلم أن ما كتبه الرّهبان، وكُتّاب البعثات الإرسالية، المطالبون بالفداء، وكذلك بعض الأسرى الذين استرجعوا حرّيتهم كالآباء بيسنو (Busnot) ونولاصك (Nolasque) ومويط (Mouëtte) وأضرابهم عن حالة الأسرى بالمغرب، وخصوصاً بمكناس، فيه مبالغة وتشويه، بل إخبار بغير الحقيقة ليُهيّجوا الرأي العام بأوربا ضد المغرب في ذلك العهد، ويتوصلوا إلى جمع الأموال من طريق التبرّعات والصّدقات للفداء، وليتمتّعوا هم أيضا بها في أسفارهم وتنقّلاتهم. فالنّاقد بصير، وليكن المطالع على حذر.

ويشهد لهذا ما ذكره بريتويط (Braithwaite) لمّا زار المغرب سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وألف (1133/1721) منتقداً ومندّداً بما كتب الرّهبان الذين كانوا يتردّدون على المغرب مطالبين بالفداء، فقال :[35] «إنهم بالغوا فيما قالوه أو تقوّلوه، وأنه لمّا زار الأحياء التي كان يسكنها أولائك الأسرى بمكناس، تبيّن له أنه فيها أمن ونظام، وحالتها العمومية أحسن كثيراً من الأحياء والسجون الخاصّة بالأسرى المغاربة المستعملين في السفن بأوربا.

ثم قال : تلك هي حالة الاستعباد التي لا تُطاق، والمعاملة الوحشية البربرية التي أحدثت ضجّة في العالم الدولي، والمراد منها تدنيس الإسم التركي والمغربي في العالم المسيحي...»

هذا وبكل أسف، فإن أسرانا لم يكتبوا لنا شيئا عن أسرهم واستعبادهم، وكذلك كُتّابنا ومؤرخونا لم يعتنوا بتدوين هذه الصفحة المهمة من تاريخ المغرب إلاّ جملاً ونتفاً وردت متفرقة عرضاً أثناء الكلام على قضايا أو مباحث أخرى قل مَنْ يهتدي إليها، أو ممّا دوّنه بعض الأوربيين عرضا أثناء عرض قضايا أخرى تتعلّق بأسراهم، وتهمّ أخبارهم.

نعم، تناقلت الأسر التي كانت فيها الريّاسة البحرية بالعدوتين قصصاً وأخباراً عن أسر أجدادهم وأسلافهم، وكيف فرّج الله عنهم حتى رجعوا لبلادهم، ممّا يُعدّ من الخوارق، لأنهم كانوا يفزعون إلى رجال الصلاح والدين المشهورين بالولاية واستجابة الدعاء أحياء وأمواتا، ويُقدّمون لهم الصدقات والنذر إذا فرّج الله عنهم.

---

33) شارل بانز «الأسرى الفرنسيون بالمغرب»، ص 288.

34) نفس المصدر، ص 304.

35) نفس المصدر، ص 292.

وقد أدركنا النساء العجائز الطاعنات في السن يتناقلن ذلك عن أمّهاتهنّ وجدّاتهن، ويُحدّثن به أولادهن، ويذكرن غرائب وحكايات تُعدّ من قبيل الخوارق والكرامات.

في هذا القبيل ما ذكره الشيخ أبو عبد الله محمد الصغير الإفراني، في «صفوة من انتشر، من صلحاء القرن الحادي عشر»[36] وأبو علي الحسن اليوسي في «المحاضرات»[37] قالا : إنّ رجلاً من رؤساء البحر جاء إلى الشيخ أبي الحسن علي بن منصور، المعروف بأبي الشكاوي، فشاوره على السفر في البحر، فقال له : لا تفعل، وإن فعلت، فلا تربح مالك ولا نفسك، وخرج من عنده، فأتى الشيخ أبا محمد عبد الله بن حسّون، فشاوره أيضا، فقال له : سافر تسلم وتغنم فسافر، فاتّفق عند دخولهم البحر أن أسرهم الروم، فذهبوا بهم إلى أن لقوا بعض سفن المسلمين، فوقع بينهم قتال، فظهر المسلمون عليهم، فاستمكنوا من سفينتهم التي أسرتهم، فقبضوا عليها وغنموها، ورجعوا سالمين غانمين.

ومنهم ما ذكره الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي في «ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتبّاع وما لهما من الأتباع»[38] والشيخ أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري في «نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني»[39] في ترجمة الشيخ أبي الحسن علي بن منصور أبي الشكاوي، دفين شالة، المتقدّم الذكر، أنه ورد مرة على الشيخ أبي المحاسن بفاس – وكان كثير الورود عليه – وأقام عنده أيّاما. فأصبح يوماً وجعا، فقال له الشيخ أبو المحاسن : "مالك ؟" فتغافل عنه، فأعاد عليه، فقال له : "أغثنا البارحة سفينة فضربني مقدافها في صدري". فقال الشيخ أبو المحاسن تجاهلا : "أغثتموها بالروح أو بالجثمان ؟" فقال : "أغثناها بالروحانية واستجيب لنا بالجثمان".

ومنه ما نُقل من خط الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد السلام بناني أن مسلمة أسرها النّصارى، وأعجبت كبيرهم، فأراد تزوّجها، ويوم زفافها إليه طلوها بالحنّاء على العادة، فأنشأت تقول :

---

36) ص 20.

37) ص 105.

38) ص 182.

39) ص 40 من ج 1.

أَقْــــدَمْكُــــمْ فُــوقْ رَاسِـي   يَا جُـمْلَـــةْ الصَّـالْحِـــينْ
إِذَا تْكُـــونُــوا غَـــايْبِـــينْ   وَا قْلُوبْكُـــمْ حَـــاضْـــرِيـــنْ

فأجابها الشيخ سيدي عبد الرحمان المجذوب :

يَـــا طَـالْيَـــا لْحْنَـــانِـــي   يَا شَـــادًا بالِيَـــقِـــينْ
مْنْ لاَ غَـــاثَكْ فِي سَـــاعْـــتُـــو   مَـــاهُـو مْنْ الـصَّـــالْحِـينْ

فأغاثها وافتكّها من أيديهم وهو بمكانه(40).

ومثل هذه الكرامات كثيرة متواترة جدا، وتتبّعها يطول. وقد ذكر الأحبار والرّهبان جملة منها في كُتبهم في حقّ أسراهم.

وذلك لحسن ظنّ الناس بالصالحين، واعتقادهم في استجابة دعائهم الصّالح المستمدّ من مدد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكما كانوا يلتجئون إلى أهل الخير المشهورين باستجابة الدعاء، فقد كانوا يُكثرون منه في الأوقات الوارد فيها قبول الدعاء كيوم الجمعة.

ولذلك كان الخطباء يقولون في آخر دعائهم في الخطبة الثانية : واشف مرضانا، وفُكّ أسرانا، وبلّغ مسافرنا... وكذلك الوعّاظ والمرشدون وشيوخ الطرق في حِلَقِ الذكر، لأن أمر أسراهم كان يهمّهم جداً.

وقد أكثر الناس في ذلك العصر من تآليف المؤلّفات في الحض على الجهاد برّاً وبحرا، واستنفار الناس إليه، وبذل كلّ مجهود في سبيله من الصّدقات والتبرّعات لردّ غارة العدو عن البلاد، وخلاص الأسرى من دار الحرب بكلّ ما يُمْكن من الأسباب والوجوه المتعيّنة.

وكان بعض أهل الجاه والصلاح في ذلك العصر، شأنه وحرفته أن يتسبّب في افتكاك الأسرى، ويبحث عن صدقة الشيخ أبي العبّاس السبتي ويدفعها في فدائهم.

قالوا : ومن كان غنياً عن الصّدقة، وصَرَفَها على فقراء الأُسارى فهو حسن ولا بأس به (41).

---

40) «النوازل الكبرى» للوازّاني، ص 33 من ج 3.

41) «أجوبة سيدي عبد القادر الفاسي»، ص 33.

ولمّا تكلّم الفقهاء على مصارف الزّكاة الثمانية، عند قول خليل :"أو فكّ أسيرهم يُجزْهُ..." على المشهور، قالوا : ومقابله قول ابن حبيب باجزائه وهو أحق وأولى من فكّ الرقاب التي بأيدينا، لأنها رقبة مُلكت بملك الرّق، وستخرج من رقّ إلى عتق، ووافقه على ذلك ابن عبد الحكم .

ولو أخرج المزكّي الزّكاة وأُسر قبل صرفها، جاز فداؤه بها، ولو افتقر لم يُعطها، وفُرّق بعودها له، وفي الفداء لغيره.

وقال ابن عرفة : لو أُطلق أسير بفداء دين عليه، أعطى من الزّكاة اتّفاقا لأنه غارم. وإن قاطع الأسير على نفسه، وخرج إلى أرض المسلمين وطلب منهم الفداء فإنه يُعطي من الزّكاة لأنه غارم.

والظّاهر أنه إذا أُطلق سراحه في بلاد الكفّار، وطلب الزّكاة من المسلمين المتأخّرين في تلك البلاد، فإنه يُعطى كما يُوخذ من لفظ ابن عرفة، ومن التعليل بأنه غارم.[42]

وقد عدّ الفقهاء من مصارف بيت المال بعد القيام بالمصالح العامة، كسدّ الثغور، وتثقيف الحصون، والاستعداد بالآلات الحربية، وبناء القناطر والسدود... فكّ الأسرى وقضاء الديون.

ورخّصوا في فدائهم حتى بالطعام والخنزير والخمر، قال في «المختصر» : "وجاز بالأسرى المقاتلة، وبالخمر والخنزير"، لأن المقصود هو عتق الرّقاب.

اعتناء ملوك المسلمين بفكاك الأسرى وفدائهم

لمّا كانت مسألة فكاك الأسرى وفدائهم من الدين والأخلاق والمروءة والإنسانية بالمنزلة التي قدّمنا وصفها، فقد اعتنى ملوك الإسلام قديماً وحديثاً بالسّعي في فكاكهم، وبذل كل مجهود ورخيص وغال في فدائهم، ونزع الأغلال التي كانت عليهم، لِمَا في ذلك من القيام بالواجب وصيانة الدين، والتّخْفيف عن المكروبين، لأنّ من خففّ عن مسلم كربة من كرب الدنيا، خفّف الله عنه كرب الآخرة، كما في الحديث الوارد.

42) شرح الحطّاب، وشرح المَوّاق لـ «مختصر خليل»، ص 350، من ج 2.

ومن راجع أخبار ملوك بني الأحمر ومراسلاتهم لمعاصريهم من ملوك أراكون وقشْتالة، علم أن جلها أو كلّها تتعلّق بفداء الأسرى، وتفادي الأضرار القرصانية[43].

وقد تقدّمت الإشارة إلى ما قام به ملوك بني مرين في هذا السبيل، وبنو وطّاس بعدهم.

وذكر دوكاسطري (De Castries) [44] أن الصلح الذي انعقد بين السلطان المولى عبد الله الغالب بالله السعدي وأنطوان دو بوربون (Antoine de Bourbon)، آخر رمضان سنة ست وستّين وتسعمائة (آخر رمضان 966/ يونيو- يوليوز 1559)، تضمّن إطلاق سراح الأسارى من الجانبين، ونصّه :

"... إن جميع أسارى فرنسا الذين تحت حكم أمير المومنين نصره الله تعالى أو عند غيره من بلاده يُعطون في الفداء ثمانين أوقية ثقيلة لكل أسير، أو يُعطون عدّة وسلاحاً مصنوعا، وأنه لا يمنع أحداً عنده أسير فرنسي حيثما وُجد في بلاد أمير المومنين - نصره الله - من الفداء.

وإذا جاءوا بأُسَارى من قشتالة أو البرتقال مسلمين، فإن مولانا يُعوّض لهم مكانهم أسرى فرنسيين."

وأما أبو العباس، أحمد المنصور السعدي، فقد حدّث عنه العلاّمة المؤرخ، قاضي سلا، أبو العبّاس، أحمد بن محمد ابن القاضي، وهو أحد الأعلام الذين سعى في إطلاق سراحهم من الأسر في الباب الثامن من كتابه : «المنتقى المقصور، على محاسن أبي العبّاس المنصور» الذي عَقَدَهُ للتحدّث عن طيب نفسه وسخائه، وبذله الأموال في طاعة ربّه وكرمه، وحسن خيمه وثنائه، مشيداً بما كان يُظهره من الاعتناء بفكاك الأسرى، ومتحدّثا عن أسره، واهتمام المنصور بفدائه، فقال :[45].

كان ما جاءه معتق من المسلمين أو من اليهود الذين تحت ذمّته قط يطلب أسيراً نصرانياً عوضاً عن مسلم أسير إلاّ ويبذله له عن طيب نفس باسم الثّغر، قاصداً به الأجر، وكثيراً ما يقول في مجالسه : أيّما عان تعذّرت عليه حاجة في أسير أو غيره، فَلْيَاتِينَا لنقضيها له. حدّثني بهذا غير واحد ممّن أثق به، وكثيراً ما بذل من الأسارى والأموال في هذا المعنى، قاصداً به الدار الآخرة، والقربات الفاخرة.

---

43) «مجموعة رسائل بني الأحمر مع ملوك إصبانيا»، طبع مادريد سنة 1940.

44) المجلد الأول الخاص بالسعديين، السلسلة الأولى من وثائق الدولة السعدية، ص 181.

45) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1059.

وقد أخرج يهودياً من الأسر من جزيرة مالطا بمال عظيم إذ طُلب ذلك منه أيّده الله.

وقد منّ الله تعالى على كثير من عظماء النصارى الذين أسرهم في غزوته العظيمة بمنّته عليهم، فأرغم بذلك أنوفهم، واستعبد به ألوفهم، فكان يُعطي -أيّده الله تعالى- عُظماء النّصارى الذين يُباعون في الأسواق بالأموال الطائلة لمن يستحقّهم من ضعفاء أسرى المومنين المفتقرين إلى ذلك.

ولقد شاهدت من ذلك كثيرا، ومصداق ذلك ظاهر للعيان، وبه تشهد العامّة والخاصّة والأعيان.

وأخرج من بلاد الكفرة، جزيرة الأندلس وغيرها، ما لا يُحصى كثرة بالأموال الطائلة، التي لم يسبق إلى بذل مثلها ملك قبله.

هكذا كان اعتناء ملوك المسلمين بفداء أسراهم وإنقاذهم من العذاب المهين، وردّهم إلي دينهم ووطنهم الأمين. وسنرى في الصّفحات الآتية أن ملوك دولتنا الشريفة العلوية بذلوا في هذا السبيل كلّ رخيص وثمين.

اهتمام ملوك الدولة
العلوية بفداء الأسرى

لمّا جاء ملوك دولتنا الشريفة العلوية، مدّ الله ظلّها، وزكّى فرعها وأصلها، أربوا على من تقدّمهم من الملوك في هذا الميدان، بما خلّف لهم الثّناء العاطر والذكر الجميل على ممر الأجيال والأزمان.

وخصوصاً منهم السلطان الأعظم المولى إسماعيل، وحفيده السلطان الجليل سيدي محمد بن عبد الله حسبما سياتي بعض ما سَطَّرَتْهُ لهم في هذا الشان، أقلام الشكر والامتنان، في سجلات حسناتهم التي لا تُحصى، ولا تضمحلّ ولا تفنى، وما عند الله خير وأبقى .

فكاتبا ملوك وأمراء أوربا، ووجّها السفراء إليهم، وبذلا الأموال الطائلة في عتق رقابهم، وردّهم إلى أوطانهم، ووضعا عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

موقف المولى إسماعيل من فداء الأسرى

كان عند السلطان المولى إسماعيل – رحمه الله – من أسرى النّصارى المستعملين في بناء قصوره ومبانيه الضخمة خمسة وعشرون ألف أسير، حسبما أخبر بذلك الزّياني في «البستان الظريف»[46].

منهم الرّخامون والنقاشون والنجارون والحدّادون والمنجّمون والمهندسون والأطباء.

وكان في إصطبله بمكناس إثنى عشر ألف فرس، ولكل فرس سائس من المسلمين وخادم من أسرى النصارى يتولّى خدمته[47].

وأسر من الإصبان، لمّا فتح المهدية أو حلق المعمورة، نحو ستة وثلاثمائة أسير، على ما في «الاستقصا»،[48] وفي «تاريخ الضُعيّف» ثمانية وعشرين وثلاثمائة أسير.[49]

وأسر من نصارى العرائش، لمّا فتحها ألفي أسير[50].

وادّعى الإصبان أن السلطان كان واعدهم بتأمينهم، وأخلف وعده، فأمر قاضي حضرته المكناسية أبا عبد الله، محمد المعروف بأبي مدين ببيان حكم الشرع في ذلك، فأجاب جواباً طويلاً حرر فيه حكم الشريعة المحمدية بما لا غاية فوقه، وحكم على أولائك النصارى الأسارى بالأسر.

وقد ذكر ذلك بتمامه القاضي أبو القاسم العميري في «فهرسته»[51]. فليُنظر هناك.

ولمّا تمّ الفتح، أمر –رحمه الله– بإشخاص أولائك النصارى الأسارى إلى مكناسة الزيتون، وضمّهم إلى غيرهم من المساجين والأسارى الذين كانوا بها، فكانوا يستعملون في بناء قصوره ومنازله الفخمة الضّخمة ودوره.

وفي أسرى العرائش وقتلاها، يقول أديب فاس ومُفتيها، أبو محمد، عبد الواحد بن محمد الشريف البوعناني من قصيدة طويلة :

---

46) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

47) «الاستقصا» ص 25 من ج 4، طبع القاهرة. وص 78 من ج 6، طبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

48) ص 30 من نفس الجزء. وص 87-88. من نفس الجزء.

49) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا، ص 105 من ج 1.

50) ص 34 من ج 4، طبع القاهرة. وص 99 و 100 من ج 6 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

51) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

وكَمْ أسْـرى وكم قَـتْلـى بـأرْضٍ وكم جَـرْحى دِمـاؤُهُمُ تَفُـورُ

وفيهم يقول الشريف الأديب أبو محمد، عبد السلام بن الطيب القادري من قصيدة طويلة أيضا :

وَهَانَ عَلَيْـهِمْ كُلُّ هَوْلٍ وهَـائِلٍ وربْقَـةُ أسـرٍ بَعـدَ طُولِ تَهَـاوُشِ
تَـرَى كُلَّـهُـمْ فـي الأرض بـاديَ ذِلَّةٍ كَسيـفًا أَسِيـفًا بَالُهُ غَيْـرُ نَاعِشِ
يُسَاقُ بِأَيْدِي الجَيْشِ سَوْقَ مَهَانَةٍ يَهُـزُّ خَسَـاةَ الخَـوْفِ هَزَّةَ رَاعِشِ
يعضّ يَدًا أوْ يَنْتِفُ الرّأس واللِّحي لأنْ لَمْ يَمُتْ مِنْ قَبْلُ مَوْتَ الهَوَارِشِ
كَـأنّهُمُ الغِـرْبَانُ قُصَّ جَنَاحُـهَـا وَبَلَّتْ بِوَبْلٍ مِنْ مَـوَاكِبِ فَـاحِشِ

قال الزّياني في «البستان الظريف»[52]: "كان المولى إسماعيل لا تسمح له نفسه بفداء الأسرى".

قلت : ولكنّه، لمّا علم ما يُقاسيه أسرى المسلمين بفرنسا وإصبانيا وغيرهما من الدول الأوربية من المحنة والعذاب الأليم، والتعرض للفتنة في الدين، سمح بهم، وكاتب ملوك أوربا بمبادلتهم ومفاداتهم.

وكان يحرص كل الحرص على أن يكون الفداء رأسا برأس، ويرى أن ذلك من الواجب شرعاً وديناً وأخلاقا، أو بالآلات الحربية ليستعين الجيش بها، ويُفضّل ذلك على المال.

وكان بفرنسا عدد كبير من الأسرى المغاربة يستعملهم لويس الرابع عشر جدّافين في سفنه القرصانية، ولا يقبل فيهم فداءً لأن لا يحصُل فيها تعطيل، حتى إنه في أوائل سنة إحدى وسبعين وستمائة وألف (1082/1671) كتب الأسارى الفرنسيون الذي كانوا بفاس إلى الوزير كولبير (Colbert) كتاباً يستعطفونه فيه ويطلبون منه أن يُطلق سراح بعض الأسارى السلاويين المستعملين في السفن فداءً لهم، لأن ملك المغرب لا يقبل فيهم الفداء إلا رأساً برأس.

وفي التاريخ المذكور طلب أحد فرسان مالطا - وكان أسيراً بفاس- أيضا من الوزير كولبير (Colbert) فداءه بإطلاق سراح أحد الأسرى السلاويين، فلم يسمع نداءهم، ولا استجاب دعاءهم[53].

---

52) مخطوط الخزانة الناصرية بسلا.

53) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة، المجلد الأول السلسلة الثانية، وثائق الدولة العلوية»، ص 396.

وهذا هو السبب في عدم نجاح ما كان يدبّر من الاتفاقات، ويُبرم من المعاهدات، بين لويس الرابع عشر والمولى إسماعيل.

وبناء على رغبته - رحمه الله - في فكاك الأسرى، وفق مبدئه، وما كان يحرص عليه، أوعز إلى بعض قواده بالمذاكرة مع قناصل ونواب بعض الدول في مبادلة الأسرى المغاربة الموجودين ببلادهم، وهم :

- القائد علي بن عبد الله، قائد المجاهدين بسبتة.
- والقائد أحمد أو محمد بن حدّو[54].
- وقائد العرائش الهاشمي بن حَدُّو

وكان لهؤلاء القواد ظهور ونفوذ بالشمال المغربي في العهد الإسماعيلي، فنجحوا في مبادلة بعض الأسرى المغاربة، بأسرى إنجليزيين وهولانديين، ولم تُسفر مذاكراتهم ومخابراتهم عن نتيجة تُذكر، أو تسطّر، مع قناصل ونواب فرنسا وإصبانيا . ولذلك وجّه المولى إسماعيل السفراء إليهم كما سياتي.

54) ورد في بعض الوثائق أحمد، وفي بعضها محمد.

الفصل الثالث

عن السفارات المبعوثة
لإصلاح الحالة الناجمة عن القرصنة،
والمحاولات الرامية إلى إثبات السلم
ومبادلة الأسرى أو فدائهم

المبحث الأول

سفارة الحاج محمد تميم التطواني إلى فرنسا وما نتج عنها[55]

بعد محاولة هؤلاء القواد المذاكرة مع قناصل فرنسا وإصبانيا وعدم نجاحهم، استفحل أمر القرصنة بالشواطئ المغربية، وأسر عدد كبير من المغاربة والفرنسيين، وازدادت الحالة ارتباكاً واشتباكا.

وأخيرا تمَّ الاتفاق بين القبطان لو فيڤر دو لابار (Le febvre de la bare)، رئيس الأسطول الفرنسي الذي كان راسياً أمام مصب أبي رقراق، والقائد عمر بن حدّو البطّوئي – وكان من أعيان القبائل الريفية، ووُجهاء الدولة الإسماعيلية، قائماً بالجهاد بطنجة وحراسة الثُّغور التي كانت إلى نظره كالقصر الكبير وتطوان وأصيلا والمعمورة، بعد فتحها – على مشروع معاهدة تتضمّن إصلاح الحالة التجارية، والقرصنة البحرية بين الدَّوْلَتَيْنِ المغربية والفرنسية، وفداء الأسرى من الجانبين.

فاقتضى نظر السلطان المولى إسماعيل، حينئذ، توجيه سفارة إلى باريس لإتمام أمر هذه المعاهدة، والمصادقة عليها، ليقع تنفيذ ما جاء في فصولها.

وعيّن لها أبا عبد الله، الحاج مُحمد تميم التطواني، وكان من رجالات الدولة البارزين المبرّزين فيها، من أسرة تطوانية، ذات سيادة ورياسة.

---

55) ملخص من المجلد الأول من تاريخ دوكاسطري (De Castries) : «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة، السلسلة الثانية، وثائق الدولة العلوية»، وكتاب : «إسماعيل الكبير امبراطور المغرب» لمؤلفه دوفونطان ماكزانج، ص 157، وما بعدها.

"Ismaël le Grand Empereur du Maroc" par Defantin Maxange.

وبمجرد ما علم لويس الرابع عشر بتعيينه سفيراً إليه، طلب التعريف بشخصيته وحيثيته، فرفع إليه رجال حكومته تقريراً بالتعريف به، بعد استقصاء البحث عنه، جاء فيه :

أنَّ أصله من الأندلس، وهاجر سلفه منها إلى تطوان عقب صدور قرار فيليب الثالث بطرد المسلمين من الأندلس سنة تسع وستمائة (1018/609)، وأنه ولد بتطوان، ونشأ بها، وله مقام واعتبار عند ملك المغرب، وتولى عمالة تطوان ومدينة سلا، وهو مشهور بتمسكه بحبل الدين المتين، وتفانيه في خدمة الإسلام والمسلمين، مع صدق ونزاهة، وإخلاص واستقامة. وكان له اتصال ومواصلة مع بعض تجار سان مالو (Saint- Malo) الفرنسيين بالمغرب، واتفقوا كلّهم على مدحه والثّناء عليه ومعرفته لمّا كان وليّا على تطوان، وخدموه بها وأعانوه، ويعرفونه أيضا لمّا كان متولّيا على مدينة سلا[56].

وعيّن السلطان أيضاً معه في هذه السفارة خديمه أبا الحسن عليّا معنينو السلاوي، صنو عامل سلا في ذلك العهد؛ وأسرة معنينو شهيرة بسلا، ذات حسب ونسب ورياسة عريقة قديمة، ذكرها ابن خلدون في تاريخه[57]، ومازالت موجودة متوافرة بسلا إلى الآن.

وأضاف إليها شخصين آخرين : أحدهما يُسمّى الحاج عبد القادر ابن أخي السفير المذكور، والآخر يُدعى المراكشي، من أقارب الحاج علي، مع ثلاثة أشخاص من الخَدَمَة والحاشية، فكان جملة رجال السفارة سبعة أشخاص.

سفر السفارة

أبحرت السفارة من تاهدّارت، شمال العرائش، على ظهر باخرة فرنسية في الحادي والعشرين من شُتنبر سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (21 شتنبر 1681/08 رمضان 1092) قاصدة مرسى بريسط (Brest)، فوصلت إليها في سابع عشر أكتوبر (17 أكتوبر/03 شوال) من السنة المذكورة، وتلقّاها أولو الأمر بها، وأشعروا السفير بعدم مبارحته لها حتى يُدلي بالرسالة السلطانية التي جاء بها ليعلم منها مقدار التفويض الذي عنده، وإسناد السفارة إليه، فامتنع أولا، ثمّ أطلع عليها سراً المبعوث الفرنسي الذي عُيّن لمرافقته أو مراقبته.

56) المجلد الأول من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية»، ص 595.
57) ص 155 من ج 6، طبع القاهرة.

وحينئذ بارح بريسط (Brest) مُتوجّهاً إلى باريس في رابع دجنبر سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (04 دجنبر 22/1681 جحة 1092)، بعدما أقام بها نحو شهر ونصف.

وكان وُصوله إلى باريس في ثلاثين دجنبر (30 دجنبر /19 جحة) من السنة المذكورة، وأنزلته الحكومة "بأوطيل السفراء"

مقابلة السفير الحاج محمد تميم للويس الرابع عشر

كانت مقابلته للملك لويس الرابع عشر بقصر السان جرمان آن لي (Saint Germain en Laye) في رابع يناير سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (04 يناير 26/1682 جحة 1093).

قالوا : ولمّا دخل عليه حيّاه بانحناء على القاعدة الشرقية، فأجابه الملك بنزع قبّعته عن رأسه.

ثم خاطبه باللغة العربية، وضمّن خطابه التّنويه به، والثّناء على ملكه مرسله، وتعظيم قدره، ورغبته في عقد صلح دائم مستقر، مؤسس على المواصلة الحبية، والحرية التجارية، واحترام القراصين من الدولتين للسفن المغربية والفرنسية، ومعالجة حالة الأسرى من الجانبين بما فيه راحة لهم وتسوية، وترجم خطابه الترجمان إلى اللغة الفرنسية.

ثم سلّم له أوراق اعتماده، فأخذها منه ودفعها لوزيره بالخارجية الماركيز دو كرواسي (Le Marquis de Croissy).

وقدّم له الهدية المعتادة في مثل هذه الاستقبالات الرسمية في ذلك العهد، وتشتمل على:

- أربع نعامات،
- وأسدين،
- ونمرة.

وبعد الاستقبال، استُدعي إلى قاعة أخرى أُعدّ له فيها طعام الغداء، كما كان الشأن جارياً به العمل إذ ذاك.

المذاكرة في الصلح
وتحرير صك المعاهدة

بعد انتهاء حفلة الاستقبال، عيّن الملك نواباً عنه للمذاكرة في الصلح وتحرير صكّ المعاهدة.

وبعد المذاكرة والمحاورة، والأخذ والرّد في جلسات متعددة، تمّ الاتفاق على تحرير مشروع المعاهدة المعروفة بمعاهدة سان جرمان أن لي (Saint Germain en Laye) المؤرخة بتاسع وعشري يناير سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (29 يناير 20/1682 محرم 1093).

وهي تشتمل على عشرين فصلا، ترجع كلّها إلى معاملة الأساطيل بعضها لبعض إذا كانت في البحر، أو التجأت إلى مرسى من المراسي المغربية أو الفرنسية، ومبادلة الأسرى من الجانبين، وتسمية بعض القناصل الفرنسيين بالرباط وتطوان، وأمضى النوّاب عليها..

ومن تأملّها وجدها وقع فيها تسامح كبير من جانب المغرب، لأن الفرنسيين أخذوا أكثر ممّا أعطوا، ولذلك لم يُصادق عليها، ولم يجر عمل بها.

احتياطات الفرنسيين بعد
وصول سفير المغرب إلى بلادهم

بمجرّد وصول السفير إلى فرنسا، أوعزت حكومتها إلى أوراش قراصينها البحرية ببريسط (Brest) وطولون (Toulon) و مرسيليا (Marseille)، وغيرها بأخذ الاحتياط التام في شأن الأسرى المغاربة لِئَلاّ يطّلع عليهم السفير، أو يتّصل بهم، أو يتّصلوا به، ويُشاهد ما يُقاسونه من المحن وأليم العذاب، أو يشكون إليه حالتهم ولوْ بالكتابة.

وبمُقتضى ذلك فرّقوهم في السُّفن التي بارحت المراسي سابحة في البحار، والباقي منهم – وهم العجزة والمرضى – جمعوهم في محلّ واحد خارج المدينة بعيداً عنها جداً.

وحاول السفير – لمّا كان بمرسيليا – زيارة أوراشهم ومحلاّتهم، فلم يُسمح له بذلك، واعتُذر له، وتأثّر جداً من هذا المنع والاعتذار وأسرّه في نفسه ولم يُبده لهم.

ما أظهره الفرنسيون من الحفاوة للسفير

لمّا وصل السفير إلى باريس، أظهر الفرنسيون، أو تظاهروا بالاحتفاء به والاعتناء بشخصه بعدما شدّدوا المراقبة عليه سرّا، ومنعوه من الاتصال بالأسرى، وأصدروا أوامرهم بذلك علانية وجهرا، وأقاموا له الحفلات، واستدعوه للضيافات، وأحضروه في المراقص وتمثيل الروايات بأشهر دور اللّهو الباريسية كالأوبيرا ونحوها، وطافوا به على متاحف باريس ومعاهدها ومعابدها، وخزائنها العلمية ومآثرها التاريخية بفرساي (Versailles) وغيرها مفتخرين بها، حتى كان الملك يسأل من حين لآخر عن مبلغ تأثره منها، فيُظهر له تعجُّباً وإعجاباً بها.

وصدرت منه في حقّها مقالات وأجوبة عن الأسئلة التي كانت تُوجّه إليه، حفظوها عنه وسجّلوها. وقد اتفق في بعضها مع السفير بعده، عبد الله ابن عائشة، كما سيأتي مفصّلا في أخبار سفارته.

وفي العهد الأخير، تصدى أحد الكتاب الفرنسيين الباحثين في أخبار علاقة المغرب بفرنسا في العهد الإسماعيلي شارل بانز (Charles Penz)، فكتب في سفارة هذا السفير كتيبا صغيرا سمّاه : «الاندهاشات الباريسية للسفير الإسماعيلي سنة 1682» (1093)

" Les Emerveillements Parisiens d'un Ambassadeur de Moulay Ismael" en 1682

وقد قامت بطبع هذا الكتيب شركة النشر سيبوني سنة 1358/1949.

استقبال لويس الرابع عشر السفير الحاج محمد التميم استقبال الوداع

لمّا انتهت مامورية السفير الحاج محمد تميم بباريس، بعد التوقيع على صك المعاهدة السلمية، استقبله الملك لويس الرابع عشر استقبال الوداع في عاشر فبراير سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (10 فبراير 02/1682 صفر 1093)، وألقى بين يديه خطبة قصيرة ضمّنها شكره والتنويه به وتعظيم ملكه المولى إسماعيل، وأشاد بمحاسن باريس وما شاهده فيها من المآثر والآثار والعجائب.

ثم قدّم الملك له ولأصحابه هدايا كما هي العادة؛ وكانت هديته :

- ثريّتان بلّوريتان .
- بندقيتان جيدتان.
- طبنجتان.
- منجنتان حائطيتان كبيرتان.
- ساعة جيب مرصّعة بالأحجار النفيسة.
- منجانة أخرى دقّاقة.
- ساعتان أخريتان في عُلبتين مذهّبتين.
- ثلاث ساعات أخر من نوع آخر.
- عدة قطع من الديباج المزركش بالذهب والفضة.
- زربية رفيعة طولها سبعة عشر دراعا ونصف.
- سرير جميل ومعه اثنا عشر مقعدا .

وقدّم لرفيقه الحاج علي معنينو :

- ثريا بلّورية .
- بندقية.
- طُبنجتان.
- منجانة حائطية.
- ساعة في علبة ذهبية مرصّعة.
- ساعة أخرى مذهبة أيضا .
- ساعة أخرى مفضّضة.
- ساعة أخرى من نوع آخر.

- منجانة دقّاقة.

- خمسة وعشرون دراعاً من الديباج القرمزي.

وخصّ الحاج عبد القادر بن أخ السفير بـ :

- بندقية.

- ساعة جيب.

- منجانة حائطية دقّاقة.

والسيد المراكشي، من أقارب الحاج علي بـ :

- بندقية.

- ساعتين.[58]

وأصحبه كتاباً منه إلى السلطان المولى إسماعيل جواباً عن كتابه الذي وجّه إليه، يعلمه فيه بتحرير صكّ المعاهدة، ويثني على السفير، ويُشعره بأنه عمّا قريب سيُوجّه سفيره إلى حضرته ليُتمّم العمل في إمضاء الصلح والمصادقة على صكّه[59].

مبارحة السفير الحاج محمد تميم باريس ورجوعه إلى المغرب

انفصل السفير الحاج محمد تميم عن باريس، راجعاً إلى المغرب في الخامس والعشرين من فبراير سنة اثنتين وثمانين وستّمائة وألف (25 فبراير 16/1682 صفر 1093).

فقصد أولاً مرسيليا، ووصل إليها في سادس عشر مارس (6 ربيع الأول) وزار بها بعض السفن القرصانية الفرنسية، ومُنع من الاجتماع بالأسرى المغاربة، كما تقدّم.

58) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الأول من السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 636.

59) نفس المصدر والمجلد، ص 629.

ثم توجّـه إلى مـرسـى طولون (Toulon) وزار أوراشـهـا، وشـاهـد في مـعـاملـهـا الـحـربيـة البحرية كيفية إفراغ بعض المدافع، ومُنع من رؤية مَنْ بها من الأسرى المغاربة أيضا.

وأبحر منها في الثامن والعشرين من مارس (18 ربيع الأول) على ظهر الباخرة لولوريي (Le Laurier) تحت رياسة القبطان البحري جان دو بيليل (Jean de Bellisle) قاصداً مرسى تطوان؛ فوصل إليها أواسط شهر أبريل (أوائل ربيع الثاني) من السنة المذكورة.

سفر السفير الحاج محمد تميم إلى مكناس وما نشأ عن ذلك من الرسائل

بعد استراحته بتطوان بضعة أيام، توجّه إلى مكناس، وأعلم مرسله السلطان المولى إسماعيل بنتيجة سفره وسفارته، وما أسفرت عنه مهمّته.

ولمّا قصّ على المولى إسماعيل جميع ما راج بينه وبين الحكومة الفرنسية بباريس، وما تظاهروا به من الاحتفاء والاحتفال به، كتب المولى إسماعيل كتاباً إلى لويس الرابع عشر يشكره فيه على ما قابل سفيره، وينوّه بقدره، ونَصّه :(60)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على من لا نبي بعده،

من عبد الله تعالى، الإمام، ملك المغرب وما والاه من أقطار الإسلام، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني.

الطابع الإسماعيلي الشريف

أيدّ الله أوامره، وخلّد مفاخره الكريمة ومآثره، آمين.

إلى عظيم الروم، الإمبراضور، ببلاد فرنسية، الرابع عشر من هذا الإسم، السلام على من اتبع الهدى.

---

60) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الأول من السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 673.

أمّا بعد، إعلمْ أنه بلّغنا أصحابنا صحبة كتابك، وذكروا لنا خيرك ومباشرتك لهم، وشكروا لنا فعلك معهم، واستحسنًا برورك بهم، وفرحك بجميعهم، فكذلك ينبغي لك أن تكون، إذ أنت من سلالة عظيم الروم الذي كتب له جدّنا وسيّدنا، ولا نرضى نحن أن نتكلّم إلا معك، لأنك قابض على أمرك، وكلام طاعتك مقصور على رأسك. وأما الأجناس الأخرى فكلامهم عند أهل ديوانهم، ولا يبلغون منزلتك عندنا أبدا، لما نعلمه من علّو همّتك عليهم، فأنت الذي تستحق أن تكون إمبراضوراً على سائرهم، ولا يستحقّ تاجهم إلاّ أنت، لأن يدك هي العليا عليهم بحذافيرهم.

وفي اليوم الذي يصلنا أمباشضور من عندك، فلا يعود إليك إن شاء الله إلاّ بما يسّرك ويُرضيك، ولأنك عندنا إلاّ ما تريده وتشتهيه في خاطرك.

والســــــــلام

وكتب خامس عشر ربيع الثاني ثلاثة وتسعين وألف (15 ربيع الثاني 23/1093 أبريل 1682)

وكتب السفير تميم رسالة أخرى إلى الملك نفسه، يُعلمه فيها بسفره من طولون (Toulon) ووصوله بخير وسلامة إلى بلاده، وملاقاته مع جلالة سلطانه، ويشكره على حسن المعاملة التي قوبل بها لمّا كان ببلده، ونصّها :[61]

بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى عظيم الروم النبرضور الويش الرابع عشر، صاحب مملكة الفرنسيس.

السلام على من اتبع الهدى.

أمّا بعد، فليكن في علمكم أنا وصلنا لبلاد الإسلام بخير ولله واجب الحمد على ذلك.

وكان ركوبنا البحر في مركب القبطان بليله، وقد أحسن إلينا غاية الإحسان، وعاملنا بالبرور والامتنان، وبالغ في إكرامنا وتعظيمنا، فوجب علينا شكره إليكم.

61) نفس المصدر والمجلد، ص 677.

وعندما وصلنا حضرة ضيفنا وسيّدنا أمير المومنين، المؤيد بالله تعالى، أبي النصر مولانا إسماعيل الهاشمي الأصيل، سألنا عن حال سفرنا وملاقاتنا معكم، ورجوعنا عنكم، وما جرى بيننا وبينكم، فأجبناه عنكم بما عاملتمونا به من البرور والإكرام لجانب مولانا المؤيد والإعظام، وتتابع الإحسان والإنعام، فشكر ذلك منكم، وحصل له اليقين عنكم، وواعدنا بمجازاة خيركم، ومبالغة إحسانكم وبركم فإذا وصل الباشاضور من بلادكم إن شاء الله، فله ما يُرضيه ويسرّه. وعرّفناه أيضا بما وقع الوفق معكم من فداء أسارى الفريقين، فأنعم بالقبول والرضى.

وهذا ما أجاب به أيّده الله من فضله.

والســـــــلام

وكُتب لثلاث بقين من ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وألف (27 ربيع الثاني 05/1093 مايه 1682).

وكتب رسالة أخرى إلى الوزير سينيولاي (Seignelay) يُعلمه فيها أيضاً بسفره في البحر، وما عامله به قبطان الباخرة التي كان فيها من البر والإحسان ويشكره على ذلك، ونصّها :(62)

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى المُبَجّل، المعظم، صاحب الدولة الفرنسية وخادمها المركيز ادسل

السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فليكن في علمكم أنا وصلنا لبلاد الإسلام وفّره الله بخير والحمد لله والمنة له. وكان ركوبنا في الرجوع في مركب القبطان بليله، وقد أحسن إلينا غاية، وعاملنا بغاية البرور والإحسان، وبالغ في إكرامنا وتعظيمنا ما فوق عند الحد، فوجب علينا أن نعلمكم بما أسداه إلينا من الخير.

---

62) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الأول، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 685.

وعندما وصلنا ضيفنا وسيدنا أمير المومنين، المؤيد بالله تعالى، أبي الفداء، مولانا إسماعيل، سألنا عن حال سفرنا وملاقاتنا معكم، ورجوعنا عنكم، وعلى ما جرى بيننا وبين معظّمكم وأميركم، فأجبناه عنكم بما عاملتمونا به من الإكرام والإجلال والإعظام، فشكر ذلك منكم، وحصل له اليقين بذلك، ووعدنا بمجازاة خيركم في مقابلة إحسانكم إلينا، وبروركم بنا، فإذا ورد، إن شاء الله، الباشاضور من بلادكم، فله ما يُرضيه ويسرّه، وعرّفناه أيضا بما وقع به الوفق معكم من فداء الأسرى من الجانبين، فأنعم بذلك وقبله ورضيه. والله تعالى يؤيده، آمين.

والســــــــلام

وكتب في السابع والعشرين من ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وألف (27 ربيع الثاني 05/1093 مايه 1682).

غلام مولانا نصره الله :

الحاج محمد تميم وفّقه الله بمنّه.

وكتب أيضا القائد علي بن عبد الله الذي تولّى على الشمال المغربي خلفاً عن القائد عمر بن حدو المتوفى بمكناس أثناء غيبة السفير بفرنسا في رابع عشر ذي القعدة عام اثنين وتسعين وألف (14 ذي القعدة 02/1092 نونبر 1681) إلى الملك لويس الرابع عشر كتاباً يُخبره فيه بأن السفير رجع مسروراً من سفارته، لمَا قوبل به من الاعتناء، ويشكره على ذلك، ويعده بأن رعاياه بالمغرب وأساطيله القرصانية ستُعامل بمزيد الاعتناء، ولا يروْن إلاّ ما يُوافق أغراضهم، ونصّه[63] :

بسم الله الرحمان الرحيم

وعن يسار البسملة، وضع القائد طابعه المستدير، ونُقش بداخله :

"خديم المقام العالي بالله علي بن عبد الله الحمامي رعاه الله"

إلى عظيم الروم، أمير مملكة الفرنسيس، النبرضور، الرابع عشر من هذا الإسم.

السلام على من اتبع الهدى.

---

63) «عيون تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الأول، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 685.

أما بعد، فليكن في صحيح علمكم أن محبّنا الحاج تميم، الباشاضور، وأصحابه رجعوا من بلادكم سالمين ولله الحمد في سفينة القبطان بليله. وعندما لقينا الباشاضور المذكور، سألناه عن حاله منذ انفصاله عنا لبلادكم إلى حين رجوعه إلينا، فذكر لنا عنكم ما وافق جميل الظّن بكم، وأنكم بالغتم في تعظيمهم، وإكرامهم، والإحسان غايةً إليهم، فشكرنا لكم ذلك، وحمدنا عنكم سلوك تلك المسالك، وأنهينا جميع ذلك لضيفنا، الإمام، أمير المومنين، وعرّفناه - أيده الله - بذلك وبجميع ما صدر منكم من الجميل، والفضل الوافر الجزيل، فها هو - نصره الله - يعلم ذلك، وواعدنا بمقابلة إحسانكم ومكافأتكم ومجازاتكم بما فيه رضاكم - إن شاء الله - إذا وصل الباشاضور الوارد عنكم. وها نحن بهذه الأقطار وبمراسي مولانا السلطان، ومهما تعيّنت بعض مراكبكم عندنا ما يرضيهم ويسرّهم إن شاء الله، ولا يروا منّا إلاّ ما يُوافق أغراضهم بحول الله.

والســـــلام.

وفي السابع والعشرين من ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وألف (27 ربيع الثاني 1093/ 05 مايه 1682).

ثم كتب نائب السفير، الحاج علي معنينو، رسالة أخرى إلى الوزير سينيولي (Seignelay) على نمط الرسائل المتقدمة، ونبّهه فيها على ولد أخته عبد الحق معنينو الذي كان أسيراً بالبرتقال، وتوسّط له في إطلاق سراحه الملك لويس الرابع عشر، وطلب منه أن يُوجّهه إليه... وسياتي بسط قضيّته في فصل خاص بها. ونصّ الرسالة :(64).

بسم الله الرحمن الرحيم

من غلام مولانا نصر الله، ومملوك داره، الحاج علي معنينو، رعاه الله، إلى الوزير المركيس دوسينيلي.

سلام على من اتبع الهدى.

64) نفس المصدر، المجلد الثاني من وثائق الدولة العلوية، ص 210.

أمَّا بعد، فإننا قد بلَّغنا لبساط سيدنا نصره الله وأدام عزّه، وسألنا - أيده الله - عن عظيم الروم لَنْبَراضور لويز الرابع عشر، فذكرنا له ما فعل معنا من الخير الكثير، ففرح لذلك نصره الله، وقلنا له : إنَّ لنبشاضور يَقْدمُ بعد شهرين على حضرة سيدنا أيده الله، وهو - نصره الله- جازم إذا قدم لنبشاضور، يُصحّح له الصلح، ويُكمل له كل ما في غرضكم إن شاء الله، ولا يكون إلاّ الصلح والعافية بحول الله وقوّته، وكل ما تحبّون يقضيه لكم.

وكذلك الولد، ولد أختنا الذي كلّمنا عليه لنبرضور، نُحبّ منك أن يكون على بالك، حتى تبلّغه لنا، وكذلك إن قدم لنبشاضور، ما ترون ولا تسمعون إلاّ جميع الخير، والسلام على عمّك دكرسي*.

وفي السادس عشر من جوان سنة 1682 (23 جمادى الآخرة عام 1093).

هذه كانت قصة سفارة السفير الحاج محمد تميم بفرنسا، وما أسفرت عنه فيما يرجع للأسرى لخّصناها هنا، وسنرى مآلها، وما نتج عنها فيما سيأتي من الأخبار المتعلقة بالأسرى وفدائهم.

* هو الماركي دوكرواسي (Le Marquis de Croissy).

المبحـث الثانـي

سفارة السانط أمان (Saint- Amans)
إلى المولى إسماعيل

لم يكد السفير الحاج محمد تميم يصل إلى المغرب، ويُنهي خبر سفارته إلى ملكه، وتصدر المكاتب التي تقدّمت إلى ملك فرنسا ورجال حكومته بشكرهم على ما تظاهروا به من تلبية الدعوة إلى السلم وتسليم الأسرى من الجانبين، حتى حدثت حوادث جديدة في ميدان القرصنة، وأسر الفرنسيون عدداً من المغاربة، جنحت سفينتهم بالسواحل البرتقالية، فاستأنف قراصنة سلا ورباط الفتح حينئذ أعمالهم، وحجزوا زورقين فرنسيين مملوأين بالسلع لبعض التجار الفرنسيين، وأشاع الإنجليز أن سفير المغرب لمّا كان بفرنسا كان تحت المراقبة، ولم يُقابل بما يجب له من الاحترام والتشريف، وتوقّف الأمر من جديد على تجديد المذاكرة في إصلاح الحالة المتجلية بين الطرفين من جديد.

وبناء على هذه الأحداث وطلب المصادقة على معاهدة سان جرمان (Saint-Germain)، عيّنت فرنسا سانط آمان (Saint- Amans) سفيراً من قبَلها لدى ملك المغرب المولى إسماعيل سنة ثلاث وثمانين وستمائة وألف (1093/1683).

وعيّنت له المشاكل التي سيُعالج حلّها، والمشاكل التي سيتّفق مع السلطان عليها، وأصدرت له تعليمات خاصة في أمور أخرى كلّفته بالبحث فيها، والاستطلاع عليها، خارجة عن المعاهدة وما يتعلّق بها فيما يرجع للمملكة المغربية، ونظام الحكم فيها، وعمرانها، وقوّتها الحربية، والحالة الاجتماعية في مدنها وقبائلها، وديانتها، ومعتقداتها، وغير ذلك...

1 – منها : استرجاع الزورقين المحجوزين بِسِلَعِهِمَا وردّهما لأصحابهما.

2 – ومنها البحث والاطلاع عن الأسرى الفرنسيين الموجودين بالمغرب والكشف عن حالتهم، وإطلاق سراح الخمس وستين أسيراً الذين وقع الاتفاق عليهم مع القائد عمر بن حدو.

3 – ومنها : اتخاذ الوسائل لحمل السلطان المولى إسماعيل على قبول ما جاء في الفصل السابع من معاهدة سان جرمان (Saint-Germain) التي باشرها السفير الحاج محمد تميم حتى يكون الفداء بالتعويض المالي وقدره ثلاثمائة ليبرة لكل شخص من الجانبين، لا بالمبادلة رأساً برأس، كما كان يراه السلطان المولى إسماعيل، لأن لويس الرابع عشر كان لا يُحبّ أن يسمع كلاماً في فداء الأسرى المغاربة، لِئَلاَّ تتعطّل سفنه القرصانية. وأوعز إلى سفيره هذا أن لا يتحوّل عن هذا الرأي، وإن ضُغط عليه أن يقول : إنه ليس لديه تفويض يُخوّله البّت في هذا الفصل.

4 – ومنها : محاولة حمل السلطان المولى إسماعيل في التضييق على الجزائريين، وتحطيم أسطولهم القرصاني، نظراً لما كان بينه وبين حكومة الجزائر التركية من الحالة الحربية.

5 – ومنها : تعظيم شأن لويس الرابع عشر لدى السلطان، وبسط ما لديه من الحول والقوة والسَّطوة، ليعتقد ضخامة المملكة الفرنسية، وأن يستعين في هذه الدعاية بالسفير الذي رجع من فرنسا قريبا، ورأى بها ما رأى، وليس من رأى كمن سمع.

6 – ومنها : السعي بكل ما يُمكنه من الوسائل والأسباب في توسيع نطاق التجارة الفرنسية بالمغرب، وترويجها أخذاً وعطاءاً، أي جلباً وتصديرا، ولو أدّى ذلك إلى زيادة فصول جديدة في صكّ المعاهدة التي لم يقع الاتفاق عليها مع السفير.

7 – ومنها : أن لويس الرابع عشر بلغه أنه يوجد بفاس أو بغيرها من المدن العلمية بالمغرب عدد كبير من ا لكتب المخطوطة العربية النفيسة، ووجّه من طرفه بعثة اختصاصية لترى هذه الكتب، وتشتري نفائسها ونوادرها، وكلّف سفيره هذا بالبحث عنها، ومعرفة موضوعها، وقيمتها العلمية والفنية، وشدّ عضُد البعثة في اقتناء ما يقع اختيارها عليه.

8 – ومنها : أن الهدية التي سيُقدّمها السفير للسلطان تكون باسمه، لا باسم لويس الرابع عشر، لِئَلاّ يُتوهّم أنها ضريبة أو غرامة.

9 – ومنها : الاستطلاع على حالة المملكة المغربية، وما هي مساحتها، وهل أراضيها خصبة فلاحية أم لا ؟.

10 – ومنها : مَنْ هم الملوك والأمراء المجاورون لها، ومَنْ منهم يُمكن أن تقع الحرب بينه وبين ملك المغرب.

11 – ومنها : البحث والاستطلاع عن قوة جيش ملك المغرب، وما هو عدد فرسانه، وعدد مشاته، وما هو سلاحه، وما هي الميزانية المخصصة له، وما هي كيفية النفقة عليه، وكيفية حربه ومقاتلته للعدو.

12 – ومنها : البحث عن الثَّوَرات التي شبّت نيرانها في هذه المملكة على هذا الملك، وكيف تمكّن من إخماد نيرانها.

13 – ومنها : ما هو نوع الحكم الذي يحكم به هذا الملك مملكته من الناحية العدلية والقانونية، ومن هم الحكام القابضون على أزِمّة الحكم في المدن والقبائل المغربية.

14 – ومنها : البحث عن عوائد هذه الأمة البربرية والعربية، وأخلاقها، ومبلغ تأثير الديانة والاعتقاد فيها.

وأُمر بأن يُحرّر في هذه المسائل كلّها مذكرات وتقارير يرفعها لملكه بعد رجوعه من سفارته[65].

ويوخذ من مجموع هذه الأوامر والتعليمات التي أُعطيت لهذا السفير أنه لم يكن سفيرا، وإنما كان جاسوساً خطيرا.

وأصحبه لويس الرابع عشر رسالة منه إلى السلطان المولى إسماعيل بتاريخ ثالث يونيه سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (03 يونيه 27/1682 جمادى الأولى 1093) يخبره فيها باعتماده له، وأنه عنده من التفويض من قبله ما يمكنه به أن يتذاكر معه في المشاكل والمسائل التي تهم الدولتين، وتؤولُ إلى السلم بين الطرفين[66].

---

65) ملخص من المجلد الثاني من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 202 إلى 205.

66) نفس المصدر والمجلد، ص 207.

وصول السفير سانت آمان (Saint-Amans) إلى تطوان.

كان وصول السفير سانت آمان (Saint-Amans) إلى تطوان مساء ثاني أكتوبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (02 أكتوبر 1682/ متم رمضان 1093)، ولم يُبارح سفينته إلاّ في الحادي عشر منه (08 شوال) لأنه وجد القائد علي بن عبد الله متغيّباً عن تطوان فبقي في انتظاره.[67]

ووجّه له الحاج محمد تميم المئونة من اللحم البقري والغنمي والخضر والفواكه من العنب والليمون والحامض وغير ذلك إكراماً له.

ولم يزره بنفسه حتى استأذن القائد المذكور وأذن له، فزاره حينئذ صحبة كاتب القائد، وأخبره بأنه متغيّب في مأمورية سلطانية بعيداً عن المدينة، وأنه سيرافقه إلى الحضرة السلطانية، وعند مرورهم بمدينة سلا، سينضمّ إليهم الحاج علي معنينو.

ثم زاره مرّة أخرى، وقدّم له قدراً آخر من المئونة كاللحم والدجاج وغير ذلك من الفواكه والخضر.

وكان كلّما جاء السفينة زائرا، صرف ليلته فيها معه.

ولما رجع القائد من غيبته، نزل السفير إلى البر في التاريخ المتقدم، واستقبله القائد استقبال الأمراء في خيمته الخاصة، وقدّم له طعاما وفواكه، وتوجّه صحبته إلى تطوان، يحيط بهما عدد كبير من الخيالة الذين كانوا يلعبون بمهارة فوق خيولهم في الطريق، ويُطلقون بنادقهم في الهواء إظهاراً للفرح به.

وأنزله القائد بدار خاصة به، تحيط بها عرصة، وفيها ما يحتاج إليه من وسائل الراحة، وكلّف الحاج محمد تميم بالقيام بكل ما يحتاج إليه من المؤن التي أجراها عليه كل يوم.

---

67) نفس المصدر والمجلد، ص 314-315.

مبارحة السفير لتطوان في
طريقه إلى المحلة السلطانية.

بارح السفير سانت آمان (Saint-Amans) تطوان يوم تاسع نونبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (09 نونبر 09/1682 ذي القعدة 1093) في طريقه إلى المحلة السلطانية، ووصل إلى سلا يوم العشرين منه، وتلقّاه على مرحلة من المدينة الحاج علي معنينو ومعه جماعة من الأعيان، راكبين الخيول المسوّمة، والقنصل الفرنسي، والتجار الفرنسيون بالرباط، وفرقة من الجيش السلطاني.

وقبل ولوجهم باب المدينة، أطلق الجيش بنادقه، وجالت خيوله في الميدان الذي كان معدّاً لذلك هناك.

ولمّا دخلوا المدينة أنزلهم قائدها الحاج ابراهيم معنينو في دار حسنة أعدّها لهم، وأضاف لها دارا أخرى مصاقبة لها نزل بها أصحاب السفير وحاشيته. وبمجرّد استقرارهم بها زارهم القائد بنفسه، ورحّب بهم، وأصدر أوامره بتنفيذ جميع ما يحتاجون إليه من المؤن وغيرها.

وفي الغد ردّ له السفير الزيارة، وزاره أيضاً قنصلا إنجلترا وهولاندا بالرباط.

وفي الثاني والعشرين منه، عبر السفير نهر أبي رقراق إلى رباط الفتح - وكان النهر مرسى الأساطيل القرصانية في ذلك العهد - فحيّته السفن التي وجدها الحال راسية به بمدافعها.

وتلقّاه على شاطئ الوادي قائد المرسى، الحسن بن محمد سكيريدو، وهو الذي أُسندت له السفارة بعد ذلك بهولاندا من سنة ست وثمانين وستمائة وألف إلى سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف (1688-1686/1098-1100)، كما سياتي.

واستقبله بباب مدينة الرباط، على الضفة اليُسرى للوادي، قائد مدينة الرباط، وتوجّه القائدان معاً صحبته إلى النزل الذي عُيّن له، ووجد فيه كُلَّ مَا يحتاجه من الطعام ولحوم البقر والغنم والصيد وغير ذلك.

وفي وقت الغذاء، وجّه لهم قائد المرسى سبع موائد من الطعام المطبوخ المختلف الألوان من اللحوم والدجاج والسفنج والكسكس والحلاوي المتنوّعة والتمر والحليب.

وفي اليوم نفسه ردّ السفير الزيارة للقائدين بالمرسى والمدينة، واعتذرا له عمّا يكون صدر منهما من التقصير في تنفيذ الأوامر السلطانية الصادرة إليهما بالاعتناء به.

وبعد الفراغ من الزيارة بعد الغروب، قُدّم له فرس مسْرج ليركبه إلى محلّ نزوله، وصحبه جماعة من الأعوان يحرسونه، حاملين الشموع المضيئة لطريقه.

مبارحة السفير رباط الفتح ووصوله إلى المحلة السلطانية

في الرابع والعشرين من نونبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (24 نونبر 1682/24 القعدة 1093)، بارح السفير رباط الفتح قاصداً المحلة السلطانية بجنوب المغرب، حيث يوجد السلطان في حركته الحربية السوسية، فاخترق قبائل الشاوية ودكّالة، وتوغّل في الجنوب.

وفي أثناء رحلته هذه، كان العمّال يتبارون في استقباله وتموينه وإقامة الضيافات على شرفه، إلى أن أشرف على المحلة السلطانية، وهي نازلة بسفح جبل دَرَن بقبيلة دَمْسيرَة، على بعد يومين من تارودانت، أثناء حربه مع ابن أخيه مولاي أحمد بن محرز، وذلك في اليوم العاشر من شهر دجنبر؛ ووافق ذلك يوم عيد الأضحى، فتلقّاه هنالك القائد علي بن عبد الله، والقائد أحمد بن حدّو - وكانا سبقاه إلى المحلة السلطانية - لحضور حفلات العيد مع السلطان، والمشاركة في المذاكرة التي ستجري معه في شأن الأسرى، وأنزله السلطان في أخبية خصّصها له بالمحل المعروف بتاگْموسَتْ، على وادي تَاسكّمَتْ الذي تبتدئ منه الطريق الرابطة بين مراكش وتارودانت، وأغدق عليه المؤن وأحسن ضيافته.

استقبال المولى إسماعيل للسفير سانت آمان (Saint-Amans)

كان استقبال السلطان المولى إسماعيل للسفير سانت آمان (Saint-Amans) صبيحة اليوم الحادي عشر من دجنبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (21 دجنبر 1682/11 حجة 1093) في سرادقه الخاص بمحضر القائد علي بن عبد الله، وأحمد بن حدّو. وكان يُحيط به حاشيته وأعيان دولته، وقرابته من الأشراف، وبعض أولاده، وكبراء جيشه، وحرسه من العبيد، والجمّ الغفير من القواد الذين جاؤوا لحضور العيد معه.

وبمجرّد ما مثل بين يديه، افتتح الكلام معه بهذه العبارة :"طيّبون، طيّبون" يعني هل أنتم سعداء بخير، وسأله عن سفره، وهل كان مسروراً منه، وهل العمّال الذين مرّ بهم قاموا بواجبهم نحوه ؟

فأخبره بأنهم بالغوا في الاعتناء به ولا يُنسب إليهم تقصير.

ثم راجت بينهما مذاكرة خاصّة، تناولت عدة مسائل، سياسية ودينية، والثّناء على ملك فرنسا، لكونه قابضاً على أزمة ملكه بيده، لا بيد غيره كالملوك المقيّدين بمجالسهم النيابية أو الذين تحكمهم امرأة.

ثم قدّم له السفير كتاب اعتماده من ملكه، فأمر بقراءته في الحين، وتولّى ترجمته له ترجمانان : أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي، وهما من المسيحيين الذين أسلموا، والتحقوا بالديوان الملكي الإسماعيلي، ثم قدّم له الهدية المعتادة التي جاء بها معه من فرنسا.

وحينئذ أخبره بمهمته التي جاء من أجلها، وهي المصادقة على المعاهدة المبرمة في سان جرمان (Saint Germain)، فأجابه السلطان بأن كلام العرب لا يتغيّر، وأنه عيّن القائد علي بن عبد الله للمخابرة معه في هذه المسألة، وفي ما يرجع للأسرى، وانتهت الجلسة.

ثم استدعاه ورفقاءه للحضور في لعب المبارزة على الخيول، وقدّم لهم التمر، وجدّد الترحيب بهم.

المذاكرة في المعاهدة الصلحية ومسائل الأسرى

لمّا انفصل السفير عن مجلس السلطان بعد استقباله، اجتمعت اللجنة التي عُيّنت من قبله للنّظر في صكّ المعاهدة الصلحية، بقصد المصادقة عليها، وتتركّب من :

1 - القائد علي بن عبد الله.

ومنزلته ومكانته من السلطان معلومة. وهو الذي قابل هذا السفير بتطوان؛ وقد تقدّمت بعض أخباره، وستأتي مفرّقة في ما سيلي.

وأما التجذيف في السفن، المتواصل بدون انقطاع، فهو العذاب الواصب الذي نعذّب به في الليل والنهار.

نحن نعلم على يقين أن جلالتكم، لأجل الاهتمام بنا، وجّهت سفيراً من قبلها إلى ملكهم، ولكن هؤلاء الكلاب بمجرد ما علموا بوصوله، أركبونا جميعاً في السفن، وأخرجونا إلى البحر، ماعدا العجزة والضّعاف الذين لا قدرة لهم على التجذيف، وهؤلاء سجنوهم في دار بعيدة، ولا خبر عندنا عنهم، وصاروا يتلاعبون به ويُخادعونه بالكلام، حتى سافر ورجع إلى جلالتكم.

ومن أجل هذا تمزّقت قلوبنا، ولم يبق لنا صبر لولا الأمل في الله وفي جلالتكم.

ونحن رعيتك، وأنت سيدنا، فلا تتركنا فريسة لهؤلاء الكلاب الكفرة، ومع ذلك فها نحن صابرون امتثالاً لأمر الله تعالى.

وقد كنّا خاطبنا في فدائنا الجزائريين والتونسيين والأتراك، ولكنهم لم يطالبوا إلاّ بفداء أسراهم لا غير، والآن ليس لنا التجاء إلاّ إليك، ولا استعانة إلاّ بك، وهذا آخر أمل لنا، وإذا لم تمدّ لنا جلالتكم يدها القوية، فإننا نُضيّع كلّ أمل في الخلاص أبداً ممّا نحن فيه من الضّيق والضّنك والتعاسة.

ولا يخفى على جلالتكم ما ادّخره الله من الأجر والثواب لمن خفّف عن أخيه المسلم كربة، أو فرّج عنه همّا؛ وهذه هي الأعمال التي يرضاها الله والرسول، وقد ورد : «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وإذا أردنا أن نشرح لكم ما يعاملوننا به هؤلاء الكلاب، فإنّنا نملأ بذلك عدة كتب، وقد اقتصرنا هنا على لمحة قصيرة مختصرة.

ولا شكّ عندنا أنكم تعلمون حالة الرقّ والعبودية التي نحن فيها.

وحرر في خامس عشر ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وألف للهجرة (15 ربيع الثاني 23/1093 أبريل 1682).

حرّر هذا الكتاب لكم كافة الأسرى على العموم، وعلى الخصوص رعاياكم الضّعاف المغرقون في محبّتكم بإمضاء :

عبد النبي سليمان

بالسفن الفرنسية بمرسيليا.

ومن جملة المكاتب المحجوزة كتاب آخر صدر من السيد محمد بن حيدر مخاطباً به السيد علي مرشك[76].

وقد عرّف دو كاسطري (De Castries) بمحمد بن حيدر هذا، بأنه ابن أخي الحاج علي معنينو السلاوي، صنو قائد سلا المتقدّم الذكر، ورفيق الحاج محمد تميم في السفارة (؟) [77] وقال :

إن علَياً مرشك المكتوب له كان من سكان رباط الفتح، وأن جملة المكاتب التي حُجزت كانت خمسين كتابا، واقتصر على ترجمة هذا الكتاب والذي قبله، لاتحاد معانيها، وعدم اختلاف مبانيها.

قال الكاتب :

مرسيليا في 02 جمادى الأولى عام 1093

موافق 09 مايه سنة 1682

بعد افتتاح الكتاب، وإهداء التحية المقرونة بالسلام إلى قرابته وعشيرته وأحبابه، بسط حالة الأسرى المزرية في السلاسل والعبودية.

فقال : بينما أهله وقرابته يعيشون في سلا عيشة رخاء وابتهاج واطمئنان، يعيش هو في الأسر عيشة الألم والتعذيب والأنين، تحت أثقال الحديد والضرب المستمر والخدمة الشاقّة الدائمة في السفن، وزاد المترجم – ليهيّج بذلك عاطفتهم وشفقتهم عليه – أموراً أخرى.

ثم بيّن بعض المكر الذي يمكرون بهم، ومن جملته أنه لمّا مرّ الحاج علي معنينو مع السفير الحاج محمد تميم بمرسيليا، عمد أولئك الكفرة إليهم، وأبعدوهم عن المدينة، وفرّقوهم في السفن التي أبحرت في الحين، ولم يعلموا ما كان يراد بهم حتى كانوا في السواحل الموريطانية.

وذكر أنه كتب لأهله ما يزيد على عشرين كتابا، ولم يجد من يوصلها إليهم، لأنه ممنوع على كل أسير كيفما كان أن يُقبل منه كتاب أو يصدر عنه كتاب.

---

76) علي مرشك كان من قراصنة الرباط، وأُسر هو أيضاً سنة 1704/1116، وأطلق سراحه سنة 1121-1709، وسياتي ذكره في قائمة الأسرى في العهد الإسماعيلي.

77) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الأول، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 693.

هذا، ونحن نعلم ما أُمر به السفير فيما يرجع لهذا الفصل المتعلّق بفداء الأسرى...

وأخيراً أُجيبَ السفير بأن هذه المسألة هي المهمّة وكل ما بعدها تُمكن المساعدة عليه، إذا تمّ الاتفاق عليها. ولم تقع المصادقة على المعاهدة، وكانت النتيجة صفراً كبيرا، وانتهى الكلام.

استقبال المولى إسماعيل للسفير سانت آمان (Saint-Amans) مقابلة الوداع.

في الثالث عشر من دجنبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (13 دجنبر 1682/19 حجة 1093)، استقبل المولى إسماعيل السفير استقبال الوداع.

وبعد المذاكرة معه في إقرار الصلح بين الطرفين، واحترام الأساطيل المغربية للأساطيل الفرنسية، والأساطيل الفرنسية للمغربية، ذكر له أنه قرر تقديم هدية للملك لويس الرابع عشر، عشرين أسيراً فرنسيا، إذ هي أحسن ما يُقدّم، وقال له : لو قدّمتم لنا هدية بعض الأسرى الذين عندكم من رعيتنا، لكان ذلك أوقع في نفوسنا وأولى وأحسن من جميع متاع الدّنيا، زيادة على ما فيه من ثواب الآخرة[71].

ثم أعطى لأحد رُفقائه، زيادة على هذا شاباً إنجليزياً أسيراً هدية منه إليه، وسأله لماذا لم يصحب معه الأسير عبد الحق معنينو، فأجابه بأنه سياتي مع أول سفينة تقدم إلى المغرب، ولعله يكون وصل إلى تطوان.

ونحن نعلم أنَّه إنما أخّره لأنه وجد عنده مكاتب من الأسرى المغاربة لأقاربهم بالمغرب وللسلطان يبسطون فيها حالتهم السيئة.

ثم ذكر له السفير أن ملكه يرغب في شراء بعض الخيول المسومة المغربية المشهورة، ولذلك وجّه من طرفه من سيتولى مباشرة شرائها، وطلب منه الإذن في ذلك، فأجابه المولى إسماعيل بقوله : لَوْلا أن البحر يفصل بين مملكته ومملكة لويس الرابع عشر لوجّه له العدد الكثير منها، ثم طُوي بساط الكلام فيها، وانتهت المقابلة.

---

71) نفس المصدر، ونفس المجلد، ص 335.

أما مسألة البعثة التي جاءت لشراء الكتب المخطوطة العربية النادرة، فإنها اشترت ثلاثين مجلّدا، وصل منها لباريس ستة وعشرون مجلدا، وأربع مجلدات اطلع عليها قاضي رباط الفتح، فحجزها لأنها تتعلق بالشريعة الإسلامية وقال : الشرع والقانون يمنعان بيعها لغير المسلمين[72].

مبارحة السفير سانت أمان (Saint-Amans) المحلة السلطانية راجعا إلى بلاده.

كانت مبارحة السفير سانت أمان ومن معه المحلة الإسماعيلية صباح يوم الرابع عشر من دجنبر (14 ذي الحجة) من السنة المذكورة، وأصحبه السلطان اثنين من حرسه الخاص يحرسانه حتى يصل إلى مأمنه، وانتهجا به الطريق المؤدية من سوس إلى ناحية مراكش، ومنها إلى تادلا، ومن تادلا حوّل الحارسان وجهه شطر شمال المغرب إلى تطوان، وتجنّب المرور به على أي مدينة من المدن الكبرى كمراكش وفاس ومكناس، حتى لا يطّلع عليها، ولا على أهميتها، ولا على من فيها من الأسرى الفرنسيين، ولا يجتمع بهم، كما فعلت دولته مع سفير المغرب لمّا كان بفرنسا؛ فقوبل المثْل بالمثل.

وكان وصوله إلى تطوان في ثاني عشر يناير سنة ثلاث وثمانين وستمائة وألف (12 يناير 18/1683 صفر 1094)، وأقام بها شهراً كاملاً في انتظار وصول الجواب السلطاني إليه.

وأبحر منها راجعاً إلى بلاده في ثالث عشر فبراير (15 ربيع الأول)، وودّعه القائد علي ابن عبد الله، وسلّم له ساعة الوداع الجواب السلطاني الإسماعيلي إلى لويس الرابع عشر المؤرخ برابع عشر دجنبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (14 دجنبر 14/1682 ذي الحجة 1093)، والعشرين أسيراً الذين منّ السلطان عليهم بإطلاق سراحهم هدية له، كما تقدّم.

ومُضمَّن نصّ الكتاب السلطاني أن السفير الحاج علي معنينو رجع من سفارته لديه ولم يُحصّل على طائل في مسألة الأسرى، وأخبر بمجيء السفير الفرنسي إلى المغرب، فجاء ولم يأت بالأسرى معه، ومع ذلك قوبل مقابلة جميلة.

---

72) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الثاني من السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 411.

وعلى كل حال فإن الصلح سيُراعى من جانب المغرب إلاّ إذا خرقته فرنسا. وأعلمه بأنه وجّه له عشرين أسيراً فرنسياً هدية منه إليه، وجدّد له القول بأنه لا يقبل الفداء في الأسرى إلاّ رأساً برأس.

ويُلاحظ في هذا الجواب أن السلطان ذكر فيه الحاج علي معنينو ولم يذكر الحاج محمد تميم مع أنه هو السفير، وهو الذي عقد المعاهدة، وكان حاضراً في المحلة، وحضر لجنة المذاكرة في الصلح؛ وذلك يدل على أنه بعد رجوعه من سفارته غضّ منه أو انحرف عنه؛ قيل بإغراء من القائد علي بن عبد الله[73].

وكان وصوله إلى طولون (Toulon)، يوم الرابع والعشرين من مارس سنة ثلاث وثمانين وستمائة وألف (24 مارس 25/1683 ربيع الثاني 1094).

ومن طولون (Toulon) توجّه إلى باريس، واستقبله ملكه في الرابع والعشرين من أبريل (26 جمادى الأولى)، وقدّم له الجواب الإسماعيلي والهدية التي جاء بها، وقصّ عليه أخباره، ورفع له بعد ذلك مذكّراته وتقاريره، وبذلك انتهى سفر سفارته، وخُتمت أعمال ماموريته.

قصة الأسير عبد الحق معنينو[74]

كان للحاج علي معنينو السلاوي، - رفيق الحاج محمد تميم في السفارة - ولد أخت له إسمه عبد الحق، كما صرّح به في كتابه إلى الوزير سينيولي (Seignelay) بتاريخ تاسع جمادى الأولى عام ثلاثة وتسعين وألف (09 جمادى الأولى 16/1093 يونيه 1682)، أسره البرتقال في بعض الغارات البحرية، وطال أسره، فاغتنم خاله فرصة وجوده في السفارة الباريسية، وتكلّم مع لويز الرابع عشر في السعي في فكاكه، فأمر سفيره بالبرتقال بالتوسط في إطلاق سراحه، فنجح مسعاه، وتسلّمه من الحكومة البرتقالية، وأشخصه إلى طولون (Toulon)، ومرّ بمرسيليا (Marseille) فأقام بها يومين، واجتمع بالأسرى الذين بها، وحمّلوه رسائل إلى بلادهم.

ولمّا كان السفير الفرنسي سانت آمان (Saint-Amans) متوجّهاً إلى المغرب، صدر له الأمر من حكومته باستصحابه معه ليُقدّمه كهدية لخاله.

73) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الثاني من السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 411.

74) «ملخص من نفس المصدر، المجلد الأول، من ص 691 إلى ص 694.

ولكنه بمجرّد طلوعه إلى السفينة، قبل إقلاعها ونشر قلوعها، اطّلع على أنه يحمل معه مكاتب سرية كثيرة من الأسرى المغاربة إلى السلطان المولى إسماعيل وبعض الأفراد من سكان العدوتين السلاوية والرباطية، فحجزها في الحين، وردّه إلى البرّ، ولم يصحبه معه، حسبما سياتي بيانه وتفصيله.

وكان من جملة تلك المكاتب التي كتبها أولائك الأسرى الكتاب الذي أمضى عليه جمهورهم مخاطبين به سلطانهم المولى إسماعيل، واصفين له حالتهم السيئة، ومحنتهم الدائمة، راجين منه إصدار أوامره الشريفة بالتعجيل بإطلاق سراحهم، جاء فيه :

مرسيليا في 15 ربيع الثاني عام 1093

موافق 23 أبريل سنة 1682

كتاب عام من كافة الأسرى المستعبدين بسفن ملك فرنسا إلى سلطانهم المولى إسماعيل

سيدنا صاحب الجلالة، نصركم الله على جميع أعدائكم.

نعلمكم بأننا ندعو الله تعالى ليلاً ونهاراً أن يديم عافيتكم، وينصر جيوشكم، ونؤكدّ لكم أن محبّتنا في سلطاننا منقوشة في أعماق قلوبنا.

جلالة مولانا.

نستأذنكم في حرية التعبير عمّا نلاقيه من الشّقاء والمحنة والحزن والألم من معاملة هؤلاء الكلاب الفرنسيين.

لا، يا مولانا، لا يوجد عذاب في الجحيم أكبر ولا أكثر مما يُعذّبوننا به هؤلاء الكلاب بلا شفقة ولا رحمة. وهذا العذاب عبارة عن الجوع والعرى والسّب المقذع فينا وفي ديننا المقدّس، ونبيّنا المعظّم، والازدراء بسلطاننا، واحتقار شعبنا، زيادة على الضرب المستمر، والسلاسل والأغلال التي تزن مائة لِيبْرَة[75] نسحبها معنا في جميع حركاتنا.

75) الليبرة توازي نحو نصف كيلو.

وأما التجذيف في السفن، المتواصل بدون انقطاع، فهو العذاب الواصب الذي نعذّب به في الليل والنهار.

نحن نعلم على يقين أن جلالتكم، لأجل الاهتمام بنا، وجّهت سفيراً من قبلها إلى ملكهم، ولكن هؤلاء الكلاب بمجرد ما علموا بوصوله، أركبونا جميعاً في السفن، وأخرجونا إلى البحر، ماعدا العجزة والضّعاف الذين لا قدرة لهم على التجذيف، وهؤلاء سجنوهم في دار بعيدة، ولا خبر عندنا عنهم، وصاروا يتلاعبون به ويُخادعونه بالكلام، حتى سافر ورجع إلى جلالتكم.

ومن أجل هذا تمزّقت قلوبنا، ولم يبق لنا صبر لولا الأمل في الله وفي جلالتكم.

ونحن رعيتك، وأنت سيدنا، فلا تتركنا فريسة لهؤلاء الكلاب الكفرة، ومع ذلك فها نحن صابرون امتثالاً لأمر الله تعالى.

وقد كنّا خاطبنا في فدائنا الجزائريين والتونسيين والأتراك، ولكنهم لم يطالبوا إلاّ بفداء أسراهم لا غير، والآن ليس لنا التجاء إلاّ إليك، ولا استعانة إلاّ بك، وهذا آخر أمل لنا، وإذا لم تمدّ لنا جلالتكم يدها القوية، فإننا نُضيّع كلّ أمل في الخلاص أبداً ممّا نحن فيه من الضّيق والضّنك والتعاسة.

ولا يخفى على جلالتكم ما ادّخره الله من الأجر والثواب لمن خفّف عن أخيه المسلم كربة، أو فرّج عنه همّا؛ وهذه هي الأعمال التي يرضاها الله والرسول، وقد ورد : «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وإذا أردنا أن نشرح لكم ما يعاملوننا به هؤلاء الكلاب، فإنّنا نملأ بذلك عدة كتب، وقد اقتصرنا هنا على لمحة قصيرة مختصرة.

ولا شكّ عندنا أنكم تعلمون حالة الرقّ والعبودية التي نحن فيها.

وحرر في خامس عشر ربيع الثاني عام ثلاثة وتسعين وألف للهجرة (15 ربيع الثاني 23/1093 أبريل 1682).

حرّر هذا الكتاب لكم كافة الأسرى على العموم، وعلى الخصوص رعاياكم الضّعاف المغرقون في محبّتكم بإمضاء :

عبد النبي سليمان

بالسفن الفرنسية بمرسيليا.

ومن جملة المكاتب المحجوزة كتاب آخر صدر من السيد محمد بن حيدر مخاطباً به السيد علي مرشك[76].

وقد عرّف دو كاسطري (De Castries) بمحمد بن حيدر هذا، بأنه ابن أخي الحاج علي معنينو السلاوي، صنو قائد سلا المتقدّم الذكر، ورفيق الحاج محمد تميم في السفارة (؟) [77] وقال :

إن علَياً مرشك المكتوب له كان من سكان رباط الفتح، وأن جملة المكاتب التي حُجزت كانت خمسين كتابا، واقتصر على ترجمة هذا الكتاب والذي قبله، لاتحاد معانيها، وعدم اختلاف مبانيها.

قال الكاتب :

مرسيليا في 02 جمادى الأولى عام 1093

موافق 09 مايه سنة 1682

بعد افتتاح الكتاب، وإهداء التحية المقرونة بالسلام إلى قرابته وعشيرته وأحبابه، بسط حالة الأسرى المزرية في السلاسل والعبودية.

فقال : بينما أهله وقرابته يعيشون في سلا عيشة رخاء وابتهاج واطمئنان، يعيش هو في الأسر عيشة الألم والتعذيب والأنين، تحت أثقال الحديد والضرب المستمر والخدمة الشاقّة الدائمة في السفن، وزاد المترجم – ليهيّج بذلك عاطفتهم وشفقتهم عليه – أموراً أخرى.

ثم بيّن بعض المكر الذي يمكرون بهم، ومن جملته أنه لمّا مرّ الحاج علي معنينو مع السفير الحاج محمد تميم بمرسيليا، عمد أولئك الكفرة إليهم، وأبعدوهم عن المدينة، وفرّقوهم في السفن التي أبحرت في الحين، ولم يعلموا ما كان يراد بهم حتى كانوا في السواحل الموريطانية.

وذكر أنه كتب لأهله ما يزيد على عشرين كتابا، ولم يجد من يوصلها إليهم، لأنه ممنوع على كل أسير كيفما كان أن يُقبل منه كتاب أو يصدر عنه كتاب.

---

76) علي مرشك كان من قراصنة الرباط، وأُسر هو أيضاً سنة 1704/1116، وأطلق سراحه سنة 1121-1709، وسياتي ذكره في قائمة الأسرى في العهد الإسماعيلي.

77) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الأول، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 693.

وأخبر أنه مات من الأسرى الذين أُسروا معه ثلاثة وهم : يحيى الحساني، وسالم، والسيد الحسين الشريف الذي أصله من تازّارت.

واعلم بأن السيدين : السيد أحمد الذي أصله من طرابلس، والسيد أحمد الدمشقي يقبلان يدهم.

وذكر أنّ الفرنسيين عاملوا السفير الحاج محمد تميم التطواني ظاهراً بحفاوة وتشريف، كما يُعاملون أمراءهم ووزراءهم ولكنهم سخروا منه، حيث لاطفوه وجاملوه من ناحية، ونزعوا عنه قميصه من ناحية أخرى !!! لأنهم منعوه من رؤية أي واحد من الأسرى، ووجّهوهم إلى البحر، وسجنوا العجزة والضِّعاف في محلّ بعيد عن المدينة.

ثم قال : الحذر الحذر من هؤلاء الكلاب، فإنهم لا إيمان لهم ولا عهد ولا ميثاق، لاسيما وقد غدروا الجزائريين، وتحيّلوا عليهم حتى حازوا منهم أسراهم الفرنسيين؛ ومنذ عامين وهم ينتظرون حيازة بدلهم من الأسرى الجزائريين، ولا شيء. ولهذا أظهروا شهامة وشهروا الحرب عليهم(78).

وكذلك التونسيون، منذ ستة أشهر وسفيرهم هنا بمرسيليا ينتظر حيازة أسرى بلاده، ولم يُحصّل على طائل.(79)

ثم قال الكاتب : شاع هنا أن جلالة ملكنا -نصر الله جيوشه على أعدائه- سيُهاجم الجزائر برّاً، وتُهاجمها فرنسا بحرا. ولكن لم نصدّق بهذا، لأننا نعلم أن جلالته لا يقدم على هذا الأمر لتقواه ومحبّته في الله ورسوله ؛ ومثله لا يتّحد مع الكفّار، لأنه من ذرية رسول الله ﷺ، ولأن هذا فيه تحطيم للديانة المحمدية، وهو شؤم عظيم على دولتنا.

وباقي الرسالة يتضمّن السلام على فلان وفلان من الأحباب والقرابة.

وبهامشها حاشية جاء فيها :

---

78) حقيقة إن ترك الجزائر أعلنوا الحرب على فرنسا في 18 أكتوبر سنة 05/1681 شوال عام 1092 لأنها رفضت أن تسلّم لهم أسراهم، واستعملتهم بدون حق في أوراش سفن مرسيليا القرصانية.

79) كان وصول السفير التونسي المسمى بابا رمضان إلى مرسيليا في 23 دجنبر سنة 11/1681 حجة عام 1092 في شأن الأسرى، فبقي فيها منتظراً إلى 04 مايه من سنة 24/1683 ربيع الثاني عام 1094 بدون فائدة.

نرجو منكم بكل إلحاح أن تعملوا كل ما في وسعكم من السعي في خلاص السيد أحمد الدمشقي، لأنه عمل معنا من الخير والإحسان ما لا يعمله إلاّ الأخ الصادق مع إخوته.

وأرجوكم إن سطّرتم قائمة الأسرى المغاربة أن تدرجوا اسمه معهم، وهذا إنما هو إحسان وخير تسدونه إليه وإن كان أجنبيا. وقد كان أُسر صغيراً قبل سن البلوغ، وطال أسره، وهو غني، ويُمكنه أن يدفع ولو مائة إيكوس (Ecus).

ونستوصيكم خيراً بكل تأكيد بأحمد بن عبد الرحمان ناصف الدمشقي السوري الذي كنت كتبت لكم قبل هذا في شأنه.

وقد كنّا ثلاثة اتفقنا على إنقاذه وإدراجه في سلّم يتدرّج منه في طريقه إلى وطنه.

وكذلك حضر معنا الآن السيد أحمد أبو وازي والحاج علي قلفاط، وهما يطلبان منكم أيضا إعانتهما، والسعي في خلاصهما، ولا يتوقّفان إلاّ على حسن وساطتكم الكلامية، لأنهما من الأغنياء ويُمكنهما حالاً أداء الفداء.

وفي الختام أُسلّم على عمّي الحاج علي معنينو.

ولا أنسى هنا أن أطلب منكم إدراج اسم الحاج علي، والحاج محمد في قائمة الأسرى المغاربة ولابدّ، وهما معاً من القاهرة.

ثم إن السفير سانت آمان "Saint-Amans" كتب رسالة إلى وزيره سينيولاي "Seignelay" من مرسى الجزائر، لما عرّج عليها في طريقه إلى المغرب بتاريخ ثامن وعشري يوليوز سنة اثنتين وثمانين وستمائة (28 يوليوز 26/1682 رجب 1093) [80] أخبره فيها بما اكتشفه مع عبد الحق من المكاتب السرية التي كتبها الأسرى المغاربة بمارسيليا لسلطانهم وذويهم، واصفين فيها حالتهم السيّئة وعذابهم الأليم، وأنه اقتضى نظره أن لا يصحبه معه إلى المغرب، وأنزله من السفينة التي كان بها إلى البر بمرسى طولون (Toulon)، لأن تلك المكاتب إن وصلت إلى المغرب، ستكون سبباً في تهييج الرأي العام ضدّه، ويترتّب على ذلك خيبة مسعاه وفشله الذّريع في المهمة التي أُسندت إليه، وربّما تجرّ هذه الخيبة ذيلها حتى على الجزائر وتونس، لمَا تضمّنته تلك المكاتب من أخبار المخابرة الرّائجة معهما فيما يرجع لأسراهم، وتكون لها عواقب سيئة، ولأجل هذا، ظهر له أن هذا الشاب لم يعترف بالجميل

---

80) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، ص 244، من المجلد الثاني، السلسلة الثانية، من وثائق الدولة العلوية.

الذي أسداه إليه ملك فرنسا الذي أخرجه من السجن، وجاء به من الأسر من بعد ما كان يُقاسي ألم الغربة وشديد المحن والبعد عن الأهل والوطن.

وزاد قائلا إنه لا يكفي حجز المكاتب فقط، بل يتعيّن أن لا يصاحبه ولا يرافقه في سفينته، ولا يدخل المغرب حتى يخرج هو منه، لأنه إن دخله معه، فإنه سيذيع ويعلن في كل محفل وناد ما تضمّنته تلك المكاتب المحجوزة، وربّما يزيد فيها شروحاً وتفصيلات وتعليقات، ينبغي أن يُحسب لها حسابها.

وعليه، فقد أمر بإيقافه مثقّفاً في إحدى السفن الراسية بمرسى طولون (Toulon) حتى تنتهي مدّة سفارته، وحينئذ يرجع إلى المغرب في السفينة التي سيرجع فيها هو إلى فرنسا من تطوان، وبعد وصوله إلى تطوان، فسيبقى في السفينة التي جاء فيها حتى يفارق السفير البر، وحينئذ يأذن له الرئيس في النزول.

وإذا وصل إلى المغرب، وسُئل عنه، فسينتحل أعذاراً وأسباباً تُبرِّر تأخيره وعدم مرافقته له.

ولمّا وصل إلى المغرب هذا السفير، وسُئل عن هذا الأسير، من طرف الناس الذين اتّصلوا به، ومن خاله، أجاب بأنه ركب معه سفينته، ولمّا وصل إلى الجزائر، طلب منه استبدالها بسفينة أخرى، فساعده على ذلك، ولكنّه لمّا ركب فيها، رجعت إلى فرنسا، وربما يكون في الطريق إلى تطوان.

وذكر الحاج علي معنينو أن الحاج محمد تميم قال له، لمّا تخلّف ابن أخته عن المجيء، وحصلت الريبة في تأخره، ينبغي لك أن تطلب من جلالة السلطان تثقيف هذا السفير هنا، حتى يرجع عبد الحق، فلم يفعل ذلك ثقة بوعد ملك فرنسا(81)

كما أن المولى إسماعيل، لمّا استقبل السفير، سأله لماذا تخلّف عبد الحق عن المجيئ معه، فأجابه بأنه اضطرّ إلى التخلف، وربّما يكون وصل إلى تطوان.

ثم إن الحاج علي معنينو، لمّا رأى السفير أخلف وعده، واختلفت أجوبته في سبب التخلف، كتب رسالة خاصّة إلى لويس الرابع عشر بتاريخ خامس عشر صفر عام أربعة وتسعين وألف (15 صفر 13/1094 فبراير 1683) أخبره فيها بأنّ سفيره وصل إلى المغرب، وأنه قابله واعتنى به، ورافقه إلى المحلة السلطانية...

81) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، ص 370، من المجلد الثاني، السلسلة الثانية، من وثائق الدولة العلوية.

ثم تخلّص لابن أختـه، وشكره على السـعي في خـلاصـه من الأسـر بالبـرتقال وأنـه كـان ينتظر وصوله إليه بفارغ صبر مع السفير، فتخلّف، واعتذر له بأنه وقعت له قضية أثناء سفره أوجبت تخلّفـه، وأنه عمّـا قريب سيصل، وأنه صـدّقه فيمـا قـال... لأن الأعـمال بخـواتمـهـا ونهايتها.

وطلب منه التعجيل بتوجيهه إليه، تحقيقاً لِمَا وعده به، لأنّ الملوك لا تُخلف وعودها، وتحقق مواعدها، وتحفظ عهودها.

وأخيرًا كان وصول هذا الأسير إلى جبل طارق في شهر مارس سنة ثلاث وثمانين وستمائة وألف (مارس 1683/ ربيع الثاني 1094) صحبة سفينة فرنسية عرّجت عليه، وسلّمه رئيسها إلى القنصل الفرنسي بالمدينة المذكورة، وكلّفه بإيصاله إلى تطوان بنفسه.

وبذلك انتهت قصّة الأسير عبد الحق معنينو، بعدما وقع فيها من التّلاعب ما وقع، ورجع إلى أهله ووطنه[82].

82) نفس المصدر ونفس المجلد ونفس الصفحة.

المبحث الثالث

سفارة الحاج محمد تميم الثانية إلى فرنسا

سبب هذه السفارة.

كان السبب في هذه السفارة، هو أن الرئيس القرصاني محمد التاج، من رؤساء البحر في العدوتين، كان يتجوّل في الغالب بسفينته في البحر الأبيض المتوسّط وسواحله، وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة وألف (1095/1683) خرج من مرسى العدوتين ومعه جواز (باسبورط) من السفير الفرنسي سانت آمان (Saint-Amans) متوجّهاً إلى الجزائر بقصد شراء سفينة وتسليحها، فصادف في طريقه سفينة إنجليزية مشحونة بالرخام وغيره من سلع أخرى، فأخذها واستولى على ما فيها وأسر بحّاراتها، – وعددهم ستة وعشرون بحّارا – وقادها إلى الجزائر. فتعرّض له في الطريق أحد رؤساء البحر الفرنسيين، فأسرها وأخذ السلع التي كانت فيها، ووجّه ركّابها إلى فرنسا لاستعمالهم في أوراشها البحرية، كغيرهم من الأسرى المغاربة الأخرين[83].

ولمّا بلغت هذه الحادثة لعلم المولى إسماعيل، اغتاظ غيظاً شديدا، وغضب غضبته الإسماعيلية العلوية، ووجّه رسالة احتجاج إلى لويس الرابع عشر شديدة اللهجة قال فيها : [84]

نص رسالة المولى إسماعيل للويس الرابع عشر

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظم

من عبد الله تعالى، الإمام المظفر بالله، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني، أيده الله ونصره. آمين

83) «قراصنة سلا»، لمؤلفه كواندرو، ص 79. "Les Corsaires de Salé" par Roger Coindreau

84) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 434 من ج 2.

(الطابع الشريف)

إلى عظيم الروم بفرنصيص الويس الرابع عشر من هذا الإسم.

السلام على من اتبع الهدى، وباعد طريق الغي والرّدى.

أمّا بعد، فاعلم أن الذي ظهر لنا أنّك ليس عندك قول صحيح، ولا كلام رجيح، ولا أظنّك إلاّ غلب عليك أهل ديوانك، وصاروا يلعبون بك كما شاؤا، ولا بقي لك معه ضرب ولا لقب، وذليل ذلك أننا لازلنا ما قبضنا منك صحّة قول ولا أبرمت معنا شيئا؛ ففلامنك، الذين لهم رئيس، وما عنده إلا الديوان تكلّموا معنا كلمة وقبضناها عليهم، وثبتوا فيها، ووفّوا بها؛ والإنجليز تكلّموا معنا كلمة وقبضناها عليهم ووفّوا بها، فحين ذهب خديمنا لبلادهم، لمّا أن طلبوا منّا ذلك فرحوا به وأكرموه وبرّوا به، وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة، وستة عشر مائة قنطار من البارود، ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا، ووفّوا بكلامهم، وأنت ما زال لم يصح منك قول ولا وفاء.

و أولائك الذين كان قدموا إليك من هذه البلاد ليس هم من خدّامنا ولا من أصحابنا ولا ممن له معرفة معنا.

فالحاج علي معنينو، حيث أسر له ولده، لاذ بالبعض من خدّامنا، واستحرم به، وقبل إليكم على شان أولئك المسلمين، وجاز على دار السباع، ودار النعام، وأتى إليكم بما أتى، ولا شعرنا به، ولا عرفناه كم أخذ، وقلنا إنه إن وصلكم ولابدّ تعملون له غرضه في أولائك المسلمين وتسرحونهم، فإذا به هو تحيّل على ولده إلى أن جاء به، وأنتم ما عملتم صوابا في غيره، ولا صدر منكم ما تراعون لأجله.

ثم بعد ذلك قدم لِعَلِيٍّ مَقامنا صاحبكم أنبشضور، وأتانا بشيء من الخِرَق، وفالطو الحرير، وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره. فنحن معشر العرب لا نعرف إلاّ الصحيح، ولا يسرّنا إلاّ ما فيه مصلحة المسلمين كلّهم، ومع ذلك أعطينا لصاحبك عشرين نصرانياً سيفطناه بها، وظنّنا أنّك ولا بد تراعي الخير وتبعث لنا ولو عشرين مسلمين تجبر بها خاطرنا، وتكون هي الطريق للكلام الذي تريده منا، فإذا بك ما عملت شيئاً من هذا ولا جازيت بإحسان.

وثانيا، قبضنا لك سفينة قبل أن يقع الكلام بيننا وبينك بثلاثة أيام أو أربعة على التحقيق، وهي موسوقة بالسكر والتبغة، وثقّفناها نحواً من ثلاث سنين بقصدك، ولا تركنا أحداً يمدّ يده فيها، وقلنا إنك تراعي خيرنا وتعمل لؤلائك المسلمين طريقاً وتسرحهم، وإن

كان ليس فيهم من هو خديمنا ولا هو محسوب من جيشنا، ولا من هو معرفتنا، فما هم إلاّ ممن لا خلاق له، ولا يركب البحر عندنا إلاّ أهل التمرييل[85]، ولو أطلقتهم - وإن كانوا ليسوا بشيء - فتكون عملت الخير بذلك، ونقول إنّك عملت مسألة تراعى عليها.

وأعظم من ذلك كله، هو أن رئيساً من بلادنا إسمه التاج، كان أعطاه صاحبك الذي أتانا خطّ يده على أنه يشتري سفينة من الجزائر يسافر بها قرصان وما عليه فيمن لقيه من فرنصيص، فلمّا اشتراها وسافر بها وغنم قطارمة مسوقة بالرخام والريال مع ما فيها من الحرير وغيره، وبعثها مع أصحابه ستة وعشرون مسلما، وتعرّضوا لها سفنكم وأخذوها، وثقّفتها أنت أياما، ثم بعد ذلك مزّقتها، والمسلمون الذين كانوا معها خدّمتهم في الغراب، فلماذا لم تردّها وتثقّفها ثلاث سنين كما ثقّفنا نحن سفينتكم، وهل هذه صحة القول، فهذا مما يدل على عدم صحة كلامك، ومما يُثبت الإخلال بقولك، وقلّة وفائك فحتى الآن، فالذي ظهر لنا أنه ما يليق بنا معك إلاّ الشر، وإن أردت تثبيت المهادنة وانبرام الكلام فيها وإمضاء الحجة بها، فابعث لنا من عندك قونص بالتفويض على هذا الأمر، ويجلس هنا في إحدى مراسينا، ويكون كلامنا معه في هذا كله ونبرموا معه هذا الأمر، ويكون من أهل الحل والربط عندكم، وإلاّ فإن ظهر لك خلاف هذا فأعلمنا وعرّفنا بما عليه عملك، وما أضمرته طويتك.

والسلام على من اتبع الهدى.

وفي التاسع من شعبان المبارك سنة خمس وتسعين وألف (9 شعبان 1095/22 يوليوز سنة 1684)

ولما بلغت هذه الرسالة إلى لويس الرابع عشر، لم يُجب عنها، وازدادت الحالة شدة وتوتراً بين فرنسا والمغرب.

وكتب القائد علي بن عبد الله رسالة أخرى إلى لويس الرابع عشر، ذكر له فيها أن السلطان المولى إسماعيل متأثر جدا من عدم جوابه عن رسائله السابقة واللاحقة، سواء قبل وقوع قضية سفينة الرئيس التاج أو بعدها، وأن فرنسا هي المسؤولة وحدها عن عدم احترامها لوسائل السلم التي سعى ويسعى إليها السلطان المولى إسماعيل محاولاً إقرارها معها.

ومن جملة تلك الوسائل أنه أمر بتصفية قضية سفينة كروازي (Croizet) التي كانت محجوزة.

---

85) كذا في الأصل ؟

واقتضى نظره الشريف توجيه سفير من المغرب إلى فرنسا للبحث في قضية سفينة الرئيس التاج وتسويتها وردّها وما أُخذ من السلع التي كانت فيها...

ثم قال : وبعد التأمل، وقع اختياري على توجيه السفير السابق الذي كان عندكم، الحاج محمد تميم الأندلسي، لأنكم تعرفونه ويعرفكم.

وبمقتضى هذا الاختيار، سافر السفير المذكور من تطوان إلى طولون (Toulon).

وكان وصوله إليها في الحادي والعشرين من مارس (14 ربيع الثاني) من السنة المذكورة، وليس معه إلاّ كتاب القائد علي بن عبد الله المذكور[86].

ولم يكد يصل خبر تعيين هذا السفير إلى سانت آمان (Saint-Amans) حتى كتب رسالة لوزيره سينيولي (Seignelay) بتاريخ سابع عشر مارس (10 جمادى الأولى) من السنة، يحذره فيها من استقبال هذا السفير، ومن الثقة بالمغاربة عموما، وخصوصاً فيما يرجع لفداء الأسرى[87].

ولما وصل السفير الحاج محمد تميم إلى طولون (Toulon) طال مقامه بها، ولم تقبله الحكومة الفرنسية كسفير إليها، ولم يقابله لويس الرابع عشر، بدعوى أنه ليس لديه أوراق يعتمد عليها من قبل السلطان المولى إسماعيل.

وسئل عن قضية سفينة كروازي (Croizet) المحجوزة بالمغرب فأجاب بصدور الأمر الشريف بردّها، ثم طولب منه أن يسلم لهم صكّاً مكتوباً بخطه وإمضائه، يعترف فيه بذلك، فامتنع منه، ولم يُرد تحمل مسؤوليته.

كما سُئل عن مسألة فداء الأسرى، فصرّح بأنه ليس له فيها أمر جديد، زيادة على ما تقدّم فيها[88].

ثم إن الأسرى المغاربة الذين بمرسيليا، لمّا بلغهم قدومه لفرنسا، وجّهوا له كتاباً يستفسرونه فيه عن مهمة سفارته، وهل لها تعلّق بهم، ويُنبّهونه على أن الفرنسيين لا

86) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الثاني من السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 474.

87) نفس المصدر ونفس المجلد، ص 479.

88) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الثاني من السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 498.

يقصدون من تطويل إقامته بطولون إلاّ ربح المدة التي يُجهّزون فيها سفنهم القرصانية بقصد إخراجها إلى البحر للغارة على السواحل المغربية؛ ولكن هذا الكتاب لم يصل إليه ولم يطّلع عليه، لأنه حُرّر يوم مبارحته لطولون.

ثم إن لويس الرابع عشر، كتب رسالة للمولى إسماعيل بتاريخ سادس مايه سنة خمس وثمانين ستمائة وألف (06 مايه 02/1685 جمادى الثانية 1096)[89] جواباً عن رسائله المتقدّمة، يُخبره فيها بأنه مستعدّ لردّ سفينة الرئيس التاج إذا رُدّت إليه سفينة كروازي (Croizet)، وأن عدم مراعاة الفصل المتعلق بفداء الأسرى من معاهدة سان جرمان (Saint-Germains) هو الذي أحدث هذا الخلاف، وإذا لم يقع اتفاق في هذه المسألة بين الطرفين، فإنه يأمر أسطوله القرصاني بعدم احترام الأساطيل المغربية القرصانية.

وفي العشرين من مايه سنة خمس وثمانين وستمائة وألف (20 مايه 15/1685 جمادى الآخرة 1096) بارح السفير الحاج محمد تميم مرسى طولون راجعاً إلى بلاده، ولم يُحصّل على طائل.

وبمجرد وصوله إلى تطوان، شدّ الرحلة إلى مكناس، وقصّ خبر سفارته وما آل إليه أمره فيها جملة وتفصيلاً على السلطان المولى إسماعيل.

وبعد ذلك كتب القائد علي بن عبد الله كتاباً إلى لويس الرابع عشر يعلمه بما وقع للسفير المذكور من الإهمال وعدم الاعتناء، وأن ذلك زاد الحالة شدة وارتباكا، وأنه تذاكر في ذلك مع القنصل إسطيل (Estelle)، وأشار عليه أن يوجّه سفيراً من قبله ليباشر الأمور على الوجه المرضي فيما يرجع للشؤون البحرية كلها، ونصّه :[90]

الحمد لله تعالى وحده

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى عظيم المملكة الرومية، والقائم بأمور الملة المسيحية، ملك أقطار بلاد جنس النصارى الفرنصيص، من تسمى باسم لويز الرابع عشر.

---

89) نفس المصدر ونفس المجلد، ص 496.

90) نفس المصدر، المجلد الثالث، ص 35.

السلام على من اتبع الهدى، وسلك طريق الرشد وما اعتدى، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فكتبناه عن الخير والعافية، والشكر لله سبحانه عن توالي نعمه الضافية، إعلاماً منا لمقامكم، وأننا كنا وجّهنا خديم مولانا نصره الله الحاج محمد تميم بقصد الوصول إلى دار مملكتكم، والحضور عندكم، وعهدنا إليه أن يقصّ عليكم أموراً أكيدة كان ضيفنا أمير المومنين أيده الله أوصانا أن نعرّفكم بها، ونبعث من يُخبركم بها مشافهة، فوصل إلى بلادكم مدينة طولون، ثم رجع منها، ومُنع من الوصول لحضرتكم، ومخاطبتكم بما أُمر به، ولم يكن له إذن إلاّ في الكلام معكم، ولتبقى حال المهادنة متصلة واثقة، وأسبابها بتجديد العهد متناسقة. فلمّا وقع قضاء الله سبحانه برجوع الحاج محمد تميم المذكور، وطال العهد، ولم يأتنا بجواب يُعتمد عليه، ويُلتفت إليه، مع طول المدة وتوالي الأيام، فناولنا الكلام مع خديمكم القونص صطيلة المقيم عندنا ها هنا، وتفاوضنا معه في أمور هي بحول الله لائقة بالجانبين، ورأينا من أعظم أسباب الخير أن يقدم علينا رجلاً[91] من خدامكم على العادة، وله التفويض العام منكم للحل والعقد والربط، فنتلقاه بالبرور والإكرام، ونقف معه على ساق الجد والاهتمام، حتى نوصله للحضرة العلية من بساط مولانا المنصور بالله، ويستوفي كل من الجانبين جميع الأغراض المهمة على ما يُرضي بحول الله، ومن كان له حق ودعوى وحجة يبيّنه، ويقع الإنصاف والتفاصل في جميع الأمور، وتصفْى من الكدر وجوه المطالبات والمعاكسات، فإنّ شؤون البحر والمراكب لا تتخطّى أن يقع فيها مغالطات ومخالفات، فيجب النظر فيها، والرجوع للحق في تلافيها، فإن لم يتعاهدها من له بصيرة بصلاح الأمور، فيؤدي طول مكثها إلى الجفا والمحذور، والله سبحانه نسأله الهداية والتوفيق والانقياد إلى سواء الرشد والطّريق بمنه وكرمه.

وبتاريخ أواخر جمادى الأولى عام ثمانية وتسعين وألف (أواخر جمادى الأولى 1098/ 13-04 أبريل 1687).

خديم مولانا نصره الله، علي بن عبد الله وفّقه الله ورعاه

وبعده الطابع بداخله : خديم المقام العالي بالله علي الحمامي رعاه الله.

وبعد توجيه هذا الكتاب، استمرّت الحالة علي ما هي عليه في أخذ وردّ وبسط وقبض، وحدثت حوادث أخرى تتعلق بالشؤون البحرية وفداء الأسرى، وكلّ من الطرفين يراوغ الآخر حسبما سياتي بيانه وتفصيله، واستيعاب المهم منه وتحصيله، إلى أن أوجبت الظروف سفارة عبد الله ابن عائشة، وسنرى مئالها وما أسفرت عنه بحول الله.

---

91) كذا بالأصل.

المبحث الرابع

عدم تطبيق المعاهدة التميمية وما نشأ عنها[92]

بعد هذه الحوادث وتبادل السفراء، تابع القناصل المذاكرات مع رجال الدولة بدون طائل، لأن المولى إسماعيل قرر أن لا يقبل فداء أي أسير مسيحي إلاّ بأسير مسلم، وقدر من المال زيادة عليه، أو بالآلات الحربية، وما تُجهّز به السفن الحربية.

والحاصل أنه لمّا تعذّر تطبيق المعاهدة التميمية، المحررة منذ اثنتين وثمانين وستمائة وألف (1093/1682)، ولم تحترم أصولها ولا فروعها، وتفاحش أمر الأسرى بين الطرفين : المغربي والفرنسي، وحدثت حوادث في المعاملات التجارية، والحركة القرصانية، أوعز المولى إسماعيل سنة مائة وألف (1100/1688) إلى لويس الرابع عشر بواسطة أحد الأسرى الفرنسيين الذين كانوا عنده، المسمى لا باربيني (La Barbinais) بأنه مستعد للنظر في تجديد المعاهدة المذكورة، وفي فداء الأسرى من الجانبين، يعني على شرطه.

وأصدر أوامره تمهيداً لذلك بجمع الأسرى الذين كانوا مفرّقين بالمغرب وتوجيهم لمكناس، وجعلهم تحت نظره.

ولمّا جُمعوا، ووصلوا لمكناس، حباهم وواساهم وخفف الخدمة عنهم، وأسقط عنهم كُلَفاً كان يتحمّلها غيرهم من أسرى دول أخرى.

ثم حدثت حادثة كدّرت الجوّ بين الطرفين وهي أن أحد قراصنة سلا، المسمى إبراهيم شاوش، كان مأسوراً بفرنسا زمناً طويلا، وافتداه المولى إسماعيل في جملة أسرى آخرين،

---

92) مقتبس من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية، ص 205، وما بعدها، وص 267 و379 و449.

ولمّا وصل لمكناس، وُجد مجدوع الأنف مصلوم الأذنين، فاستاء من ذلك غاية الاستياء، واحتج عليه، فاعتذرت فرنسا، لأنه استوجب ذلك عقاباً له لاغتياله بعض الناس.

ولمّا وصل الأسير الرسول الموجه من قبل المولى إسماعيل إلى باريس، وبلّغ رسالته لحكومته، أمر لويس الرابع عشر أحد أميرالاته شاطو رونو (Château-Renaud) بمباشرة هذه المسألة العويصة، والمخابرة فيها مع المولى إسماعيل.

وكلّفه بتوجيه من يقوم بذلك، وهو القبطان البحري دي أوجيير (Des Augiers) في سفينة قرصانية خاصة إلى مرسى العدوتين، ومنها يتوجّه إلى مكناس، وأوعز إليه أن تكون المعاهدة التي سيُتّفق عليها نفس المعاهدة السابقة، وأن يُلتزم في فداء الأسرى أن يردّ كل واحد من عنده من أسرى الآخر، بدون اعتبار للعدد، أو يكون الفداء رأسا برأس؛ وإذا كان عند ملك المغرب عدد أكثر من أسرى الفرنسيين فيُعوضون له بعدد آخر من الأسرى المسلمين، أو بفداء مالي، قدره مائة ريال لكل أسير، أو شراء أسرى مغاربة آخرين من دول أخرى كإصبانيا والبرتقال يُتمّم بهم العدد.

ثم كتبت الحكومة الفرنسية لقناصلها بإصبانيا تأمرهم بشراء الأسرى المسلمين منها لإتمام العدد المطلوب.

فأجابوا بأنهم حاولوا ذلك، فلم يُمكنهم الحصول على مرادهم، لأن مُلاّك الأسرى المسلمين امتنعوا من بيعهم بأي ثمن كان، لاستعمالهم في صيد السمك، وذلك الوقت موسمه، وهو شيء مهم عندهم.

ثم كتبت إلى قناصلها بالبرتقال بمثل ذلك.

فأجابوا بأنه لا يوجد إلا قليل من الأسرى المغاربة بالبرتقال في ذلك الحين لأن البرتقاليين كانوا يتحَرّوْن عدم مهاجمة القراصين المغربية، طبقاً لِما أوجبته الأحوال السياسية في تلك الظروف الحرجة.

وأخبروا بأن بعض الإنجليزيين كانوا جاؤوا إلى البرتقال لبيع بعض الأسرى السلاويين بها، فلم يجدوا إقبالاً عليهم، فحولوا بضاعتهم الإنسانية إلى جبل طارق.

وأخبروا بأن الأسرى المغاربة الموجودين بالبلاد البرتقالية مُقَرّنين في الأصفاد، ومكلفين بماء القصور الملكية، ومستعملين في أوراش السفن القرصانية والبناءات الحكومية، ومنظرهم وهم يتسكّعون في الطرقات، يجرُّون سلاسلهم وأغلالهم من أقبح المناظر وأبشعها يبعث على الأسى والتأثر.

وأحصى لويس الرابع عشر أسراه بالمغرب، فبلغ عددهم إذ ذاك خمسة وستين ومائتي أسير (265).

فنفَّذ شاطو رونو (Château-Renaud) الأوامر الصادرة إليه.

ولمّا وصل المبعوث الفرنسي إلى مكناس وتذاكر مع وزراء السلطان وقواده فيما جاء لأجله من إصلاح الحالة التجارية، وفداء الأسرى، أجيب بأن المسائل والمشاكل التي بين فرنسا والمغرب كالتجارة والقرصنة ونحوهما لا يُنظر فيها إلا بعد تسوية قضية الأسرى، ومفاداتهم من الجانبين، طبق الإرادة الإسماعيلية.

ومع ذلك، فقد أذن لويس الرابع عشر لتجاره في مباشرة تجارتهم كما كانوا سابقا، لأنه لم يقدر على منعهم، وتوقيف أرباحهم، ريثما تتم المذاكرة في تقرير الصلح والفداء.

وفي أثناء هذه المذاكرة، أخذت سفينة جزائرية سفينة فرنسية بالشواطئ المغربية، وأسرت فيها مائة فرنسي، وجّهت ستين منهم إلى الجزائر على طريق المغرب، فأمر المولى إسماعيل بأخذهم وإضافتهم إلى الأسرى الذين عنده، بمقتضى الحالة الحربية التي كانت متجلية بينه وبين ترك الجزائر.

وبسبب ذلك تعذّر الوصول إلى حل مرضي في شأن الأسرى بين الطرفين، ورجع المبعوث إلى من بعثه بخفي حنين .

وبعد هذه الخيبة في المذاكرة، حصلت فترة في المواصلة بين الدولتين، لأن المعاهدة بقيت حبراً على ورق، واتَّهمَ كلٌّ من المتعاقدين الآخر بإمهالها أو إهمالها.

المبحث الخامس

القنصل جان بابتيست – إيسطيل
(Jean-Baptiste Estelle)
وتدخله في شؤون الأسرى[93]

كان بيير إيسطيل (Pierre Estelle) قنصلاً لفرنسا بتطوان، وكان ولده جان بابتيست- إيسطيل (Jean-Baptiste Estelle) قنصلاً لها بالرباط. وكانا يلعبان على الحبْلين، ويتدخَّلان في شؤون الدولتين، ومسائل الأسرى بين الجانبين، ويتجسَّسان على الحكومة المغربية، ويرفعان التقارير بما يروج فيها إلى حكومتهما بباريس، ويصوران الحوادث في صور مختلفة، حسبما يُطابق هواهما، وتقتضيه مصلحتهما، حتى إن قائد تطوان علي بن عبد الله، لمّا اطّلع على تلاعبهما، بما رُفع إليه من الشكايات بهما من بعض التجار، سجن الأب، ونفاه إلى بلاده، فلقيته في طريقه إليها في البحر سفينة قرصانية إصبانية، فأسرته، وبقي في الأسر ستة أشهر، ثم أُطلق سراحه ورجع إلى وظيفته، في قصة ليست من موضوعنا.

والتحق الأب بعد هذه الحادثة بولده جان-باتيست، قنصل الرباط، واتفقا معاً على الذهاب للعاصمة الإسماعيلية، والاتصال بالحضرة السلطانية، افتياتاً على القائد علي بن عبد الله، فاستأذنا السلطان في ذلك فأذن لهما.

ولما وصلا لمكناس، قابلهما بواسطة القائد أحمد بن حدُّو العَطّار.

وراجت بينه وبينهما مذاكرة طويلة سياسية إخبارية، ترجع لفرنسا والمغرب، والمسائل المتعلقة بينهما، فيما يؤول إلى الأسرى والقرصنة البحرية وغير ذلك.

---

93) لخّصنا أخبار هذا القنصل مما جاء في مذكراته الشخصية، والمكاتب الرسمية التي راجت في شأنه، بين الدولتين المغربية والفرنسية المدرجة في المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية.

وذكر لهما عند انتهاء المقابلة، أنه يريد أن يتخذهما طريقاً للمفاوضة مع الحكومة الفرنسية.

وبعد خروجهما من عنده، وجّه لهما القائد أحمد بن حدو العطار، وأخبرهما بأن جلالته اعتبرتهما، وصرّحت لَهُ بأنها ستحميهما وتجارتهما، ويُمكنهما أن يتذاكرا رأساً مع حكومتهما الفرنسية بباريس، في إيجاد حل مناسب لمشكلة الأسرى المغاربة من رعيته المعذبين بالخدمة الشاقة في الأوراش والسفن البحرية الفرنسية إلى الموت، وأنها مستعدة لقبول الفداء فردياً وجماعياً في مقابلة الأسرى الفرنسيين الذين عنده، والزائد على المفادات الفردية أو الجماعية يُنظر فيه بالتعويض المالي حسبما سيُتّفق عليه أثناء المخابرة.

ثم سافر الولد، قنصل الرباط، جان-باتيست إيسطيل إلى فرنسا في شهر يونيه سنة تسعين وستمائة وألف (1101/1690)، ورفع لحكومته تقاريره ومذكراته المتعددة بما راج بينه وبين الجلالة الإسماعيلية من المذاكرة فيما يرجع لفداء الأسرى، وشحنها بما أوحى إليه فكره، وخطّه قلمه، من عبارات الذّم والازدراء بالدولة والأمة المغربية، وتشويه الحوادث والمبالغة فيها، وتحويلها عن ظاهرها لتنطمس حقائقها، بما علّقه عليها من أفكاره الخاصة، وآرائه المؤيِّدة لمصالحه الشخصية، وما سيحصل عليه من الأرباح أثناء هذه التنقلات والأسفار للوساطة بين الحكومتين المغربية والفرنسية.

ولمّا اطّلعت الحكومة الفرنسية على تقاريره، وما راج بينه وبين المولى إسماعيل والقائد أحمد بن حدو، أجابته بأن ما عرضه في فداء الأسرى لا يختلف عمّا كان عُرض قبل هذا منذ بضع سنوات، ولذلك لا يأتي بنتيجة يُعوّل عليها، أو يُعتمد في التنفيذ على ما جاء فيها.

ومع ذلك، قررت رجوعه إلى المغرب مزوّداً بأوراق اعتماده في المذاكرة، وأعطته التعليمات الخاصة، وبيّنت له الأسلوب الذي يتعيّن عليه تطبيقه أثناء المخابرة، وأن يكون معه ترجمان يُحسن العربية، يحضر المجالس، ويُسجّل بمجرد خروجه منها جميع ما راج فيها، ليُعلم من ذلك ما ظهر وما خفي من أسرارها.

ولم ينس القنصل إيسطيل (Estelle) في هذا المقام المطالبة بما أنفقه في سفره إلى مكناس ومجيئه إلى فرنسا، والتعويض عمّا واسى به بعض الأسرى، ولعلّ ذلك كان هو المقصود عنده.

فأجابته حكومته عن هذا بأن لا يُكثر الأسفار والانتقالات التي لا تأتي بمصلحة عامّة أو فائدة محقّقة للدولة.

ثم بارح إيسطيل فرنسا راجعاً إلى المغرب في الثالث والعشرين من شتنبر سنة تسعين وستمائة وألف (23 شتنبر 18/1690 حجة 1101)، وحلّ بالرباط في سادس يناير سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (06 يناير 03/1691 ربيع الثاني 1102)، وتوجّه إلى مكناس، بعد استئذان أحمد بن حدو العطّار، صحبة كاتبه علي بن يوسف، فوصلها في العشرين منه (17 ربيع الثاني)، وتلاقى مع القائد أحمد بن حدو المذكور، وقابله المولى إسماعيل، وذاكره في نتيجة المهمة التي توجّه من أجلها إلى فرنسا، فلم يجد عنده شيئا.

وبعد إقامته بمكناس عدة أيام خاض أثناءها فيما لا يعنيه مع مبعوثي إصبانيا والبرتقال الذين جاؤوا للمذاكرة مع السلطان في شأن فداء أسراهم، بارح مكناس ورجع إلى الرباط يجرّ وراءه خيبة الأمل، وضياع العمل.

وفي أثناء هذه الظروف، كتب الأسرى الفرنسيون الذين كانوا بمكناس كتابا إلى الوزير پونشرطران (Pontchartrain) بتاريخ ثاني عشر فبراير سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (12 فبراير 11/1691 جمادى الأولى 1102) يُخبرونه فيه بأن المذاكرة التي روّجها إيسطيل في شأنهم لم يظهر مفعولها فيما يرجع للتخفيف عنه، وأنهم لا يعتمدون إلاّ على ما يأتي منه في حقّهم، وما يُصدره من الأوامر ملكهم في شأنه.

ولمّا استقرّ بمحلّ ماموريته بالرباط، استأنف رفع تقاريره إلى حكومته في شأن سفره وإقامته بمكناس مملوءة بتشويه الحقائق والنيل من كرامة الدولة المغربية وسوء الأدب في التعبير.

وأجابه الوزير پونشرطران بأن لويس الرابع عشر يُمكنه أن يقبل الفداء رأساً برأس في العجزة والمرضى والزّمنى وذوي العاهات والضّعاف من الأسرى المغاربة الذين بفرنسا، لانعدام الفائدة منهم، وكونهم أصبحوا عالة على الدولة، وأمّا غيرهم من الأصحّاء الأقوياء فلا، لِئلاّ تتعذّر الخدمة في سفنه القرصانية، وأوراشه البحرية.

ومع ذلك، فقد كانت تقع من حين لآخر معاوضة فدائية في بعض الأسرى المغاربة مع بعض الأسرى الفرنسيين على يد إيسطيل هذا، إذا كان أولئك الفرنسيون من ذوي الحيثيات، أو ممن كان يُرجى في السعي في إطلاق سراحهم فائدة مادية تعود عليه بالنفع.

ومن تتبع تقاريره ومُذكّراته ورسائله الرسمية إلى وزيره، وجدها تحوم حول نقطة واحدة مهمة عنده، وهي الحصول على أجرة معيّنة أو مِنَح متكررة، أو تعويض عمّا ينتحله من الأسباب والأسفار والتنقلات بين مكناسة والرباط للمذاكرة في مسألة الأسرى، والوشاية

ببعض قناصل وتجار الدول الأخرى، كإصبانيا وهولاندا وإنجلترا، وما يزعمه من مدّ يد الإعانة والإسعاف إلى أسرى دولته، في ظروف مختلفة، وأسباب واهية متكلّفة.

وبينما هو مقيم بالرباط، حدثت حادثة جديدة في ميدان القرصنة، وهي أن سفينة فرنسية برياسة جان شيكْس (Jean Chaix) التجأت إلى مرسى تطوان، فحُجزت، وسيق بحّارتها إلى مكناس، فاتخذ هذه الحادثة سببا، واستأذن القائد عبد الله بن حمدون الروسي في القدوم إلى مكناس، فأذن له، وقدم إليها في ثالث عشر غشت سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (13 غشت 17/1691 قعدة 1102)، ونزل بالملاح عند اليهودي ميمران، وقابله القائد الروسي المذكور وذاكره فيما جاء لأجله.

وفي الحادي والعشرين منه (24 قعدة) استقبله المولى إسماعيل مقابلة جميلة، وقدّم له هدية القدوم على العادة المرعية في ذلك العصر، وسأله عن سبب قدومه، فأخبره بقضية السفينة الفرنسية التي التجأت إلى تطوان، وأسر بحارتها، فأجابه بأن ينتظر قدوم القائد علي بن عبد الله، ويسمع كلامه، وحينئذ يُجيبه بالمتعيّن.

ثم اجتمع بالقائد الروسي مرة أخرى، ودسّ أثناء المذاكرة معه التحريض على المداومة في عداوة هولاندا، والاستمرار في محاربة أساطيلها القرصانية، فلم تؤثر سعايته في القائد المذكور شيئا.

وهكذا تكرّرت اجتماعاته ومذاكراته مع غيره من قواد السلطان ونوابه، وكلهم يصرّحون له بأن السلطان قَرَّرَ أن لا يقبل الآن في الفداء إلاّ المبادلة على أساس أن كل أسيرين مغربيين يُعوّضان بأسير واحد فرنسي، اقتداءً بما تمّ عليه الاتفاق أخيراً مع إصبانيا وإنجلترا وتمّ تنفيذه، وبمقتضاه رجع كلّ من أسرى الطرفين إلى بلادهم.

وبعد الانتظار الطويل، حلّ القائد علي بن عبد الله بمكناس، ودخلها في مهرجان كبير، وجاء معه بالألف أسير مغربي الذين تمّ فداءهم مبادلة مع إصبانيا بمائة أسير إصباني.

وحضر إسطيل هذا الاحتفال، ووصفه في مذكراته، وكان المقصود من حضوره، هو إشعاره بنتيجة المخابرة مع إصبانيا، وما أدّت إليه من خلاص أسرى الطرفين من الاستعباد بدون اعتبار أي مصلحة أخرى.

ثم استقبله المولى إسماعيل مقابلة ثانية، بعد قدوم القائد علي بن عبد الله، وراجت بينهما بمحضر القواد مُحَاوَرَة ومذاكرة طويلة في شأن مهمته، وأخيراً أنعم عليه بإطلاق

سراح أسرى السفينة الملتجئة إلى مرسى تطوان، وكان عددهم إثني عشر أسيراً، مات منهم ثلاثة، وأسلم واحد، وبقي ثمانية.

ولم يتمّ بينه وبين السلطان شيء فيما يرجع للأسرى المغاربة الذين بفرنسا والفرنسيين الذين بالمغرب لِتَشَبُّثِ كل من الطرفين بمبدئه.

وفي أثناء هذه المقابلة، أمره السلطان بالرجوع إلى فرنسا والمذاكرة مع حكومته مرة أخرى في الوسائل التي تثبت السلم الدائم بين المملكتين، وإطلاق سراح أسرى الدولتين، على يد سفير فرنسي ياتي إلى مكناس، أو سفير مغربي يتوجه إلى باريس.

وسلّم له عند سفره رسالة إلى لويس الرابع عشر، يُخبره فيها بما راج بينه وبين هذا القنصل، وأنه مجرد تاجر، وليس بسفير، وبيّن له شروطه في مسألة الأسرى، وأنّ ذلك لا يكون إلا بواسطة السفراء ذوي التفويض التام، ونصّ الرسالة ا لمذكورة :

نص رسالة المولى إسماعيل
إلى لويس الرابع عشر في
شأن فداء الأسرى

بسم الله الرحمان الرحيم

وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

من عبد الله تعالى، الغالب بأمر الله، المتوكل في جميع أموره على الله، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الهاشمي المنيف، إسماعيل بن الشريف، الحسني.

(الطابع الإسماعيلي)

أيد الله أوامره وظفّر جنوده المنصورة بالله، وعساكره، آمين.

إلى عظيم الروم، وكبير مملكة الفرنسيس، والمتولي أمرهم، والمتصرف في أحكامهم، الويش الرابع عشر،

السلام على من اتبع الهدى، واجتنب سُبل الرَّدى.

أما بعد، فاعلم أنه ورد على مقامنا العلي بالله النصراني التاجر ولد إصطيلة القونص، وزعم أن بيده من عندكم أمر وتفويض، واستظهر لنا بمكتوب على لسانكم يدلّ على الإذن له في الكلام فيما يظهر له لدينا من مهمّاتكم وأغراضكم، ويتوسّط فيما يعرض لكم بحضرتنا العلية صانها الله، فلم نشك أنه مكتوبكم وإذنكم، غير أنا لم نعتمد على قوله، ولم نر الكلام معه في شيء من ذلك، لكونه تاجراً وليس هو من خواص أصحابكم، ولا من كبار خدّامكم، وأعيانهم لديكم، إذ ليس من شأن التجار الدخول في الكلام مع الملوك، وأن يكونوا وسائط فيما يعرض بينهم. فالتاجر إنما يتكلّم فيما هو من وظيفه فقط، إلاّ إذا كان التاجر يسعى في إبلاغ كلام هذا لهذا، أو حصول مواصلة أو حمل رسالة يقع بها بعث من الجهتين، فنعم. وهذا غاية ما يتحصل من كلام التاجر لا غير. فإن كان لكم غرض في الكلام بجدّ وخلوص نية فابعث إلينا واحدا من كبار أصحابكم الذين يوثق به ويُتكلّم معه، وياتينا بهذا القصد وبهذه النية.

وإن أحببتم أن نوجّه لكم نحن واحداً من خيار خدّامنا وكبار أهل بساطنا، العلي بالله، إبعثوا إلينا مركباً يحمله من عندنا، ونبعثه لكم بالإذن الصحيح.

وحاصل ما نتكلّم به معكم في هذه الأسارى التي لكم عندنا أن نعمل لكم فيها الفداء نصرانياً واحداً بمسلم، ولا نبتغي عندكم إلاّ من هو هنالك من أهل سلا والرباط وتطاوين وفاس والقصر ومكناسة الذين أُخذوا دون العشر سنين إلى ست سنين إلى أربع فأقل من ذلك، ومن سواهم من غير هذه البلاد المذكورة، ومن كان فوق العشر سنين لا نتكلم معكم فيه بشيء سوى هؤلاء الأسارى.

ولولا هؤلاء التجار من عندكم أزعجونا في الكلام والمراجعة في هؤلاء الأسارى الذين لكم عندنا، وأهلهم هنالك يزعجون هؤلاء التجار وهم يترادفون علينا بالقول في حجتهم كم من مرّة، ما ابتغينا فيهم كلاما، ولا عندنا هنالك أسارى تكبر علينا مسألتهم، أو من هُوَ معروف عندنا بوجهه إلاّ البحرية ومن هم من أمثالهم.

وإن اتفق رأيكم على بعث من تعيّنوه من خدّامكم، يأت معه بجميع من هو هنالك من الأسارى المذكورين إلى أقرب مرسى، ونتفاصل معه بوجه لائق ممكن، ونعطيه أساراكم، ونأخذ منهم المسلمين، هذا بهذا، ولا يرجع إلاّ مقضي الغرض إن شاء الله، والوجه اللائق بكم من بعث بعض أصحابكم، أو بعث المركب لصاحبنا إعملوا عليه، والله سبحانه الموفق للأمور والمعتمد عليه سبحانه.

والســلام على من اتبع الهدى.

وكتب غرة ربيع النبوي المفضل عام ثلاثة ومائة وألف.

(غرة ربيع النبوي 22/1103 نونبر 1691)

وسلَّم له القائد علي بن عبد الله رسالة أخرى منه إلى لويس الرابع عشر أيضا، أعلمه فيها بما له من التفويض التام من قبل السلطان في المراسي المغربية التي إلى نظره، كتطوان وطنجة والعرائش والمعمورة، وأن القنصل إسطيل لمّا استقبله السلطان اعتبره فيما فيه مصلحة الجانبين من تقرير الصلح، وإطلاق سراح الأسرى، وحيث أنه مجرد تاجر، فينبغي أن يكون ذلك على يد سفير مُفوّض، إمّا من فرنسا أو المغرب.

وألفت نظره للعداوة التي بينه وبين الإصبان لأنه انتزع منهم المراسي التي كانوا مستولين عليها، كالعرائش، والمعمورة، وهو محاصر لسبتة حتى يأخذها منهم، وإنما أعلمه بهذا، لما يعلمه من العداوة التي بينه وبينهم أيضا، ونصّ الرسالة المذكورة :

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى عظيم الإفرنج، وكبير المِلَّة الفرنصيصية، الضابط لأمورها، والقائم بشؤنها، والمتصرف في أحكامها، المعظم في قومه، الملك لويش الرابع عشر،

السلام على من اتبع الهدى.

أمابعد، فإنه لا يخفاك ما أسنده إلينا مولانا أيده الله ونصره، من أمر هذا الإقليم المشتمل على هؤلاء المراسي من ثغر طنجة وتطاوين والعرائش والمعمورة، وفوّض لنا في جميعها التفويض التام، الشامل العام، وأقامنا ها هنا بصدد أن نتكلّم معك ومع غيرك من أجناس النصارى، ويتكلّمون معنا، ونتقاضى الحاجات فيما بيننا في سائر مَا يُبيحه لنا الشرع العزيز.

وقبل هذا، ورد علينا ولد التاجر القنص صَطِيلَة الذي هو عندنا، وبيده خطّكم وإذنكم في الكلام حسبما ذلك مرسوم عنده.

فلمّا أن وصل إلى بساط سيدنا، ووقف بين يديه وجده رجلاً عاقلاً مما يوثق به، غير أنه رجل تاجر ليس هو من خصوص ديوانكم، ولا من أعيان بساطكم، فأقام بحضرته أيده الله نحو الشهر أو أكثر وهو يعاين قدومي إلى حضرة ضيفي نصره الله، لأن من عادتي أن

نجدّد عهداً بسيدي في كل سنة. وفي هذه السنة، قدمت على العادة، فوجدت النصراني ولد القنص ينتظرني بأمر ضيفي أيده الله، ولا يخفاك أيضاً أن التجار وغيرهم من النصارى الخطار إذا وفدوا على هذه البلاد، واجتمعوا بأسارى جنسهم، يُحرّضهم الأسارى على السعي في فكاكهم، ويطلبون منا أن نكون لهم واسطة وعونا في ذلك، ونتسبب لهم فيه، لاسيما هذا القنص وولده، لم يزالوا مجتهدين في السعي في فكاك الأسرى بجدّهم واجتهادهم، وإفراغ وسعهم، فساعدناهم لذلك، ووقفنا لجلب خاطرهم ورضاهم عند مولانا، أيده الله، حتى استجاب لنا، وقبل منا ما طلبناه منه، وأراد - أيده الله - أن يكون هذا الأمر على وجه صحيح، يُعتمد عليه، ويتعيّن من يقدم من حضرتكم رجل من وجوه أعيانكم، حتى يصل إن شاء الله إلى بساط مولانا نصره الله، ونكون نحن الواسطة في مقضية الأمور إلى غايتها بحول الله، أو إن أردتم ورود بعض خدّام مولانا نصره الله إلى بلادكم، والحضور عندكم، فابعثوا لنا مركباً يحمله ويتوجّه في حفظ الله.

وإلى الآن فنعلمكم أن أهل إصبانيا لا يخفاكم شدة الكره الذي بيني وبينهم، ووجه عداوتي معهم وكرههم فيَّ إنّما هو لِمَا رأوا في من الحرص والمهاوشة لهم في هذه البلدان التي كانت لهم في برّ الإسلام، كالعرائش والمعمورة التي استرجعناها بفضل الله من أيديهم، وكمدينة سبتة التي أنا مجدّ في الظفر بها بعون الله. فمن أجل ذلك صاروا يكرهونني، ولولا ما نعرف منهم أنهم يكرهونك أنت أكثر وأكثر ما كنت أعلمتك بذلك.

ولم يبق لي الكلام إلا معك إن أردت وأحببت أن نكون الواسطة بينك وبين ضيفي، ونصطحب معك وتصطحب معنا فتبارك الله. وها هو سيدي أيده الله، كتب لك كتابا بطابعه الشريف، ووجّهه إليك صحبة حامله، ولد القنص صطيلة، لأنه يثق به أيده الله. وقد رضيناه لرسوخ عقله، فأصحبناه كتاب مولانا نصره الله مع كتابنا هذا إليكم، وأخبرك أيده الله بمضمن ما عنده من الأمور، فإذا قرأته وتفهمته، ووجّهت أحداً من أعيان ديوانك إلى هذه الحضرة العلية بالله، فنحن نقف ونتوسط له فيما بينه وبين ضيفي أيده الله إلى أن يستوفي غرضه.

وإن أحببت أن يقدم عليكم واحد من المسلمين، فاكتب بذلك لسيدي نصره الله، اطلبه منه، فإنه يساعدك، ويبعث من يتكلّم معك مفوّضاً في الإبرام والعقد في مسألة فكاك الأسرى، حسبما تضمنه الكتاب السلطاني، ولا مزيد على ما خاطبك به سيدي نصره الله إلاّ مجرّد إعلامك بأننا نقف لك الوقوف الذي تريده منّي حتى تقضي غرضك عند ضيفنا.

والســــلام على من اتبع الهدى

وكتب أوائل ربيع النبوي عام ثلاثة ومائة وألف

(أوائل ربيع النبوي 1103/ أواخر نونبر 1691)

ثم طابعه بداخله : خديم المقام العالي بالله علي بن عبد الله الحمامي.

ولمّا قدم إسطيل إلى تطوان في طريقه إلى فرنسا، واجتمع بالقائد علي بن عبد الله طلب منه الأسرى الذين أنعم عليه بهم السلطان، فاعتذر له بأنه سيُبقيهم تحت يده حتى ياتي السفير المفوض من قبل لويس الرابع عشر، ويُسلمهم له.

ومن تطوان، سافر إلى فرنسا على طريق قادس، فوصلها، آخر شهر فبراير سنة اثنتين وتسعين وستمائة وألف (أواخر فبراير 1692/06 جمادى الآخرة 1103)، وتوجّه إلى باريس، وقابله پونشرطران (Pontchartrain)، وأخبره بالفائدة السلبية التي حصل عليها أثناء رحلته المكناسية وسلّم له المكاتب التي جاء بها، وأنعم عليه الوزير بتعويض مالي عمّا أنفقه في أسفاره وتنقلاته، ولعله المقصود عنده.

وفي الثالث والعشرين من أبريل سنة اثنتين وتسعين وستمائة وألف (23 أبريل 1692/ 04 شعبان 1103) أجاب لويس الرابع عشر السلطان المولى إسماعيل على كتابه صحبة إسطيل المذكور.

ومضمنه أنه مسرور بما رغب فيه من السلم المستمر، وسيُوجّه له سفيراً ليتّفق معه على ما فيه خير ومصلحة الدولتين، وأخبره بأنه أصدر أوامره بإيقاف الغارات البحرية حتى يتم الصلح، وحتّم على تُجّاره في استئناف حركاتهم التجارية...

ووجّه الوزير بونشرطران كتاباً آخر منه بالتاريخ أعلاه للقائد علي بن عبد الله جواباً عن كتابه الذي خاطب به لويس الرابع عشر، وأشعره فيه بصدور الأوامر بإيقاف الغارات الحربية البحرية، واستئناف الأعمال ا لتجارية، ريثما ياتي السَّفير الرَّسْمي لتقرير المعاهدة الصلحية المتضمنة لفداء الأسرى بصفة نهائية، فردية أو جماعية...

ثم رجع هذا القنصل من فرنسا إلي تطوان، ومنها توجّه لمكناس، فوصلها في ثالث عشر غشت سنة اثنتين وتسعين وستمائة وألف (13 غشت 1692/ متم قعدة 1103)، وقابله السلطان المولى إسماعيل، وسلّم له جواب لويس الرابع عشر، وتوقّف الأمر في إنجاز الاتفاق على المسائل المُعَلّقَة على مجيء السفير المنتظر.

وعقب ذلك، عيَّن لويس الرابع عشر الفارس دو سانت أولون (Le Chevalier de Saint-Olon) سفيراً له لدى المولى إسماعيل، وهو ما سنرى أخباره في الفصول الآتية الخاصة به.

هذا، وقد كان القنصل إسطيل من أعداء عبد الله ابن عائشة، حسبما سيأتي في أخبار سفارته وترجمته. رفع به ابن عائشة مكاتب إلى السلطان المولى إسماعيل أخبره فيها بما هو مشتغل به من الجاسوسية والكيد للدولة...

فاستدعاه المولى إسماعيل لمكناس، واستنطقه، وكانت حياته معه معرضّة للخطر، ونجي منه بجريعة الذقن، وتسبَّب عن ذلك نفيه من المغرب، فطلب الرخصة من حكومته، ورجع إلى فرنسا سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (1109/1698)، بدون رجعة.[94]

وكان عضواً في لجنة تحرير مشروع الصلح وتقرير مصير الأسرى في سفارة عبد الله ابن عائشة، فخبّ ووضع، ولم تنجح سفارة عبد الله ابن عائشة، كما سيأتي بيانه في الفصول الخاصّة بها.

والحاصل من أخبار هذا القنصل أنه كانت له مع السلطان المولى إسماعيل ومن اتَّصل به من قواده ورجال دولته مواقف ومذاكرات ومحاورات فيها وعد وإيعاد، وتقريب وإبعاد، بحسب ما كان يتجلّى في أوْقاتِ رضاه وانقباضه، وإقباله وإعراضه، لم تُسفر عن فائدة تعتبر، أو نتيجة تستحق أن تذكر وتُسطر، ولِلّه عاقبة الأمور.

94) «الأسرى الفرنسيون بالمغرب في القرن السابع عشر»، لمؤلفه شارل پانز.
(Les Captifs Français du Maroc au XVII s, par Charles Penz)

المبحث السادس

سفارة الفارس دو سانت أولون
(Le chevalier de Saint-Olon)
لإثبات السلم وفداء الأسرى[95]

لمّا حَدَثَتْ الحوادث الجديدة في الجو السياسي والقرصاني بين الدولتين المغربية والفرنسية، وخاب مسعى الرسل فيما دبّروه من الوسائل السلمية، للوصول إلى حل تنحلّ به عُقَد المسائل السياسية والتجارية، وتوضع بسببه الأغلال التي في أعناق أولئك الأسرى بالأوراش البحرية الفرنسية، والمنشآت العمرانية بالمدن المغربية، أعاد لويس الرابع عشر نظره في القضية، وتأمّل فيما تقتضيه المطالب الإسماعيلية من المخابرة في شخص ذي اعتبار ومقام في الهيأة الرسمية الملكية، أو شخصية بارزة في الحكومة الفرنسية، وعيّن للسفارة عنه بالبلاط الإسماعيلي الفارس دو سانت أولون (Le chevalier de Saint-Olon)، وكان أُسندت له قبل ذلك مهمّات أخرى في بلاد أجنبية غير المغرب.

وصدرت له الأوامر والتعليمات التي سيعمل بها، ولا يتحوّل عنها، سواء في قضايا الأسرى أو المسائل القرصانية والتجارية.

– ومنها أن تكون الهدية التي سيقدمها للسلطان باسمه، لا باسم لويس الرابع عشر، لِئَلاّ يُتوهّم أنها إتاوة يؤديها له.

---

95) ملخص من مذكراته المدرجة في المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، من ص 8 إلى ص 26.

– ومنها إجراء بحث استطلاعي على حالة المملكة المغربية... وقد كان كُلّف السفير قبله سانت آمان بمثل هذا البحث الاستطلاعي الذي لا علاقة له بمسألة السلم والأسرى.

وزُوِّد بمشروع المعاهدة الذي أُمر بتقديمه للمولى إسماعيل ليُصادق عليه، ولا يُغيِّر منه نصاً ولا فصلا.

وفي أثناء سفره كانت المكاتب تتوارد عليه من وزيره بونشرطران بالتأكيد عليه في تنفيذ الأوامر الصادرة إليه، وعدم التحول عنها قيد أُنْملة، وأن لا ينخدع بكلام ملك المغرب وقواده.

وعند سفره من باريس، سلم له ملكه لويس الرابع عشر رسالة منه للمولى إسماعيل بتاريخ رابع عشر يناير سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (14 يناير 1693/07 جمادى الأولى 1104)، يعلمه فيها بأنه بناء على ما أظهره من الرغبة في اتصال حبل المواصلة بين الدولتين، وتجديد المعاهدة السلمية بين الرعيتين، اختار للسفارة لديه الفارس دو سانت أولون، سفيره المعتاد، ليتَّفق معه على ما فيه الصلاح والخير للجانبين، بمقتضى ما لديه من التفويض التام الذي يُخوِّله حق القيام بهذه المهمة.

وكان سفره من طولون (Toulon) إلى المغرب أواخر شهر مارس سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (أواخر مارس 1693/ أواخر عام 1104).

وصوله إلى تطوان

في ثالث مايه من السنة المذكورة (27 شعبان)، كان وصوله إلى مرسى تطوان.

وفي الخامس منه (متم شعبان)، فارق السفينة ونزل إلى البر، وضُربت له أخبية على الشاطئ أقام بها. وجاء للسلام عليه إسطيل، قنصل فرنسا بتطوان، ووالي المرسى، أبو عبد الله الحاج محمد بن علي الوقاش.

وحيث كان القائد علي بن عبد الله غائباً عن تطوان، فقد وجه له أحد كتّابه المسمى عبد الرحمان في شرذمة من الخيل بقصد السلام عليه نيابة عنه ومرافقته حتى يدخل المدينة، وينزل بالدار المعدة لنزوله، فلم يقبل ذلك منه، وقال له : لا ينتقل من محله حتى ياتي القائد بنفسه، ويستقبله كسفير ذي حيثية باسم السلطان، ويرافقه في احتفال ومهرجان إلى

تطوان، وجرى بينه وبين الكاتب حوار في هذا الشان، وأخيراً رجع الكاتب إلى القائد، وأخبره بما كان.

ثم عاد إليه مرة أخرى، فلم يقبل منه كلاما، وصمّم العزم على عدم مبارحته مكانه حتى ياتي القائد لاستقباله والسلام عليه بنفسه، وأبرق وأرعد، وهدّد وأوعد.

ثم توالت الرسل بينه وبين القائد، وتدخّل في القضية القنصل الفرنسي إسطيل، وكادت المسألة تَؤُولُ إلى المسائل العويصة التي يصعب حلُّها، وكأن هذا السفير جاء لا لِحَلِّ المسائل، ولكن لإحداث المشاكل.

وبعد أخذ وردٍّ، وحلّ وعقد، وجّه القائد نائباً عنه لمرافقته إلى تطوان، ابن عمه، القائد واعلي، أحد رؤساء الجيش الإسماعيلي بالريف ومعه خمسمائة فارس من الجيش الإسماعيلي خيالة ومشاة.

وفي ثاني عشر مايه (06 رمضان) تحرك من محله، ودخل تطوان في وسط هذه الفرقة من الجيش، ورافقه في طريقه إلى المدينة السفير السابق الحاج محمد تميم، وكاتب القائد، وغيرهما من الشخصيات.

ولمّا دخل المدينة، راقه منظرها لما لبسته من حلل الزينة، وتلقاه السكان بحفاوة واستبشار، وحينئذ خمدت ثورته، وسكنت عاصفته، ونزل بدار جميلة فيها ما يحتاجه ويتوقّف عليه من وسائل الراحة.

وفي الغد، الثالث عشر مايه (07 رمضان)، جاء القائد في جيشه على حين غفلة، وطلب منه السفر حيناً إلى مكناس، عملاً بالأمر السلطاني الصادر إليه بذلك، ولم يُمهله إلى غد إلاّ بعد محاورة وجدال طويل.

وفي الرابع عشر مايه (08 رمضان) سافر من تطوان قاصداً مكناس، ومرّ في طريقه على ناحية طنجة، فتلقّاه القائد علي بن عبد الله، واحتفل به، وذاكره في مهمته التي جاء لأجلها، وجادله في الفصل المتعلق بفداء الأسرى، وحذّره غضب السلطان إن لم يُغيّره ويجعل الفداء رأساً برأس، كما قرّره وصمّم على تنفيذه.

وفي إحدى ملاقاته معه ومذاكراتهما معاً في نجاح مهمته ألفت نظره إلى ما قابله به من المجاملة، ونبّهه على أنه في طريقه إلى مكناس لملاقاة السلطان، مع أن فرنسا، وما بالعهد من قَدَمٍ، عاملت السفير تميماً أثناء سفارته الثانية معاملة استثنائية، ومنعته من الوصول إلى

عاصمتها، والمثول بين يدي ملكها وإبلاغه الرسالة التي جاء بها، وبذلك حبط عمله، وخاب أمله، ولم يُحصِّل على نتيجة فيما كان يسعى إليه من الصلح وفداء الأسرى.

ثم استمرّ في طريقه إلى العاصمة السلطانية المكناسية، وكان وصوله إليها في ثاني يونيه (27 رمضان) من السنة.

وصوله إلى مكناس واستقبال السلطان المولى إسماعيل له ومذاكرته في إثبات السلم وفداء الأسرى

لمّا وصل إلى مكناس ودخلها، ونزل بالمحل الذي أُعدّ له، صادف أيام الاحتفالات بعيد الفطر، فشهدها، ولكنه وصفها في مذكراته بازدراء واحتقار.

وفي الحادي عشر يونيه (06 شوال)، استقبله السلطان المولى إسماعيل استقبال القدوم، وقدّم له الهدية التي جاء بها باسمه، وكافأه عليها بأربعة من شبان الأسارى الفرنسيين هدية له.

وعينّ القائد محمد حدو العطّار للمذاكرة معه في معاهدة الصلح، ومسألة الأسرى التي جاء من أجلها.

وفي الغد عقدا معاً أول جمع لدرس مشروع المعاهدة الذي جاء به معه، فناقشاه فصلاً فصلا وجملة جملة.

وحاجّه السفير في الفصل المتعلق بفداء الأسرى، فقال له القائد : أتحاجوني في مسألة الفداء، وقد تقرَّر فيها ما تقّرر منذ سنين خلت، ولا أخاف ما تموّهون به إلاّ أن يشاء السلطان شيئا.

ثم عرض عليه أن يكون الفداء جملة بجملة، يعني جميع الفرنسيين الموجودين بالمغرب في مقابلة جميع المغاربة الموجودين بفرنسا؛ ولا يخفى أن الفرنسيين أكثر من المغاربة، فلم يتم اتفاق على ذلك.

ثم عقدا مجلساً آخر، ولم يتغيّر موقفهما في مسألة الفداء، وازْداد خلافهما في مسألة أخرى تتعلّق بحماية الأساطيل القرصانية الفرنسية، إذا هاجمتها قراصين دولة أخرى

معادية لها قرب السواحل المغربية، جاء في الفصل المتعلّق بها : أنه يتعيّن على القلاع والحصون والأبراج المغربية القريبة منها أن تحميها وتدافع عنها بمدافعها، ولو كانت تلك الدولة مسلمة مُسالمة للمغرب...

فلم يقبل القائد هذا الفصل، ولم يرضه السلطان، لِمَا فيه من الهجوم على دولة مسالمة ولو كانت مسلمة.

وافترقا متخالفين غير متحالفين، ولم يتفقا على شيء، وعُرضت محاورتهما على السلطان، فعضَّض موقف القائد.

مقابلة المولى إسماعيل له مقابلة الوداع

كانت مقابلة المولى إسماعيل له مقابلة الوداع في تاسع عشر يونيه (14 شوال)، وراجت بينهما أثناء هذه المقابلة مذاكرة طويلة.

وأخيراً صرَّح له أنه لا يقبل في مسألة الأسرى إلاّ ما كان قرَّره سابقا.

وبعد هذا الحوار الطويل قال له : إن شئتم المبادلة جمعاً بجمع، فتشمل جميع المسلمين الذين بفرنسا ولو كانوا غير مغاربة، يعني جزائريين وتونسيين وطرابلسيين وأتراكا، كما تقتضيه الأخلاق والدِّين والمروءة الإنسانية، وتحضّ عليه الشريعة الإسلامية، وبذلك خُتمت المذاكرة.

وعقب هذه المقابلة بارح مكناس راجعاً إلى تطوان، فوصلها في سادس وعشري يونيو (20 شوال)، وتعلّق بالقائد علي بن عبد الله لعلّه يُغيِّر موقف السلطان، فوعده بذلك، ولم ينجح في مسعاه.

ثم عرض عليه القائد المذكور عقد معاهدة تتضمّن إعانة الأسطول الفرنسي في حصار سبتة والتضييق عليها بحرا، ليسهل أخذها واسترجاعها من يد الإصبان، و تردّدت بينهما مكاتب في هذا الموضوع، فلم يقبل ذلك منه، وأصمّ أذنيه عن سماعه.

مبارحته تطوان راجعاً إلى بلاده

كان سفره من تطوان راجعاً إلى بلاده في الثاني والعشرين من غشت سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (22 غشت 16/1693 حجة 1104)، وعند ركوبه السفينة التي جاءت لحمله، ودّعه القائد علي بن عبد الله، وقدّم له هدية استقلّها ولم ترضه(96).

ثم سلّم له كتاباً من المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر في شأن سفارته وما أسفرت عنه، وكتابين آخرين منه، أحدهما إلى لويس الرابع عشر أيضا، والثاني إلى الوزير بونشرطران في الموضوع نفسه، ونص كتاب المولى إسماعيل :

نص كتاب المولى إسماعيل

إلى لويس الرابع عشر.

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

(الطابع الاسماعيلي الشريف)

إلى عظيم الروم، وكبير مملكة فرنسية، لويز الرابع عشر.

السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فإنه لمّا ورد على إيالتنا السعيدة خديمكم الأنباشضور، عرّفنا بخبر مجيئه خديمنا الأنصح الأرضى القائد علي بن عبد الله، وطلب منّا الإذن في قدومه لحضرتنا العلية بالله، فأذنا له في القدوم، وكنّا نحسبه ما جاء إلا بسبب أمور أكيدة، ومسائل مهمات كبار، بحيث نقضوا منكم جميع ما نريده، وتقضوا منّا جميع ما تريده.

فلمّا وصل إلى مقامنا العلي بالله، وتكلّمنا معه، واختبرناه، ما وجدنا عنده إلاّ الكلام في الأسارى، ولا وجدنا بيده تفويض عامّ يتضمّن العقد والحل فيما هو زائد على مسألة الأسارى، فاستصغرنا ذلك، حيث ما وجدنا مع من نتكلّم في مهمّات الأمور العظام.

ولا يخفى أن هذه المسألة التي جاء لأجلها وبسببها يقوم بقضائها تاجر من التجار، ممن هو أدنى رتبة منه.

---

96) ملخص من مذكراته المدرجة في المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، من ص 159 إلى ص 211.

ولمّا انفصل عنّا، راجعنا في قضيته خديمنا الأنصح، القائد علي بن عبد الله، بما أسندنا إليه من التفويض عن عليٍّ أمرنا في جميع مراسينا وما يواليها من المدن والقرى والقبائل، فأذنّا له في الكلام معه، وفوّضنا له في كُلٍّ مَا يعقده ويبرمه في المسائل المهمّات الكبار، إن كان بيد خديمكم تفويض لا يُنقض ولا يُحل، كما هو بيد خديمنا، فليعمل معه خديمنا بِحَسَبِ مَا يظهر له في الحال أو في الاستقبال.

والسلام على من اتبع الهدى.

وفي العاشر من ذي الحجة متم أربعة ومائة وألف[97]

(10 ذي الحجة 12/1104 غشت 1693)

ونص كتاب القائد علي بن عبد الله إلى لويس الرابع عشر :

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى من علت في قومه رتبته ومكانته، وعظمت على سائر أجناس الروم همّته وصولته، عظيم مملكة فرنسية، وكبيرها، لويش الرابع عشر.

السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فإن صاحبكم الأنباشضور بون شان طري[98] بلغنا بأصحابه، وتكلّفنا معه الوقوف والاستيذان على الضّيف - أيده الله - من موضعنا هذا إلى حضرته العليّة بالله، فأذن لنا في وصوله، وبلّغناه إلى مقامه أيده الله.

ثم بعد ذلك، لمّا انفصل عن مقام سيدنا، قصد محروسة تطوان، ووَجَدَنا الحال نحن بمدينة طنجة حرسها الله، فكتب لنا صاحبكم، وخبّرنا أنه لم يستوف غرضه من حضرة سيدنا، فبادرنا نحن بمراجعة سيدنا، وكرّرت له الكتب في ذلك نستفهمه عن مراده ما هو في

---

97) ص 135، من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

98) كذا بالأصل، وهو تحريف من الكاتب بلا شك، إذ المقصود هو سانت أولون (Saint-Olon).

هذه المسألة مرّتين أو ثلاث، وفي كلّها يجيبني ويقول لي : إن مرادي كلّه هو في انعقاد مهادنة صحيحة، ومهمات صريحة من الأمور العظام الكبار، تبقى جارية مستمرة، يُقضى بها أهم الأمور وأعظمها، كما هي لَهُم مع أهل صطنبول.

وهذا الأنباشدور جاء بقصد الأسارى، ولا يخفى أن هذا العدد الذي جاء إليه لو طلبهم مني لَجُدْتُ عليه بهم، ولا نُكبرهم في جانب مملكته، ومسألة مهادنة البحر لا طائل تحتها عندنا نحن، فما تعلّق لنا بها ما نحتاج فيه إلى عقد مهادنة، إذ أمرها خفيف.

فهذا ما أجابنا به سيدنا أيده الله.

وأنا - يعلم الله - أنْ لو طلب منا صاحبكم أن نكون له معيناً وواسطة لمقام سيدنا في كل ما يعرض من الأغراض لوقفت معه كما نقف لنفوسنا أو أكثر، وها أنا تكلمت معه مشافهة، وأمليْت عليه من فصول كلامنا ما فهمه بعقله، واستقرّ في نفسه، فهو يقصّ ذلك عليك، كما قصصناه عليه.

والسلام على من اتبع الهدى.

وكتب في الخامس عشر من ذي الحجة الحرام عام أربعة ومائة وألف[99]

(15 ذي الحجة الحرام 17/1104 غشت 1693)

وبعده طابعه بداخله : خديم المقام العالي بالله، علي بن عبد الله الحمامي، رعاه الله.

ونصّ كتابه أيضا إلى الوزير بونشرطران :

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى وزير عظيم الروم پُنْ شان طري،

السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فقد بلغنا كتابكم، وفهمنا ما تضمنه خطابكم، وما طلبته منا من الوقوف مع الانباشدور سنطولون.

---

99) ص 145 من المجلد الرابع «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

فاعلمْ أنه كيف وصلنا، وحلّ بموضعنا الذي نحن فيه، رفعنا خبره إلى سيدنا المنصور بالله، واستذنّاه عليه، فأذن لنا بقدومه، وكان في ظن ضيفنا أنه ما جاء إلا بالتفويض التام من قبلكم، فلمّا وصل لعلي مقامه واختبره، ما وجد بيده إلاّ الكلام في الأسارى، فتعذّر كلام سيدنا معه، بسبب عدم التفويض.

فلّما انفصل عن مقام سيدنا، راجعناه نحن مرّتين أو ثلاث، فأجابني سيدي بأن قال لي: نحن فوّضنا لك في كل ما تعقده وتبرمه مع الانباشدور إنْ كان بيده تفويض جامع للأمور المهمات العظام، الموصل لقضاء الأغراض كلّها.

ولمّا لم يكن ذلك بيده، تعذّر وجه العقد والحل معه، وها سيدنا المنصور بالله، كتب لسيدكم، واستوفى له الخبر. وحتّى نحن كلّمنا الأنباشدور سَنْطُلُونْ مشافهة وألقينا عليه ذلك، وفهّمناه في جميع الأغراض كلّها، وبيّنا له الأمور على الوفاء والكمال، فبعدما يصل لحضرتكم، ويقصّ عليكم الأمور كلّها، كاتبونا أنتم بما يظهر لكم، ونجيبكم نحن عن جميع أغراضكم، ولا تزال مراسلتنا معكم في كلٍّ ما فيه صلاح الجانبين .

والسلام على من اتبع الهدى.

وكتب في منتصف ذي الحجة الحرام عام أربعة ومائة وألف

(15 ذي الحجة الحرام 17/1104 غشت 1693)

وبعده طابعه بداخله : خديم المقام العالي بالله، علي بن عبد الله الحمامي، رعاه الله (100).

والحاصل أن هذا السفير رجع إلى حكومته بالخيبة كسابقه، صفر اليدين، بخُفَّيْ حُنَيْن، ولم يحصِّل على طائل لتشبّث كل من الطرفين بمبدئهما الأول، وهو هل يكون الفداء رأساً برأس، فرداً أو جماعة، أو بالمال، لأن فرنسا لم تسمح بإطلاق سراح الأسرى المغاربة الذين عندها، خشية أن تتعطّل سفنها القرصانية.

ومن تتبع أخبار هذا السفير في مُذاكراته ومذكّراته وتقاريره ورسائله وتآليفه الذي ألّفه بعد رجوعه من سفارته، وسمّاه : «الحالة الحاضرة بمملكة المغرب»

---

100) ص 150 من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

(Etat Présent de l'Empire du Maroc)، علم أنه كانت له مع السلطان المولى إسماعيل ومن كان مُتَّصلاً به من قواده ورجال دولته مواقف صعبة أثناء المذاكرة والمحاورة، تجلّت صور مشاهدها الحقيقية، في ما كتبه هو عن نفسه وسجّله بقلمه، وفي ما كتبه عنه المؤرخون الفرنسيون في مؤلفاتهم.

ويُفهم من ذلك كلّه أنه لم يُوَفّق في أداء مهمته، وتعصّب لآرائه، حِرْصاً على إظهار شخصيته، وسموّ مكانته، وبذلك ضاعت الغاية المقصودة من سفارته، كما كان من جملة السِّهام التي أصابت غرض سفارة ابن عائشة، فقضت عليها، وأخفق سعيها، وبطل عملها.

هذا، وبعد رجوعه لبلاده كما ذكرنا، بقي حال الأسرى على ما هو عليه من الجانبين، وحصلت فترة في المواصلة بين الدولتين، مدّة ست سنين، ترتّب عليها سفارة عبد الله ابن عائشة التي سنقصّ أخبارها في الصفحات التالية.

المبحث السابع

سفارة الأميرال عبد الله ابن عائشة إلى فرنسا لإثبات السلم وفداء الأسرى(101)

تمهيد

لمّا تأزّمت الحالة بين المغرب وفرنسا بسبب عدم الاتفاق على إثبات السلم وفداء الأسرى، وتعدّدت الحوادث، وخاب السفراء في سفاراتهم، وانقطعت المخابرة والمذاكرة مدة ست سنين، بقيت أعمال القرصنة مستمرة على حالها، إلى أن اصطدم الأميرال عبد الله ابن عائشة مع أسطول الأميرال الفرنسي شاطو رونو (Château-Renault) المتجوّل أمام مرسى العدوتين، وكاد أن يناله منه ما لا تُحمد عقباه، فتلقّى ذلك بعزيمة صادقة وثبات، ورأى من الحكمة المخابرة مع خصمه، وراجت بينهما مذاكرة طويلة، انتهت بعقد هدنة ثمانية أشهر بين المغرب وفرنسا، إلى أن يتمّ عقد الصلح، ويعود الأمن بين الدولتين إلى نصابه، وذلك في

101) – اقتبسنا أخبار هذه السفارة، واقتطفنا ما راج فيها من المذاكرات والمحاورات والمراسلات والأخبار من المجلدات : الرابع والخامس والسادس من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

– ومن الكتاب المسمى : «إسماعيل العظيم، إمبراطور المغرب»، لمؤلفه ديفونطان ماكْسَانْج (Le Grand Ismaël, Empereur du Maroc) par Defantin Maxange

– ومن كتاب «مولاي إسماعيل، إمبراطور المغرب والأميرة دوكونتي»، لأوجِينْ پلاَنْطي. (Eugène Plantet - Moulay Ismaël, Empereur du Maroc et la Princesse de Conti)

– ومن مؤلفات أخرى، راجعناها عند الكتابة، ومزجنا بعضها ببعض، وقدمنا ما ينبغي تقديمه، وأخرنا ما ينبغي تأخيره، واختصرنا ما يقتضي الحال اختصاره، وسكبناه في أسلوب عربي، وترتيب يتفق مع موضوعنا وبحثنا، وحافظنا على الرسائل العربية، فأثبتناها بنصّها، لأنها وثائق تاريخية.

سادس شتنبر سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (06 شتنبر 29/1698 صفر 1110)، واعتبر ابتداؤها من منتصفه، وانتهاؤها منتصف أبريل من السنة التي بعدها.

وحينئذ قرَّر المولى إسماعيل توجيه عبد الله ابن عائشة سفيراً عنه إلى لويس الرابع عشر لإتمام المذاكرة في عقد الصلح النهائي بين الطرفين وفداء الأسرى بين الجانبين.

ولمّا عزم على السفر، أصحبه رسالة شريفة خاطب بها لويس الرابع عشر، تتضمّن إسناد هذه المهمَّة الهامَّة إليه، والتَّفويض التَّام الذي جعله له في المخابرة ومباشرة تقرير المعاهدة النهائية، ونصه :

نص التفويض الإسماعيلي

للسفير عبد الله ابن عائشة :

الحمد لله وحده

ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا معبود إلاّ سواه، لا إلاه إلاّ هو، سبحانه وتعالى عمّا يشركون.

عن أمر عبد الله، المتوكل على الله، المفوض جميع أموره إلى الله، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني :

الطابع الإسماعيلي الشريف.

أيده الله بعزيز نصره، وأمدّه الله بمعونته ويسره، وخلّد في الصالحات شريف ذكره، آمين يارب العالمين.

إلى عظيم الفرنسيس، وطاغية الإفرنج، وصاحب باريز، وكافة مملكة فرنسية، المعظم في جنسه، لويش الرابع عشر من هذا الإسم، الوارث ملك الإفرنج عن آبائه وأسلافه.

السلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، فإنه حيث ورد صاحبك القبطان الذي بالبحر، إلى مرسى سلا أمنها الله، وطلب الكلام مع صاحبنا قبطان البحر الأرضى الأحظى، الرئيس عبد الله ابن عائشة، وأذناه في الكلام معه.

وحين رجع إلينا بما عقده معه، وجّهناه إليكم أنباشدوراً من عندنا، وسفيراً من جنابنا العلي بالله.

وهو، وإن كان معروفاً برياسة البحر، فله لدى مقامنا العلي بالله مزيد عناية وإكرام وأثْرة وحظوة، فاقدروه قدره، وأنزلوه محلّه، وكل ما تعقدونه معه وتبرمونه أنتم وإياه من القوانين الجارية في أمور الأسارى أو غيرهم من عوائد البحر وأموره، فقد فوّضناه له فيه، وأذنا له أن يتكلّم معك به، فإننا مقررون له ذلك، وموكلون له فيه بحول الله وقوّته.

وهذه المراسلة، لا خَفَاءَ انها جارية في العوائد بين الملوك قديماً وحديثاً ومستحسنة، ولها في السنة أصل، وفي الشريعة مأخذ، وخصوصاً أنت مع جنابنا العلي بالله.

هذا، وكُنّا من أجل ذلك نعرف لك بعض الحقّ من كثرة موالاتك لصاحب إصطنبول الذي هو ملك ملوك الإسلام، وله معرفة بقدرنا، ومحبة في جنابنا، ونحن نحبّه ونوقّره، ونرى له من الحق الواجب علينا ما لم نره لغيره، لخدمته للحرمين الشريفين، فاللّه، اللّه، اللّه في جانبه وموالاته بأنواع الخير كُلِّه على الدَّوام.

وصاحبنا القبطان ابن عائشة لا يأتينا عنك إلا راضياً مرضياً في جميع أحواله.

وفي ثالث وعشري ربيع النبوي المفضل، عام عشرة ومائة وألف. اهـ.

(23 ربيع النبوي المفضل 29/1110 شتنبر 1698)

ثم إن عبد الله ابن عائشة كتب رسالة في التاريخ المذكور إلى لويس الرابع عشر أيضا، أعلمه فيها بالمهمّة التي أُسندت إليه، وأنه مأمور بإتمام المذاكرة في المهادنة التي سبقت بينه وبين رئيس الأسطول الفرنسي، الذي كان متجولاً أمام مرسى العدوتين.

وأخبره أيضاً بأنّ جلالة السلطان حمّله رسالة تسميته سفيراً مفوّضاً لديه، وسيسلمها له عند وصوله ومقابلته، ونصها :

نص رسالة عبد الله ابن عائشة

إلى لويس الرابع عشر

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم

الحمد لله الذي أشرقت بنوره الظلمات، وخضعت لعظمته ملوك الأرضين والسماوات، فاستوى على العرش بقدرته، لا بالجسم القديم ولا بالصفات، نحمده حمداً يكشف عنّا الكربات، ونشكره شكراً نَسْتزيد به البركات، آمين.

أما بعد، أيها الملك المعظم، الشهير الأفخم، فإن ضيفنا المنصور بالله، صاحب الدولة السلطانية، والنسبة النبوية الهاشمية، ملك المغربين والصحرتين، من سوس الأقصى، إلى منتهى الغرب الذي لا يعد ولا يحصى، وصحراء الجريد، وبعض الأقاليم في بلاد العبيد، السلطان الأسعد، أمبراطور مراكش/مولانا إسماعيل الشريف نصره الله آمين.

لمّا جمع الله له كلمة الإسلام، وبسط يده على جميع الأنام، الخاصٍّ منهم والعامّ، وجعلني بثغر سلا - أمنه الله - واقفاً في خدمته، وأسند لي أمر البحر وآلاته، فإذا بسفنكم القرصانية جاءت لمرسى بلادنا، وتكلّمتُ معهم، حتى وقف الأمر بيني وبينهم، في عقد المهادنة وطفْي نار الشر والمحاربة ، فأخبرت بذلك ضيفنا المنصور بالله، فأذن لي به، وفوّض لي الأمر في إكماله، وبعثني أنباشدوراً بكتابه، وما سطرّ فيه من حسن ألفاظه وخطابه، للسلطان بن السلطان، عظيم الروم، وملك إفرنْسية، عن آبائه وأجداده، الأمبراطور لويش الرابع عشر من هذا الإسم، وحدّثني ضيفي بما نتكلّم به إليه، فيما يصلح بين الجانبين، ممّا يجب شرعاً وطبعا.

وأُحمّدك في السلامة التي انفصلت (عليها) مع أعدائك الحاسدين لك على حسن مرادك، فانقلبوا خائبين، والحمد لله رب العالمين.

انتهى، والله على ما نقول وكيل.

الإمضاء :

عبد الله ابن عائشة وفّقه الله.

ثم إن القنصل الفرنسي إسطيل (Estelle) الذي كان بالرباط، لمّا بلغه تعيينه سفيراً ببلاده، رفع به تقريراً إلى وزيره بونشرطران (Pontchartrain) يحذّره فيه منه ويقول له : إنه شرّير وعدوّ لفرنسا إلى الموت، وإنه استغنى من القرصنة، واحتجن أموالاً وعقاراً كثيرا، فتقوى بذلك، وصار تُخشى شوكته، وتُتّقى في البحر جولته، وملك المغرب يُراعيه، لأنه قرصان كبير شهير، ويحسب الفرنسيون له ألف حساب، ولذلك اختاره سلطانه لهذه السفارة، لإثبات السلم وفداء الأسرى على الوجه الذي يُحبّه، والشرط الذي اشترطه.

والحقيقة أن عبد الله ابن عائشة كان رجلاً ممتازاً بذكائه وأفكاره الدقيقة، ومعرفته بالأحوال الأوربية في ذلك العهد، لمخالطته الأوربيين واتصاله بهم، وإقامته ببلادهم، لمّا كان أسيراً عندهم، كما سياتي مفصّلا في أخباره في ترجمته بصفته أميرالاً ورئيساً قرصانياً بالعدوتين.

ومع ذلك فإنه كان يعلم علم يقين صعوبة مهمته، وما يعقد من الآمال على سفارته، وأنه إذا لم يُوَفق أو ينجح فيها، إذا كان التفريط منه، ماذا سيكون مآله مع سلطانه الذي لا يتجاوز عن ذنب، ولا يقيل عثره، ولا يقبل عُذرا.

ويعلم أيضاً مطالب فرنسا وأطماعها، وأطماع سائر الدول المسيحية في المغرب وقرصنته المنتشرة في البحرين، الأبيض المتوسط والأطلانطيقي، وملاجئها التي على سواحلهما كتطوان، والعرائش، والمعمورة، وسلا، ورباط الفتح.

وسنرى ما لقيه في سفارته هذه من الفرنسيين من العراقيل التي أدّت إلى عدم نجاحها.

أعضاء سفارة عبد الله ابن عائشة وما استصحبه من الزاد والأمتعة.

كانت سفارة عبد الله ابن عائشة تتركب من ستة عشر شخصا، من بينهم نائبه والقائم مقامه، القبطان البحري، أبو عبد الله التغيري، وكاتب السفارة أبو العباس أحمد بن عيسى سوسان ؛ قالوا : إنهما كانا من الرباط والباقون من الخَدَمَة والأعوان، وكلهم من بحّارة العدوتين، وانضاف إليهم أحد التجار الفرنسيين الذين كانوا بالرباط، المسمى فابر (Fabre)، بصفة ترجمان، لأنه كان يعرف العربية.

وأصحبه السلطان هدية إلى الملك لويس الرابع عشر، سياتي بيانها عند الكلام على تقديمها إليه.

واستصحب هو معه حوائج وأمتعة كثيرة من الملابس وغيرها، له ولأصحابه وأعوانه الذين معه، وقدراً كبيراً من المؤن والأطعمة المغربية التي لا توجد بفرنسا، منها سبعمائة وخمسين كيلو من التمر الجيد، ومثلها من الكسكس، الطعام المفضل عند المغاربة، وغير ذلك.

مبارحة ابن عائشة المغرب

لمّا أكمل ابن عائشة عُدّته، وأخذ أُهْبته، بارح المغرب ومن معه من مرسى العدوتين، على مَتْن بارجة حربية فرنسية جاءت خِصِّيصاً لحمله إلى مرسى بريسط (Brest) الفرنسية، إسمها فافوري (Favori) من أسطول شاطو رونو (Château-Renaud)، وبقي بالرباط أحد رؤساء هذا الأسطول، المسمى، دو لاجاي (De la Jaille)، رهينة حتى يرجع بسلامة.

وكان وصوله إليها في الحادي عشر من شهر نونبر سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (11 نونبر 07/1698 جمادى الأولى 1110).

مقام ابن عائشة بمرسى بريسط (Brest)

لمّا وصل ابن عائشة إلى بْريسط، استُقبل في احتفال كبير، كما يُستقبل السُّفراء.

وكان وقت نزوله من البارجة الحربية التي جاء فيها، يحيط به نائبه والقائم مقامه، القبطان البحري، أبو عبد الله التغيري، وكاتبه أبو العباس أحمد سوسان، يحملان فوق كتفيهما سيوفاً في أغمادها، ووراءه خادمان حاملان مكحلتين كبيرتين في غشاء من جلد أحمر، ومن وراءه خادم حامل علماً طويلاً أبيض، وهو علم أميرال البحر المغربي في ذلك العهد، وبعدهم الخدمة والأعوان.

ونزل بدار ناظر البحرية ببريسط، وأقاموا على بابها خمسين حارسا.

ونبّه الناظر المذكور من قبل أحد رجال الحكومة بباريس أن يكون على بال حتى لا يُفسد أو يُتلف أصحاب ابن عائشة الأثاث والرياش الذي بالدار المذكورة.

وعيّنت الحكومة من يقوم بالنفقة عليه وعلى من معه مدة إقامته بفرنسا، وأوعزت إليه أن يقتصد غاية الاقتصاد، وأن تكون النفقة لا على الصِّفة التي يعيش عليها ابن عائشة ورجاله ببلده، بحيث لا يُمنحون أكثر من الضروري اللازم.

فأجاب المكلف بالصائر بأنه لا بدّ أن تكون النفقة على رجال السفارة كثيرة كبيرة لغلاء المعيشة وارتفاع الأسعار، حتى إنّ حزمة الحطب مثلاً التي كانت تساوي قدراً معلوماً سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (1092/1681)، يعني في عهد سفارة أبي عبد الله، الحاج محمد تميم التطواني، تضاعف ثمنها عشر مرات سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (1110/1699)، وهكذا غيْرها من الحاجيات كلّها، وزاد أن الحوائج والأمتعة التي معه يستدعي نقلها إلى العاصمة نفقة كبيرة، ولذلك لمّا توجّه إليها، حملوها في زورق ذي قلوع، أقلع من مرسى الهافر (Le Havre)، وتبع نهر السِّين (La Seine) حتى وصل إلى باريس.

وأظهر أهل بريسط اعتباراً وفرحاً كبيراً بهذا السياسي الإفريقي الذي حلّ بساحتهم، ونزل بين أظهرهم.

وعملاً بسياسة الدعاية وإظهار الفخفخة والقوة لهذا الشخص القرصاني السلاوي الرباطي الشهير الذي جاء للمذاكرة مع أولي الأمر من رجال حكومتهم، نظموا له استعراضاً بحرياً ضخماً، وجمعوا ما قدروا عليه من أساطيلهم القرصانية، واختاروا القوية والمسلحة منها أكمل تسليح، فمرّت أمامه، وزار بعضها، وتأمل ما فيها من عدّة وعدد.

وتبارى أعيان وعِليّة القوم والموظفون في إقامة الحفلات والمآدب على شرفه.

وفي بعض الاستقبالات التي أقامها شيوخ البلد، أجاب عن خطبهم التي حيّوه بها بقوله:

«إن المحبّة والمعاهدة التي جئت لأجلها، وربط أواصرها، بين المولى إسماعيل ولويز الرابع عشر أرجو أن تكون لها نتائج عظيمة، أهمُّها وأعظمها وأجلّها كسر السلاسل والأغلال التي لا تُطاق في أعناق أولئك الأسرى المعتقلين المعذّبين من الدولتين، وتنفيس الخناق عنهم، وإراحتهم من الشقاء بالإنعام عليهم بالحرية، وإطلاق سراحهم.

ولهذا، أرجوكم أيها الحاضرون أن تضمُّوا أصواتكم إلى صوتي، وآمالكم إلى آمالي، في نجاح عملي، ليكون الفرح مزدوجاً بين الأمتين، والسلم ثابتاً بين الدولتين».

وطالت مدّة إقامته ببريسط شهرين كاملين للبحث في مهمّته، والتّحقيق في نوع التفويض الذي جاء به من قبل سلطانه.

ولا يخفى أن معاهدة سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (1093/1682) التي دبّرها، وأحكم فصولها وموادّها السفير الحاج محمد تميم التطواني، وترتّب عليها سفارة سانت آمان وسفارة دو سانت أولون إلى المغرب، لم يصادق عليها المولى إسماعيل، وبقيت حبراً على ورق، ولذلك توقّف لويس الرابع عشر في استقبال ابن عائشة والمخابرة معه، حتى يعلم مقدار التفويض الذي عنده.

وزيادة على ذلك، فقد كان من عادته أنه لا يستقبل إلاّ القليل من السفراء الواردين عليه من إفريقيا، تعاظُماً عليهم.

ولأجل هذا، وجّهت له الحكومة الفرنسية بباريس نواباً من قبلها إلى بريسط، يتذاكرون معه، ويحاولون استكناه حقيقة مأموريته، ومقدار التفويض الذي عنده، فأصرّ على عدم التصريح بشيء مما ذاكروه فيه، حتى صرّح بعض الوزراء بأنه إذا لم يبين ماموريته، يردّ إلى بلاده بدون هدية ولا اعتبار، فاحتجّ بأن العادة في بلاده، وعند الملوك هي أن السفراء لا يتخابرون مع أحد، حتى يستقبلهم ملك البلاد، ويُسلّمون له أوراق اعتمادهم.

وحينئذ، صدرت الأوامر بقدومه إلى باريس.

رحلته من بريسط إلى باريس

لمّا وافقت الحكومة الفرنسية على قدومه إلى باريس، بارح بريسط هو وأصحابه في الثاني عشر من يناير سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (12 يناير 10/1699 رجب 1110).

وكانت أيام رحلته في الطريق كلها أفراحاً ونزهاً متوالية متجددة بتجدد الأزمنة والأمكنة، كمقدّمة لزيارة ڤرساي (Versailles)، دار الملك، وباريس، عاصمة المملكة.

وصحبه في رحلته هذه موظفان خاصّان من رياسة المرسى، وحاكم المدينة للقيام بخدمته ومؤنته، فكانا يتفقان مع أصحاب المطاعم ومحلات النزول في الطريق، على أنواع الأطعمة التي ستقدّم له، وأن تكون مناسبة للعوائد الإسلامية، وأن يبالغوا في احترام السفير ورجال سفارته. فكان سكّان القرى والمدن يتجمهرون في الطريق لرؤيتهم، والموظفون ورجال الشرطة والمحافظون على الأمن يُسهّلون لهم المرور، ويفتحون أبواب المدن التي سيمرون منها ويخترقونها في وجهتهم، ويستقبلهم السكان في المسالح والحصون والميادين العسكرية بإطلاق المدافع، وأصوات الطّنابير، وكذا بغيرها من المدن الشمالية الفرنيسة كرين (Rennes)، وتور (Tours)، وأمبواز (Amboise)، وسومير (Saumur)، وأنجير (Angers)، وغيرها.

وفي جميعها، أدخلوه متاحفها المهمة، وأطلعوه على ما بها من التُّحف والنفائس الغالية النادرة الوجود، قبل أن يرى أنفسَها وأنذَرها بالقصور والمنتزهات الملكية.

وفي جو هذه الاحتفالات الرسمية، كانت تُقدم له الهدايا والتذاكير وأنواع الحلويات والمُصبِّرات. وكان دخولهم لمدينة نانط (Nantes) في مهرجان كبير.

وفيها أجاب عن الخطبة التي حيّاه بها رئيس بلديتها، بأنه يتشرف بكونه جاء لفرنسا في مهمّة هامّة، ألا وهي الإنعام على ذلك الجمِّ الغفير من الأسرى المعذّبين الذين يئنّون ممّا يقاسونه من ألم الأسر والاستعباد والخدمة الشاقّة.

وطلب من الحاضرين المحتفلين به إعانته على قضاء مهمته، لِمَا فيها من الخير والمصلحة العامّة للأمتين المغربية والفرنسية...

وفي مدينة أورليان (Orléans) قدّم له قائم المقام العسكري بها التحية العسكرية.

ولمّا كان بمدينة أمبواز (Amboise) خرج لزيارة سانت مارتان لوبو Saint-Martin Le Beau، ووقف على الموضع الذي وقعت به المعركة المشهورة في التاريخ بمعركة بواتيي (Poitiers)، وهو المعروف ببلاط الشهداء عند المؤرخين العرب، بين شارل مرتيل (Charles Martel) وعبد الرحمان الغافقي، سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة (732/1114). ومحّص فيها الله المسلمين، فصلّى فيه، وخشع وتضرّع، وحثا حثيات من ترابه، وتبرّك به قائلا : "هذا تراب داسته أرجل الشهداء المسلمين وخيولهم، وامتزجت به دماءهم."

وأذكرتني هذه الحكاية أنّنا مررنا في إحدى سياحاتنا بفرنسا في صيف سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وألف (1340/1922) بهذا الموضع، فوقفنا فيه، واستشعرنا عظمة الإسلام والمسلمين، وامتداد فتوحاتهم ونفوذهم في أقطار العالم، القاصية والدانية، لمّا كان الإيمان إيمانا، والدين دينا، والإسلام إسلاما، والأيام مقبلة، والدنيا خادمة، فترحّمنا على الشهداء الذين هم ﴿أحياء عند ربّهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾.

وصوله إلى باريس

وبعد ثمانية وعشرين يوماً من مبارحته لبريسط، وصل إلى باريس، فتجمهر العامّة لرؤيته، ورؤية أصحابه، والتعجّب منهم، حتى اضطرّ كاتب الدولة في الخارجية إلى إصدار الأوامر الصّارمة بالتزام السُّكون، والاحترام.

وأنزلته الحكومة بفندق السفراء، بعدما نزعوا ما كان بجدرات حجره التي خصّصت للسفير وحاشيته من صور الرجال والحيوانات بسائر أنواعها، قالوا احتراماً للديانة الإسلامية.

وزُيِّنت قاعة الاستقبال بالمقاعد والأرائك التركية القريبة من الهيأة والعوائد المغربية.

وقد كان هذا الفندق معدًّا لنزول السفراء منذ سنة إحدى وعشرين وستمائة وألف (1031/1621)، وبُنيت في محلّه الآن قلعة عسكرية يحتلّها الحرس الجمهوري بزقاق طورنون (Tournon) رقم 10، قرب قصر لوكسامبورگ (Luxembourg).

ووقف على بابه أربعة من أفراد حرس الملك السويسريين (Les gardes Suisses) المختارين، بهيأتهم وملابسهم العسكرية المؤثرة بشكلها ونوعها.

وزاره مرحبًا به رئيس بلدية باريس، وأعضاء مجلسه، وخطب أمامه، وقدّم له هدية القدوم باسم البلدية، وكذلك حكّام المحاكم القانونية، ووكلاء الدولة.

ومن الغد، ردّ لهم الزيارة، وبعد ذلك تواردت عليه الاستدعاءات للمحافل والمجتمعات.

واحتجب عن الخروج إلى الخارج، والجولان بالمدينة إلى يوم الاحتفال باستقبال الملك له.

وكان يصرف أيّامه في العبادة والصّلاة والصّيام والابتهال إلى الله تعالى أن يؤيده، ويُسدِّد خطاه، ويوفّقه للنجاح في مهمته الصعبة.

استقبال لويس الرابع عشر له

بعد الاستراحة من تعب السفر بضعة أيام، عيّن لويس الرابع عشر لاستقباله الساعة التاسعة من صباح يوم الإثنين، سادس عشر فبراير، سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (16 فبراير 15/1699 شعبان 1110) بعدما درس مع رجال تشريفاته كيفية هذا الاستقبال، وما سيراعى فيه من التّقديم والتّأخير والخُطب التي ستُلقى فيه.

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم الموعود، توجّه رئيس التشريفات الملكية، مصحوباً بعربة الملك، وعربة دوقة بوركوني (La duchesse de Bourgogne) إلى فندق السفراء الذي كان نازلاً به، فتلقّاه خدمه، وأدخلوه عليه حجرته الخاصّة به، فاستقبله، وخرج معه لاستقبال الملك.

فركب عربته، وركب نائبه وكاتبه عربة دوقة بوركوني، وركبت حاشيته الخيول المسرجة، وصحبهم الحرس ورجال الشرطة، وشقّ الموكب على هذه الهيأة باريس إلى أن وصل إلى قصر فرساي، فحيّته فرقة من الحرس الملكي، وصدر الأمر لسائر خدامه وأتباعه بالدخول معه إلى القصر، خلافاً للعادة التي كانت جارية قبل ذلك.

واصطفّ بباب القصر وداخله الحرس السويسري (Les Gardes Suisses) الخاص بالملك بدون سلاح، ولكنه في أحسن زي وأكمل شارة، وعلى رأسهم القلانس المخملة.

ثم ولج السفير القصر، يتقدّمه رجال التشريفات الملكية، والترجمان، وهو بعدهم، تكتنفه حاشيته، ورجال سفارته وخدمه، من بينهم ثمانية يحملون فوق رؤوسهم الهدية التي وجّه المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر، وهي :

– سرج مغربي أحمر مزخرف، ومعه لجامه.

– خمس رزم ملفوفة، بها أكسية صوفية من نسج المغرب.

– فراء من جلود الأسد والنمور. و 48 من الجلد المغربي الأحمر.

قالوا : ويبلغ ثمن الجميع 600 ليرة.

وكان يقول : "هذه الهدية رمزية". وفيها دلالة على الاعتبار الذي يكّنه المُهْدي إلى المُهْدى إليه.

وكان الملك جالساً على عرشه، وهو عبارة عن دكّة مغطّاة بزربية فارسية موشّاة بالذهب.

وفوقها كرسي الملك المغشى بالخمائل القرمزية، وبإزائه أعيان دولته من الدوقات والأشراف.

ولمّا قابله ابن عائشة، حيّاه بوضع يده على صدره، وإمالة رأسه إلى جهة كتفه الأيمن ثلاث مرات، وقال : "هذه عادتنا في تحية ملوكنا"، واقترب منه، وقدّم له الرسالة التي وجّهها له المولى إسماعيل، فتناولها من يده، وردّ على تحيته، بنزع قبّعته لمّا دنى منه، ثم أعادها إلى رأسه.

وشرع ابن عائشة حينئذ في إلقاء خطابه بالعربية بكيفية نالت إعجاب جميع الحاضرين، وترجمه الترجمان إلى الفرنسية.

وجاء في هذا الخطاب المشتمل على بيان مقاصد سفارته ما ملخّصه :

إن صاحب الجلالة، مولاي إسماعيل، لمّا أحيا وجدد معالم الدين الإسلامي في الأقطار الإسلامية التي تحت نفوذه وسلطانه، أراد أن يُتوّج عمله هذا وعظمته باستجلاب مودة أكبر وأقوى إمبراطور في أوربا.

وكان ولاّني – أيده الله – منصب النظر في بحريته وأساطيله وتسييرها من مرسى سلا (يعني ورباط الفتح).

وقد أسعدني الحظ، وأنا قائم بهذه الوظيفة المهمة، أنه لمّا وردت بعض القطع من أسطولكم الحربي لهذه المرسى، زرتها، واغتنمت الفرصة بوجودي فيها، بالتعبير لبحّارتها عن الاعتبار والتقدير الذي أكنّه لجلالتكم، وتذاكرت مع رئيسها في عقد هدنة سلمية موقّتة، واتفقنا على عرضها على جلالة مولانا إسماعيل وجلالتكم، لتقع المصادقة عليها، ويكون السلم دائماً مستقراً مستمراً. وأذن لي – نصره الله – في ذلك، وأعطاني من التفويض ما يُخوّلني حق الإمضاء عليها، بعد وضع آخر جرّة قلم في فصولها ونصوصها، ولذلك وجّهني سفيراً لحضرتكم.

ثم تخلّص إلى تقرير عهود المحبة والسلم الدائمين بين العاهلين العظيمين، واتّصال المواصلة بين الدولتين، والمخابرة في فداء الأسرى ومبادلتهم بين الطرفين، فقال :

"إن أعظم شيء يكون أساساً لهذه المحبة والمودة، وضماناً لاستمرار هذه المواصلة، هو أن الملك الذي بعد انتصاراته المتوالية، في حروبه الطويلة في أوربا، أعاد السكينة والاطمئنان لأمَمٍ ودول متعددة، في استطاعته أن يمنّ على أولئك الأسرى الضِّعاف المعذّبين الذين يرزحون تحت عبء السلاسل والأغلال، وينعم عليهم بالحرية وإطلاق السّراح، ويشملهم ما شمل غيرهم من الرأفة والعطف والحنان، ويعودوا فرحين جذلين إلى أسرهم وأولادهم وبلادهم..."

فأجابه لويس الرابع عشر بخطاب قصير مضمنه :

إنه مسرور برؤيته، وسيعيّن نُواباً عنه يسمعون مطالبه ويدرسونها، وسيعمل غاية مجهوده فيما يُدخل السرور عليه.

وبعد انتهاء حفلة الاستقبال، زار السفير بعض الأمراء والوزراء ورجال الدولة في مكاتب رياستهم، وتعرّف بهم وتحادث مع كل واحد منهم.

وخصّ وزير البحر بمزيد انبساط في الحديث، وقال له :

إن سُمْعَتَهُ وصلت إلى المغرب، وإنه ربُّما يكون عرفه قبل الاجتماع به لاتحاد خطّتيهما ووظيفتيهما.

وبعد انتهاء حفلة الاستقبال وزيارة الأمراء والوزراء والرؤساء، رجع إلى محل نزوله بفندق السفراء بباريس في عربة الملك على الهيأة التي جاء عليها.

المخابرة في فداء الأسرى

بعد هذا الاقتبال وهذه الزيارات المتبادلة أصدر لويس الرابع عشر أوامره بتشكيل لجنة لدرس مسألة الأسرى وما يتعلّق بها من إقرار السلم والصلح مع السفير المغربي.

فاجتمعت هذه اللجنة أياماً عديدة متوالية، ودرست مسائل الأسرى من المغاربة والفرنسيين، وطالت المداولة والمخابرة، ولم تسفر عن نتيجة يمكن الاتفاق عليها، لأنّ السفير - عملاً بأوامر ملكه، ومصلحة قومه - تشبّث بمطالبه، وأعظمها أن يكون الفداء رأساً برأس، وما زاد على ذلك يُعوّض بقدر من المال.

وكانت بعض المجالس ترتفع فيها الأصوات عند المحاورة، ويشتدّ اللَّغَط والصَّخَب إلى حدّ السّب عند شدّة الغضب، خصوصاً مع العضو سانت أولون الذي كان سفيراً بالمغرب، وكان يكيد لابن عائشة كيدا، ويُضمر له عداوة.

وكان ابن عائشة مع ما يُظهره من اللّطف والبشاشة والمجاملة في مجالسه، تتجلّى فيه الصرامة والجدّ والثّبات في جداله المتعلّق بمسألة الأسرى، ولا يقبل فيها إلاّ ولا ذِمّة.

وحيث كان عدد الأسرى الفرنسيين بالمغرب يفوق كثيراً عدد الأسرى المغاربة بفرنسا، فقد اشتطّ الفرنسيون في مخابرتهم، ولم يقبلوا الفداء المعروض عليهم رأساً برأس مع زيادة المال، لِمَا يلحقهم في ذلك من الخسارة المالية، وتعطيل سفنهم القرصانية من الجذّافين فيها.

ثم عرضوا على السفير أن يُسلّموا له أسيرين مسلمين من الضّعفاء والمرضى والزّمنى والشيوخ الذين لم تَبْقَ فيهم فائدة، وأصبحوا كَلاً على ميزانية الدولة في مقابلة أسير واحد فرنسي، محافظة على الشبّان الأقوياء المستعملين في الأوراش والسفن.

فلم يقبل ابن عائشة هذا العرض، واحتجّ بأنّ إصبانيا عوّضت أسراها بأربعة مسلمين في مقابلة أسير واحد إصباني.

وهولاندا دفعت عن كل واحد من أسراها أربعمائة إيكوس (Ecus)، والإيكوس كان يساوي ثلاث ليفرات.

وأخيرا تَشَبَّثَ كل من الطرفين برأيه ومطالبه، وبقيت مسألة الصُّلح والسِّلم معلّقة.

وفي أثناء هذه السفارة، وقبلها بكثير، كان الأسرى الأوربيون بالمغرب لا يَفْتُرون عن توجيه الرسائل والرّسل من طرفهم لحكوماتهم، يطلبون فيها منها السّعي في فدائهم، وبذل كل رخيص وغال في إنقاذهم، وبعث الإعانات إليهم، ريثما يتم ذلك.

ومن جملتها ما جاء في رسالة كتبها الأسرى الفرنسيون بمكناس لحكومتهم بباريس، بتاريخ ثاني عشر فبراير سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (12 فبراير 1691/13 جمادى الأولى 1102) أن عدد الأسرى الأوربيين بمكناس يبلغ أربعاً وستين وثمانمائة وألفي أسير (2864)، وأن الإعانة التي قدّمها القنصل لهم، وقدرها ثلاثة آلاف ليفرة لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

أمّا الأسرى المغاربة بفرنسا، فقد كانوا في حالة أشقى، وعذاب أدوم وأبقى.

هذا، وقد كان سانت أولون، السفير السابق، وقنصل الرباط إسطيل - الذي تقدّمت أخباره - من أعضاء اللجنة، يتتبّعان حركات ابن عائشة مدّة إقامته بفرنسا ويتجسّسان عليه، ويحصيان أنفاسه، وينشران الدعاية في المقامات الرّسمية والمجالس العامة ضدّه سراً وجهرا. وقبل وصوله إلى باريس، رفعا التقارير الضافية إلى الحكومة بأنه عدو من أعداء فرنسا، تُخشى عواقب الركون إليه والعمل بما يُدّبره ويُشير به.

ولهذا، كانت الحكومة تراقبه سرّيا أشدّ المراقبة، وتحجز مكاتبه الصادرة منه، والواردة إليه من المغرب، وتطالعها وتترجمها قبل أن تصل إليه أو إلى الموجّه منه إليهم.

وأصدر الوزير بونشرطران (Pontchartrain) أوامره الصّارمة إلى الأسطول القرصاني الذي كان مرابطاً بمرسى بريسط بأن لا يأذن لأحد من الأسرى المغاربة الجذّافين في الاتصال بابن عائشة أو الاقتراب منه، فضلاً عن الاجتماع به، وإنْ تهاونوا في هذا الأمر فإنهم يعتبرون مجرمين ويستحقون العقوبة.

وعليه، فليس بغريب أن لا يتمّ اتّفاق بين اللجنة والسفراء في أهمّ المسائل التي جاء لأجلها، وهي مسألة الأسرى، وسنرى ما ستؤول إليه بعد هذا.

مُقام ابن عائشة بباريس ومحافظته على شعائر دينه

كان ابن عائشة مدّة إقامته بباريس، يتظاهر بالّدين، والتّمسك بحبله المتين، ويُعلن شعائره للباريسيين، في كلّ وقت وحين.

ومن ذلك أنّه استُدعي مرة لمأدبة غداء بقصر ڤرساي، فحضر، وجلس على المائدة، واعتذر عن الأكل، وقال : إنه شهر رمضان يُحرّم عليه الأكل فيه نهارا، وهو صائم.

فتعجّب رجال الدولة وحاشية بساط الملك الذين كانوا رقيقي الديانة من تمسّكه بدينه، ومحافظته على أوامره ونواهيه، والقيام بتكاليفه حتى في سفره، وإن كلّفته مشقة عظيمة.

واضطرّ المرافق له من رجال التشريفات الملكية، أن يأخذ شيئاً من الغذاء ويحمله معه في العربة.

ولمّا غربت الشمس، وهم في الطريق من ڤرساي إلى باريس، قدّمه له فتناول منه شيئاً كمُقدّمة لإفطاره في محلّ نزوله.

وصادف يوم الثامن والعشرين من مارس سنة تسع وتسعين وستمائة وألف ليلة السابع والعشرين من رمضان عام ألف ومائة وعشرة، (28 مارس 27/1699 رمضان 1110) وهي ليلة القدر، فأحياها ابن عائشة من محلّ نزوله مع أصحابه بالتلاوة والذكر وصلاة التراويح حتى مطلع الفجر.

ومن ديانته ما حدّث به البارون دو بروطوي (Le Baron de Breteuil) – وكان بمنزلة رئيس التشريفات لدى لويس الرابع عشر – أنّه لم ير رجلاً مثله تقشّفاً وتمكّناً بدينه، وأنّه لمّا رافقه من خان السفراء الذي كان نازلاً به إلى ڤرساي، بقصد مقابلة لويس الرابع عشر، كان لا يتكلّم إلاّ قليلا، وسُبحته في يده، ولم يفتر لسانه عن الذكر فيها طول الطريق.

ومرض مرّة أثناء إقامته بباريس، فجاؤوه بطبيب، وأمره باستعمال دواء وصفه له، فامتنع من استعماله احتياطاً لدينه، وقال : «إذا تزايد مرضي، فأضجعوني على التراب لأن أكون قريباً من المادة التي خُلقت منها، وسأعود إليها».

وهو ما يُشير له ابن الخطيب بقوله :

رَجَعَ التُّرَابُ إلَى التُّرابِ كَمَا اقْتَضَتْ … فِي كُلِّ خَلْقٍ حِكْمَةُ الْخَلاَّقِ

وقد تقدّمت حكايته لمّا مرّ ببلاط الشهداء، أثناء سفره من بريسط إلى باريس، واعتقاده فيه.

ولمّا كان مقيماً بباريس، أظهر حرصاً شديداً على البحث والوقوف على الرسالة الشريفة التي خاطب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هرقل ملك الروم، عملاً بما أوصاه به السلطان المولى إسماعيل رحمه الله، فبُحث عنها في خزائن الآثار الدينية الملكية، فلم يُعثر لها على أثر، وقال :

«وددت لو وُجدت، لقبّلتها وتبرّكت بها».

زياراته لمعاهد باريس ومتاحفها ونوازره فيها

طالت إقامة ابن عائشة بباريس نحو أربعة أشهر، زار أثناءها متاحفها ومعاهدها ومعابدها،

– كسان دونيس (Saint-Denis) ومدافن الملوك بها وخزائن كنوزها وشبابكها الزجاجية (Les vitraux) الگوتية، وتعجّب منها، وتلقّاه رُهبانها، وأسمعوه أرغونها، احتفاءاً به، وتنويهاً بقدره.

– ونوطر دام (Notre Dame)، وأبراج أجراسها.

– ومكتبة الكُتُب الملكية وما فيها من المخطوطات العربية، وهي اليوم الخزانة الوطنية.

– والمطبعة الملكية حيث كُتبت في الحين كلمات عربية، صُهرت أحرُفها أمامه.

– والأنڤاليد (Les Invalides)، فأُعجب به غاية وطلب من وزير الحربية السيد دوباربيزيو (Mr de Barbisieux) أن يُمكّنه من تصميم هذا الصرح العظيم، ففعل.

– والمرصد الفلكي (L'Observatoire)، فألفت نظره جداً، وتمنى أن تكون المواصلة بينه وبين علماء الهيأة بفاس، فسلّم له رئيسه كتاباً منه إليهم.

– وحضر في احتفالات القصر الملكي ومجالس الدولة مراراً عديدة، وكان له فيها ذكر وامتياز.

– وتردّد على مسرح الموسيقى، والروايات التمثيلية بالأوبيرا (L'Opera).

– وميدان مسابقة الخيل ، فراقه جدّاً.

– ومعمل صنع المرايا البلّوْرية، وكان فيه إذ ذاك نحو ثمانمائة عامل بضواحي سانت أنطوان (Saint-Antoine)، واتفق مع رئيسه على ترويج تجارة مصنوعاته من المرايا بالمغرب، وحقّق له أنها تروج فيه جداً، وأوصاه على مرايا له ولأخيه الرئيس عبد الرحمان.

– وزار أيضا قصر سان جيرمان (Saint-Germain)، وفيه استقبله ملك إنجلترا المخلوع، جاك الثاني، كما سياتي.

– وزار معمل الزرابي الگوبلين (Les Gobelins)، فراقه جداً، وأوصى رئيسه على صنع زربية خاصّة له.

– كما زار دير ڤال دو گراس (Val de Grace).

– وقصر مارلي (Marly) و آلاته المائية، التي كانت من أعاجيب ذلك العصر، فاستغربها غاية الاستغراب.

وقد صدرت منه أثناء هذه الزيارات والحفلات المتعاقبة المتنوّعة مقالات ونكت وأجوبة مسكتة، حُفظت عنه، وتناقلتها الجرائد والصحف في ذلك العهد، وتحدّث المتحدّثون بها وعنها في الأندية العامّة، والمجالس الخاصّة دلالة على حُسن ذوقه، واستحضار فكره، ورقّة طبعه.

– ومن ذلك أنه بلغه – وهو مقيم ببريسط – أن بعض الناس بباريس ذكروه بسوء فقال:

«عندما تُشرق الشمس، تمسك الضّفادع عن النقيق وتختبئ».

– ولمّا سُئل عن موجب تعدُّد الزوجات عند المغاربة قال :

«إن الرجل يتزوّج أربعا ،مثلا، ليُحصّل على الأخلاق واللّطف والتودّد والتحبّب والمزايا المجتمعة في الواحدة من السيدات الفرنسيات».

– وسأله أحد رجال البلاط الملكي أن يُشرّفه بمحبّته، فأجابه بأن الذي يتمتّع بمحبّة الملك هو الذي يمنح حمايته لمن يُوجّه له طلب صغير كهذا.

– وكان مرّة في حفلة رقص عمومية أُقيمت على شرفه، فشكى إليه أحد الجالسين بجانبه كثرة النساء والازدحام فيها، فقال له :

«الملائكة لا يتأفّفون من الحور العين في الجنة».

– وكان مرّة أخرى في مجلس أنس، فسألته إحدى السيدات الجميلات وهي مدام (Madame) الأميرة البلاتينية، شارلوط إليزابيت دو باڤيير (La Princesse Palatine, Charlotte) (Elisabeth de Bavière) الزوجة الثانية «لموسيو» (Monsieur) أخ الملك، سألته هل هو مجبول على حبّ الجنس اللطيف، وعن مقدار تأثير الحبّ فيه فقال لها : لعلّك أردت الاطلاع على سري، وإليك الجواب :

لو أن شهاباً من لهيب حبّي للجنس اللّطيف أصاب جبلاً من الصخر لهدّه وفتّته كما يُفتّت الماء الحصى، ولعلّه أخذ هذا الجواب من قول الشاعر :

وَلَوْ أَنَّ مَـا بِي بِالْجِبَـالِ لَهُـدِّمَتْ وَلَوْ أَنَّ مَـا بِي بِالْحَـديدِ لَذَابَا

وكان بهذا المجلس شاب من الأمراء، فأسمعه هذه العبارة، ولم يقصده بها : "إذا كان هذا السفير بهذه المثابة من حبّه للجنس اللطيف، فإنه لا يعدم الكثير منه بباريس".

– وبمجرّد ما سمع ابن عائشة ذلك، أجاب بقوله :

«قد سلم الحدّ لمحدوده، والعدد لمعدوده، لأنّ مقام العشق من قلبه، قد احتلّته زوجته، واستولت عليه. وقد كان قلبها كالصخرة الصمّاء فتسلّط عليه حبّه فهدّه هدّا، ثم عادت له الحياة، فاضطرب واضطرم بلهيب عشقه وحبّه، فاحتلّه واستولى عليه.

ونتج عن هذا الحب المزدوج، عقد الزواج، والاتحاد والامتزاج».

وذكر أن له مع هذه الزوجة المطلوبة المحبوبة الآن أولاد : ثلاثة ذكور، وثلاث بنات، وأنه منذ تزوّجها ما خانها، ولا يظنّ أن أُخرى توازيها في قلبه أو تدانيها، وهو يُشهد الله أن حبّه لها لم يُبق له شهوة في حسناء غيرها.

وزاد، وهو بباريس الآن، إذا رأى البنات الجميلات تذكّر بناته وعدّهنّ بمنزلتهن.

وإذا رأى النساء الشابّات، عدّهن كأخواته، وإذا رأى بنتاً أو امرأة بارعة في الحسن والجمال، طلب من الله تعالى أن يحرسها من الوقوع في الخطيئة.

– وزارته مرّة سيدة إيرلاندية، ومعها بنت لها من خمسة عشر عاما – وكان يعرف الإنجليزية – فباسطها، وقال لها :

«إنكِ مع ابنتكِ هذه كمن يحمل مادّة ملتهبة، إذا لم يحفظها ويُحافظ عليها، واتّصلت بمادة أخرى من جنسها، التهبت واحترقت».

يُحذّرها بذلك من إهمال تربية ابنتها وصيانتها، ويُغريها بالاعتناء بها كثيرا.

– وسئل مرة عن مقاطعة لابروطاني (La Bretagne)، فقال :

«إني أُشبّهها بالجنة، لكثرة ما أرى فيها من الملائكة».

يعني الصور الجميلة.

وحضر يوما رواية تمثيلية في أخلاق المرأة، فقال :

«إن المرأة تفوق الرجل في أنواع المكر والحيل، وربّما فاقته في الاستقامة. وعليه فهي إمّا ملك وإمّا شيطان، ولا واسطة بينهما».

– ولمّا زار معمل السلاح بباريس، لاحظ أن بعض البنادق قصيرة، فقال :

«إن كانت هذه البنادق قصيرة، فإن أيدي الفرنسيين طويلة.»

– وعند زيارته لقصر سان كلو (Saint-Cloud) –وكان إذ ذاك في ملك الدوق دورليان (Le Duc d'Orleans) – قابل بينه وبين قصر ڤرساي، وفضّله عليه بمزيد الضّياء والإشراق أدباً مع الملك وقال :

«إني أُحبّ ما يروقني ويسرّني، أكثر ممّا يُدهشني ويُحيّرني».

– وشاهد مرّة مياه ڤرساي منطلقة في الفضاء، فقال :

«إنها صاعدة في الجو نحو السماء، كهمّة وسمعة ملكها».

ولمّا أطلعوه على خزائن الملك وما فيها من أثاثه ورياشه ومتاعه الخاص به بخزائن اللوڤر (Le Louvre)، استغربها، وأطلّ من إحدى شبابيك السراجيب على نهر السين (La Seine)، وقال :

«لو كان هذا النهر مداداً لما كفى في كتابة واستيعاب أوصاف ما أراه كلّ يوم من الغرائب والعجائب بباريس؛ وكلّها تعبّر عن فخامة وعظمة الملك الفرنسي».

– ويُحكى أنه لمّا مرّ على قنطرة سان كلو، حدّثه من كان معه بخرافة متناقلة تتعلّق ببنائها، وهي أن المهندس الذي بناها، تمثّل له الشيطان أثناء بنائها، فوعده إنْ أتمّها كما يريد، أعطاه أوّل شيء يمرّ عليها.

فلمّا أتمّها، وأحكم صنعها، كما كان يُؤمل، تذكّر ما كان وعد به الشيطان، فمنع المرور عليها حتى مرّ فوقها هرّ فأعطاه إيّاه في مقابلة ما كان وعده به، فاقتنع الشيطان به، حيث لم يجد غيره.

فضحك ابن عائشة وقال معلّقاً على هذه الخرافة :

«إذن، كيف يُرجى الحصول على شيء من الفرنسيين الذين غلبوا حتى الشيطان بحيلهم»، إلى غير ذلك من الحكايات المتناقلة عند الكُتّاب الفرنسيين.

وقد كان البارسيون من ناحيتهم يعجبون منه ومن أصحابه، ومن كساهم الغريبة في بلادهم، ونظامهم في شؤونهم، وسائر أمورهم، وحرصهم على التطلع على كل ما ليس عندهم، مع حسن أدبهم وسلوكهم، ويقولون : كيف يكون هذا البربري (Le Barbaresque) المغربي القرصاني وأصحابه على هذا المثال من الأدب وحسن السلوك والرقة في الطبع ؟

ولا غرابة فيما كان يصدر منه من المقالات والأجوبة الرائعة المسكتة !

فقد كان باقعة، وصاحب نكتة ونادرة. أتاه الله بسطة في الجسم، وتفوّقاً في الذكاء والفهم. ولذا وصفه من ترجم له من الفرنسيين بأنه كان طويل القامة، عظيم الهامة، قوي الإدراك، صحيح البنية. ولم تكن قوّته المعنوية، وذاكرته الفكرية، أقل ولا أضعف من قوّته الجسمية.

وهذه الأوصاف مطابقة للصورة التي حُفظت له في سجلات الآثار البارسية، وتناقلتها بعض المؤلفات التاريخية.

تدمر الحكومة الفرنسية من طول مقام ابن عائشة بباريس والنفقة عليه

طالت مدّة إقامة ابن عائشة ومن معه بباريس، وتدمّرت الحكومة الفرنسية من النفقة عليه وعلى من معه. وكان، حسبما أخبر به المكلّف بها، تزيد على السبعين ليرة في اليوم. وقبلها أنفق عليه لمّا كان مقيماً ببريسط تسعة آلاف ليرة، وثلاثة آلاف ليرة لأجل سفره إلى باريس.

وبلغ ما أُنفق عليه بباريس إحدى وثلاثين ألفا وسبعمائة وثماني

يُضاف لهذا ثمن الهدية التي قُدّمت له ليأتي بها لسلطانه، ثلاثة آلاف وثمانمائة وتسعون ليرة (3.890)، ومجموع ذلك نحو الخمسين ألف ليرة (50.000).

ولمّا استعظم وزير البحرية هذا القدر، أجابه المكلف بالنفقة بأنه ليس في استطاعته أن يقتصد منه، وقال : "إن العرب أو المغاربة، لا يعرفون الاقتصاد والمكايسة إذا كانوا يعيشون على نفقة غيرهم"

وقدّم مثالاً لما كان يُنفق عليه كلّ يوم مدّة إقامته بنزل السُّفراء بباريس، وهو :

- 18 خبزة 07.10
- دجاج عشرة 05.00
- من لحم العجل 2 .... 12.10
- لحم الغنم 2 .... 14.00
- حمام أربعة 02,00
- حجل 2 .... 02.00
- ديوك هندية 2 .... 12.00
- بيضة 12 .... 01.00
- سكُّرجات وخضر 00.12
- حيتان 01.06
- سمْن 03.00
- تفاح وتوابل 06.00
- زبد وحليب 00.15
- ليمون وحامض 18 .... 03.00
- قارورة جعّة 14 .... 06.08
- النبيذ 14 كيلو.. 01.06

– لوز وعنب	01.00
– زيت الزيتون	06.10
– خل	00.10
– حلويات	02.00
– دخان	04.12
– جمع :	82.99

وأشياء أخرى كالقهوة والتسخين وغير ذلك، ويُزاد على هذا ما أُنفق عليه لمّا مرض في شهر أبريل في علاجه وفصده، و أُجرة غسل حوائجه وحوائج أصحابه، وحساب الصيدليات وباعة العطور.

وأوراق هذه الحسابات كلّها موجودة محفوظة مُحَافَظٌ عليها في محافظ أوراق الحكومة الرسمية.

تقرير رجوع ابن عائشة إلى المغرب وما نشأ عنه من الحوادث والمراسلات

لمّا طالت مدّة إقامة ابن عائشة بفرنسا، وتضاعفت النفقة عليه وعلى أصحابه، ولم تأت المخابرة والمحاورة معه بالنتيجة المطلوبة من فكاك الأسرى وإثبات السِّلم بين المغرب وفرنسا، لتمسك كلّ من الطرفين بمبدئه، قرّرت فرنسا إرجاعه إلى بلاده، وطلب هو ذلك منها.

وكتب الوزير بونشرطران إلى إمارة البحر ببريسط بتاريخ ثامن عشر أبريل سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (18 أبريل 17/1699 شوال 1110) يخبرها بأن ابن عائشة لم يقبل شروط السِّلم التي عُرضت عليه، والتي عرضها هو لم يوافق الملك عليها. ولذلك تقرر رجوعه إلى بلاده. وسيوجّه الملك عزماً قريباً عدة قطع من أسطوله لمحاربة قراصنة المغرب عموماً، وسلا خصوصا.

ثم عيّن لويس الرابع عشر يوم السادس والعشرين من أبريل سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (26 أبريل 25/1699 شوال 1110) لمقابلته مقابلة الوداع.

وداع ابن عائشة للويس الرابع عشر

لمّا حلّ اليوم الموعود للمقابلة، توجّه ابن عائشة من نزل السُّفراء الذي كان نازلاً به إلى قصر فِرْسَايْ، على الهيأة والصفة الرسمية التي قابل عليها الملك يوم وصوله إلى باريس.

ولمّا مثل بين يديه، ألقى خطاب الوداع، وجاء فيه بعد التحية ومقدمة الافتتاح :

جئت يا جلالة الملك مودّعاً ومستأذناً وراغباً في الرجوع إلى بلادي وشاكراً ما قابلتني به جلالتكم، ورجال دولتكم، من البرّ والحفاوة والرعاية والكرامة، ومعجباً بملككم الذي يُذكّر بملك سليمان وكسرى والإسكندر؛ ولم يمرّ عليّ يوم من الأيام التي قضيتها ببلادكم، إلاّ رأيت فيه شيئاً جديداً يُدخل عليّ السرور والابتهاج، حتى أكاد أنسى أهلي ووطني، ولا أقول أكاد أنسى حتى مهمّتي التي جئت لأجلها، والأوامر الصّارمة الصّادِرَة إِلَيَّ من ملكي في شأنها، كلاّ ، لم يكن هذا ولم يخطر لي ببال.

وقد جمعت دفتراً يومياً كبيراً فيما سمعته ورأيته ببلادكم من الغرائب والعجائب واللّطائف التي تستحق أن تُذكر وتُسطّر، ولكني أُقرّ بأنني لم أسجل فيه عُشُرَ مِعْشَارِ ما يتعيّن تسجيله من محاسن هذه البلاد الفرنسية وجمالها[102].

وعليه، فأرجوكم يا جلالة الملك، أن تُصدروا أوامركم بإعداد سفينة من خيار سُفن أسطولكم لتقلّني وتنقلني إلى وطني بمرسى العدوتين السلاوية الرباطية. وسأعمل غاية مجهودي لدى جلالة أمبراطورنا وملك بلادنا للتقريب بين آرائكم وآرائه فيما يرجع لمسألة الأسرى في أول اجتماع أجتمع فيه بجلالته، خدمة للصالح العام، بحول الله وقوّته.

ثم قدّم لويس الرابع عشر، بعد الجواب عن خطبته بما يقتضيه المقام، الهدية التي كافأ بها المولى إسماعيل عن هديته، وهي :

1 – شمعدتان بلُّوْريتان.

2 – ساعتان دقّاقتان.

3 – إثنى عشر ساعة جيب، إثنان منها مرصّعتان بالأحجار النفيسة.

4 – إثنى عشر كسوة من الديباج المزركش.

---

102) هذا يُشعر بأن ابن عائشة كان يعتني بتقييد رحلته ومشاهداته وأفكاره، ولكنها ضاعت كما ضاعت أخباره عن مؤرخينا وكُتّابنا.

5 – كاسان من فضة.

6 – ثمان بنادق رشّاشة صغيرة مرصّعة مزخرفة.

7 – زربية رفيعة.

8 – سرير للراحة.

9 – عدة كراس للنظافة.

ثم قدّم له هدية لشخصه تشتمل على :

1 – ساعاتى جيْب بسلسلتين من ذهب.

2 – بندقيتين.

3 – أربعة مسدّسات.

4 – بندقية أخرى.

5 – مسدّس آخر أقلّ ثمناً من السابقين.

فامتنع أولاً من قبول هذه الهدية، فألحّ عليه الوزراء في عدم رفضها، لِمَا فيه من الأدب مع الملك، فقبلها حينئذ.

وقدّم لنائبه التّغيري :

1 – ساعتي جيْب من فضّة بدون سلسلة.

2 – مكحلة.

3 – مسدّسا.

ومثل ذلك لكاتب السفارة محمد سوسان.

وكانت هذه السّاعات كلّها بالأرقام العربية.

قالوا : كانت أثمان هذه الهدايا كلّها ثلاثة آلاف وثمانمائة وتسعين ليرة (3.890).

ومن تمامه، فقد عُثر على قائمة ما اشتراه عبد الله ابن عائشة من الحوائج بفرنسا قبل سفره منها، ومن جملتها :

1 – أربع بندقيات.

2 – ثمان مسدّسات محلاّت بالذّهب والفضّة.

3 – أربع مرايا بلّلورية، يحيط بكلّ واحدة منها منطقة مذهبة.

4 – ست ساعات جيْب.

5 – أربع بطّات محلات بالفضة.

6 – عدد كبير من الثياب الذهبية والحريرية.

7 – مائة وخمسون قارورة زجاجية.

8 – عدد كبير من الأمشاط.

9 – عدد من حقن طابة.

10 – أشياء أخرى من هذا النّوع.

حـادثـة

علمنا ممّا تقدّم أن المخابرة في عقد صلح مستقرّ مستمرّ دائم بين المغرب وفرنسا انقطعت لعدَم الاتفاق، قبل كل شيء، على مسألة الأسرى. وتقرّر رجوع السفير عبد الله ابن عائشة إلى بلده.

وفي ليلة اليوم الذي عيّنه لويس الرابع عشر لاستقباله استقبال الوداع، حدثت حادثة، وهي أن سانت أولون عمد إلى صكّ المشروع الذي كانت تدور المخابرة والمحاورة على أساسه، وأدرج فيه الفصل المتعلق بالأسرى، وِفْقَ ما كان يريده الفرنسيون، وذهب إلى ڤرساي ليلا، وأخبر طورسي (Torcy) بأن السفير ابن عائشة وافق على الفصل المتعلّق بالأسرى، وسائر الفصول الأخرى، التي تضمّنها مشروع المعاهدة، فأعلم طورسي الملك بذلك ليلا، فأمره أن يُعيد غداً، بعد حفلة الوداع، جمع المندوبين المكلّفين بدرس المشروع المذكور مع السفير، ويُحرّرونه نهائيا، ويقع الإمضاء عليه حالا.

ثم رجع سانت أولون في الساعة الحادية عشرة ليلاً من ڤرساي إلى نزل السفراء ليلا، وقال لابن عائشة : إن الصلح قد تمّ، وسيقع الإمضاء عليه غداً بعد حِفلة الوداع.

وبمقتضى ذلك أُعيد عقد لجنة الصلح في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم المقابلة.

ولمّا عُرض الموضوع على ابن عائشة ليصادق عليه، صار يُناقش في فصوله ومواده فصلاً فصلا، ومادة مادةً، فقيل له : قد انتهت المناقشة، وسلّمت الجميع، وإنّما اجتمعنا لأجل تلاوة الصكّ، ووضع علامتك عليه. وأخبروه بأن السانت أولون أخبرهم بذلك، وبلغ الخبر إلى الملك بأنّك اعترفت بجميع الفصول، وسلّمتها ورضيت بها.

فدُهش ابن عائشة، وأجاب بأنّه لم يُسلّم شيئا، وأن مسألة الأسرى لازالت على ماهي عليه، وسائر الفصول الأخرى معلّقة عليها، والمذاكرة فيها فرع عنها. ولا يُمكن فحصها ودرسها في هذه الجلسة، أو هذا الزمن القصير، لأنّ سانت أولون جاءه البارحة في الساعة الحادية عشرة ليلا، وأخبره بأن الصلح قد تمّ، وأن اللجنة قبلت مسألة الأسرى، وسلّم له نُسخة من المشروع.

قال : فتصفّحته طول اللّيل كلّه، ووجدتُ في فصوله ومواده أموراً لا يُمكن الموافقة عليها بخروجها عن دائرة مهمّتي، وعدم موافقتها للشريعة الإسلامية، والنُظم والعوائد الجاري بها العمل في الدولة المغربية وربّما يكون البثّ فيها من خصائص جلالة السلطان وإصدار أوامره الخاصّة فيها.

ولمّا سمع النواب تصريحه بُهتوا ونظروا بعضهم إلى بعض مستفهماً مستطلعاً كُنه داخليته، في أسارير وجهه.

ثم أمروا بإدخال سانت أولون إلى الجلسة، فدخل، وقابلوه مع ابن عائشة. فواجهه بأنه تقوّل عليه ما لم يقله، وأخبر عنه بغير الحقيقة، ونسب إليه ما هو بعيد عنه، ولم يخطر بباله أصلا.

ثم حمي أنفه، وتجلّى فيه غضب القراصنة، وقال له إنه كذّاب.

وبذلك تحوّلت الجلسة من صفتها السياسية، إلى محكمة جنائية، تستمع إلى الخصوم، وتستنطق المتّهمين أمام العموم.

وفي الحين، رُفعت الجلسة، وانتثر عقد أعضائها، وجفّت الأقلام، وطويت الصحف، وانقطع الرجاء في إعادة صلة الوصل بين الدولتين مدّة طويلة إلى ما شاء الله.

ولمّا خرج ابن عائشة من ذلك المجلس وهو غضبان، تفجّر بركان غضبه بحمم السبّ الدّال على الحنق، وقال : إنه لا يأويه مجلس بعد هذا مع غشّاش كذّاب، أراد أن يُدنّس شرفه وسمعته، وزاد قائلا : إنه لا يحمل السيف والخنجر إلاّ لِيقول الحق لجاحده، ولو كان مرّاً.

وأقسم بالأيمان المغلّظة ما قال شيئاً ممّا تقوّله عليه خصمه.

وهكذا رجع ابن عائشة ليلاً من فرساي إلى باريس في حالة سيئة، و أزمة عصبية، حدّث منْ كان معه في طريقه أنه ما رآه على تلك الحالة قطّ، وشهد فيه بأنه لم ير رجلاً مثله شهامة وثباتاً على المبدأ.

وبعد هذا كلّه، تدخّل بعض أعضاء لجنة الصلح في مصالحته مع خصْمه، فما لانت قناته إلاّ بعد جُهد جهيد، وحينئذ غضّ الطرف عنه، وتابع سفره معه من باريس إلى بريسط راجعاً إلى المغرب.

وقد تقدّم أن سانت أولون كان يكيد له، ويعمل على إحباط عمله، ويُحذّر الحكومة منه.

وبعد هذه الحادثة، حاولوا أن يُقنعوه بالإمضاء على المشروع الذي هيّئوه، فرفض ذلك رفضاً نهائيا.

كتاب عبد الله ابن عائشة إلى الأسرى المغاربة يعلمهم فيه بعدم نجاحه في خلاصهم ويُصبّرهم ويسلّيهم

لمّا انقطعت المخابرة في فداء الأسرى بين عبد الله ابن عائشة ونواب لويس الرابع عشر، ولم يتّفقوا على شيء في الفداء من الجانبين، وتقرّر رجوعه لبلاده، كتب إلى الأسرى المغاربة الذين بمرسيليا يُخبرهم بذلك ويُسلّيهم ويُصبّرهم ويعدهم بأنه سيرفع الأمر في شأنهم إلى جلالة السلطان المولى إسماعيل الذي لا يترك جهداً في استعمال كل الوسائل المؤدية لخلاصهم، ونصّ ما كتب به :

نص كتاب ابن عائشة إلى الأسرى المغاربة بمرسيليا

الحمد لله وحده،

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

إلى كافّة الأسرى المسلمين الذين بمرسيليا، أخصّ منهم محمد بَشَرُو، ومحمد العساسي، وأحمد الزبّاج، والسيد عبد الله بن حسين، وغيره.

رعاكم الله بعين رعايته، وأسبل علينا وعليكم رداء ستره، آمين.

وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما دام الفلك وحركاته، عن خير وعافية، ولله الحمد من فضل الله، وبركات مولانا نصره الله، وأدام حياته لمساكين المسلمين، آمين.

هذا، وموجبه إليكم، أوْجب لكم الله السعادة، أنني بعثني مولانا أمير المومنين، نصره الله أنباشادوراً على شأن فدائكم وفداء غيركم من المسلمين.

فلمّا بلغت هذه البلاد، وتلاقينا مع ملك فرانصية، قال لنا : تكلَّمْ مع الوزراء فيما جئت به إلينا. فتكلّمت معهم في شأن كُلٍّ من أُخذ تحت سنجق مولاي إسماعيل في أربعة عشر سفينة قرصان، ونظرمات[103] سواء أن يكون من بلاد المغرب أو من بلاد المشرق أو من بلاد الصحراء، أو غيرها، من مات منهم رحمة الله عليه، ومن فُدي قبل الآن تبارك الله في أمره، وجميع من بقي نُفتّشُ عليه، ونجمعه ونُعَبّيه لبِرِّ المسلمين، لأنَّ مولانا نصره الله وهب جميع من عنده من النصارى الفرنصيص ومن أُخذ تحت سنجقهم، وهبهم لوجه الله وابتغاء مرضاته، هبة طيبة لا يعقبها ندامة أصلا.

ولمّا رأوا منّي هذا الكلام ورأوا في بَرَاة ضيفنا -نصره الله- تفويضه إلينا بذلك وحقّقوه، قالوا لنا ما تفدي منّا إلاّ رأساً مسلماً برأس نصراني، فقلت لهم إني بعثني ضيفي - نصره الله - بما ذكرته لكم فقط. وحيث قلتم هذا الكلام فتبارك الله عليه، إني سأنظر في الأُسارى، أهل بلادنا، البحرية الذين نحتاج منهم نأخذوه منكم رأساً برأس، كما ذكرتم.

فقالوا لي أيضا : لا نقبل منك هذا، وإنّما نجعل لكلّ أسير مائة وخمسين ريالا، أنت تفدي، ونحن نفدي، فقلت لهم إني أُعطيكم مائتي ريال في كل مسلم من أصحابنا الذين نحتاج إليهم، ونبقى هنا رهيناً حتى نبعث من أصحابي من يدفع لكم المال، فقالوا لي : لا نقبل هذا إلاّ إذا كنّا نفدي نحن جميع أصحابنا بالدراهم، وأنت أفد مثل ذلك، فقلت لهم : ضيفنا -نصره الله- لا يقبل الدراهم في النّصارى، إلاّ إذا كان يفديهم بالمسلمين. ولقد فدى من الإصبنيول عشرة مائة مسلم وزيادة بمائة نصراني. والآن، حيث قدمت لبلادكم، أعطوني النصف من ذلك، ونُعطيكم جميع نصاراكم، ومن أُخذ تحت سنجقكم. ألا ترون الفلامنك، كان عندهم تسعون نصرانيا، ففدوْهم من ضيفنا - نصره الله - بتسعين مسلما، وزادوه العدّة مكاحيل وسكاكين وحديداً وباروداً وملْفا. وأنتم أُعطوني النِّصف مما أعْطى الفلامنك، ونُعطيكم نصاراكم ومن أُخذ معهم تحت سنجقكم. فامتنعوا من هذا كُلّه، وأسقطنا أُمور

103) كلمة تركية، معناها الغنيمة البحرية، كما فسّرها ضوزي (Dozy) في قاموسه.

الصلح وغيره. وما عملنا معهم شيئاً في هذه الساعة، حتى نمشي لضيفنا نصره الله، ونردّ عليه الخبر بما ذكروا لنا، ونظره حينئذ أوسع، ورأيه إنْ شاء الله أرجح وأنفع. والله يقضي بخير. والأمور كلّها بيده سبحانه، فصبّروا أنفسكم حتى تقدموا على سيدّنا نصره الله، ويكون خيرا. الله يُطولّ لنا عمره، ويُبارك لنا فيه. فلا تيأسوا من هذا الأمر ﴿فإنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون﴾. فادعوا الله له أنتم بُكرة وعشية بالبركة وطول العمر، فإن قَلْبَهُ مع مساكين المسلمين الأسارى، وأعطى فيكم النصارى بالنية والتكبير. والذي عند الله هو خير كله، نسأله سبحانه أن ييسّر علينا وعليكم كل عسير، وأن لا يمنعني من هذه الحسنة التي جئت بخالص نيتي إليها، والذي ما قضاه الله هذه المرة، لازم يُقضى إنْ شاء الله مرة أُخرى. وأنا مسبّل عليكم رقبتي عند ضيفي نصره الله، حين ظهرت مع هذا الناس في هذه الحاجة من الجانبين، وفيها الأجر والثواب. نسأله سبحانه أن لا يحرمني منها، آمين.

وأنتم أدعوا لي، والله يتقبّل منّا ومنكم. ونُؤكد عليكم أن تكتبوا لنا جواب هذا الكتاب، وتذكروا لنا ما يقوله لكم حامله النصراني فابر (Fabre). لقد جاء معنا من سلا بقصد هذه المسألة، وترك شغله في سببها، وعمل جهده، ولا يكون إلاّ ما كتب الله.

وأنتم إذا كتبتم لنا الجواب، ابعثوه على يده، واكتبوا جواباً آخر وابعثوه مع غيره، مثل الذي تبعثوه معه، وأخبرونا بكل ما يظهر لكم من هذا الناس، وما تسمعوا منهم ، ولأيْن يريدون يوجّهون سفنهم وعمارتهم، ولا تُغيّبوا عنا شيئا، لأنني عملت معه يلقاني بسلا، وبيده براتكم بكل ما أكّدت عليكم به وأكثر ما يظهر لكم وليس يظهر لنا. واكتبوا لنا أيضاً مع غيره، وابعثوه لنا مع كل من تعرفون قادماً إلى بلادنا ولغيرها من مراسينا، ولابدّ ولابدّ ولابدّ، من غير استهزاء ولا غفلة.

ويُسلّم عليكم كاتب الحروف محمد بن عيسى سوسان، ومحمد التغيري، وقاسم السمّار، وغيره من أصحابنا الذين جاءوا معنا، والســلام.

كتبناه لكم من مدينة باريس، في عشرين خلت من شهر الله شوال عام عشرة ومائة وألف (20 شوال 28/1110 أبريل 1699).

الإمضاء :

خديم المقام العالي بالله :

عبد الله بن عيشة وفّقه الله.

استدراك

استدركنا لكم، بأني آخر ما افترقت معهم، أن يُعطوني جميع من أُخذ تحت سنجقنا في مدة مولانا نصره الله من غير عدد، وقلت لهم : نعطيكم نصاراكم ومن أُخذ تحت سنجقكم، فلم يقبلوا.

وقلت لهم : نأخذوا أولاد سلا رأساً برأس، ولوْ أُعطي كلّ ما عندي من النّصارى، ونرغب ضيفي يكمل علي.

وها أنا تَسفَطْتْ معهم على هذا الوجه الذي ذكرنا، والأمر لله، ولمولانا نصره الله، حين نبلغ إليه إن شاء الله يكون خيرا، فطيّبوا أنفسكم، وردّوا الأمر لله سبحانه، وهو الوكيل، ونعم الكفيل، وهو على كل شيء قدير، آمين.

ويُسلّم عليكم كافة : الخياط بن سليمان الفاسي كثير السلام. انتهى.

العنوان :

يصل إن شاء الله بيد الأسارى بمرسيليا، منهم : محمد بْشَرُو ، وأحمد العساسي، وأحمد الزيات، والسِّي عبد الله بن حسن، وكافة أولاد سلا، كان الله لهم، آمين. اهـ.

وسنرى فيما سياتي أنه لم يتم شيء من هذا، وبقيت المسألة على ما هي عليه، وتدخّلت فيها جمعية الفداء الرّهبانية، ففُدي بواسطتها عدد قليل جداً من الطرفين.

مبارحة عبد الله ابن عائشة لباريس

بعد مقابلة لويس الرابع عشر لابن عائشة مقابلة الوداع، كما تقدّم، في السادس والعشرين من أبريل سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (26 أبريل 25/1699 شوال 1110)، بارح باريس في الخامس من مايه (05 قعدة) متوجّهاً إلى بريسط، ليُبحر منها مولّيا وجهه شطر المغرب سالكاً الطريق التي سلكها عند قدومه، فوصل إليها بعد خمسة عشر يوما.

وكان يقيم في المدن الكبرى التي مرّ عليها، بقصد الراحة وتجديد شؤون السفر.

ولمّا وصل إلى بريسط قابله ضبّاط البحرية بنفس التشريفات التي قابلوه بها يوم قدومه من المغرب، كما هي العادة مع السفراء.

مراسلات ابن عائشة لبعض وزراء فرنسا أثنـاء رحلتـه

بعدما انفصل ابن عائشة عن باريس، على الكيفية التي تقدّمت، لم يقطع مواصلته مع أرباب الحل والعقد، كالوزراء وبعض الشخصيات الكبرى في الدولة.

ومن ذلك، أنه لمّا وصل إلى مدينة أورليان (Orleans)، خاطب الوزير بونشرطران برسالة يُعبّر له فيها عن اعتباره له، ويشكره على اعتنائه لشخصه، ويعرض عليه قضاء ما يتوقّف عليه من أغراضه ببلاده، يقول فيها :[104].

نص رسالة ابن عائشة إلـى بونشرطـران :

الحمد لله

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

من عبد ربّه، وأسير ذنبه، الراجي عفو مولاه يوم لقاءه، القبطان عبد الله ابن عائشة، أجمل الله خلاصه، آمين.

إلى الوزير الأعظم، الشهير الأفخم، موسيو بونشرطران.

بعد السلام على من اتبع الهدى، وسلك طريق النجاة واهتدى، فإني كتبت لكم هذا من مدينة أورليان.

وسببه تجديد العهد بمحبّتكم، حيث لم يُيسّر الله علينا فيما جئنا إليه، فكل شيء بأمره، والخير والشر بيده، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يُريد.

لكن، الحمد لله الذي عرفناكم، وتمتّعنا برؤيتكم ومحبّتكم، وقد كُنّا نسمع بذكركم في بلادنا حتى رأيناكم، وحقّقنا سيرتكم، وما أنتم عليه من الاجتهاد في دينكم، والعقل الراجح

104) أثبتْنا هنا بعض هذه الرسائل الصادرة عن ابن عائشة بنصه وتمامها، لما فيها من الفائدة التاريخية، والدّلالة على شخصية مرسلها، مع ما فيها من العبارات والألفاظ العامّية. وكذلك سائر رسائله ما تقدّم منها وما سياتي.

في تدبير ملككم. أدام الله عليكم فضله بما يشاء سبُحانه، وأطال عمر سيّدكم الأمبراطور دي فرانصية، وزاده الله من خيره، وما يعلو به ذكره في أقطار أرض النّصرانية. آمين.

وكثّر الله خيركم، ثم كثّر الله خيركم، ثم كثّر الله خيركم.

وإذا كان في قلبكم ما نجتهد فيه ببلادنا وما نقضيه لكم، فهو أفضل عندي حين نرى كتابكم به، فعلى الرأس والعين. ونسأل عن ولدكم المرضي موروبا (Maurepas) سؤال المحبة، انتهى.

كُتب يوم الجمعة بعد نصف النهار كتبناه، وهو السابع من شهر الله ذي القعدة عام عشرة ومائة وألف. (07 ذي القعدة 07/1110 مايه 1699).

الإمضاء :

من لا يخفى عليكم رسمه وإسمه، وفّقه الله، آمين.

ولمّا وصل إلى بريسط، بلغه أن قطَعاً من الأسطول القُرصاني الفرنسي، جُهّزت وتوجّهت، أو ستتوجّه للسواحل المغربية وخصوصاً السلاوية الرباطية، لتُغير عليها وعلى سُفنها.

فكتب رسالة أُخرى إلى الوزيزين بونشرطران وطورسي (Torcy) يستنكر ذلك، ويُشعرهما بأنه صدرت منه مكاتب إلى السلطان ورؤساء البحر، بأن لا يعترضوا للسُّفن الفرنسية، ولو انصرمت مدة الهدنة، حتى يصل هو إلى المغرب، ويظهر ما يكون عليه العمل، ونص ما كتب به :

نص رسالة ابن عائشة إلى بونشرطران وطورسي :

الحمد لله

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم

من خديم المقام العالي بالله، السلطاني الشريف الهاشمي، أسماه الله، عبد الله بن عيشة، القبطان، وفّقه الله.

إلى الوزيرين الأعظمين النجباء المدبرين أمر الديوان الكبير لسيدهم، عظيم الروم العزيز، ملك فرنصية وعين باريس، الأمبراطور لويس، وفّقه الله لما يشاء سبحانه، أعني : موسيو بونشرطران وموسيو طورسي. (Ponchartrain et Torcy)

بعد السلام على من اتبع الهدى، وسلك طريق الحق واهتدى.

فإني أسأل عنكم سؤال المحبّة الصّافية ولم نزل على العهد الذي أخدت معكم عليه طول عمري، والله شاهد علينا.

وحين نبلغ لبلادي، يظهر تمام الكلام وصحته إن شاء الله. والله العظيم الكريم، إلاّ عندي في قلبي صحبتكم في هذه السّفرة المباركة، أفضل من قناطر الذهب والفضّة، لأن العرب يقولون في ضرب أمثالهم : «معرفة الرجال كنوز»، ونحن عرفناكم، وفرحنا بمعرفتكم.

لكن، يكون في علمكم أننا وصلنا مرسة بريسط، على خمسة عشر يوماً في الطريق، ولا رأينا إلاّ الخير والسرور في جميع طاعتكم، جزاكم الله خيرا، وكثّر خيركم، ثم كثّر خيركم، في جميع ما عملتم معنا، الله يجازيكم بطول العمر، وصحة البدن، آمين.

وبقي الأمر في مسألة عظيمة كبيرة وجب علينا إخباركم بها شرعاً وطبعا، لأنكم أهل لذلك، وهي :

أننا لمّا بلغنا هذه البلاد وجدنا بعض سفنكم القرصانية سافرت لنواحي سواحلنا. ونحن لمّا كنّا في بارين، كتبنا لضيفنا نصره الله بْراتَيْن، ولجميع رؤساء البحرية والثغرية، نقول لهم :

إياكم أن تتلقوا سفن الفرنصيص، وتكلّموهم بسوء أو مَضَرَّة، أو ما يُغيّر الصغير والحقير منهم. وَلَوْ تمّت أيام الأجل الذي بيننا وبينهم، حتّى تروْا وجوهنا، وننظر ما يفعل الله بيننا وبينهم، وأكّدت بهذا كثيراً في بْرَاوَات ضيفي نصره الله، وقلت له : فرحوا بنا وأعزّونا، وعظّموا قدرنا لوجهك. وها نحن أعلمناكم بما في قلوبنا، ومن انْطوت عليه نيتنا، مخافة من رؤسائكم أن يفعلوا ما يُحشّمنا ويحشّمكم، ويتغيّر به سيدنا وسيدكم، ويضحك به علينا جنوس المسلمين والنّصارى، ويبقى كلام العار في أعراض ضيوفنا.

كتبنا لكم عن هذا الأمر، لأنكم في أبواب العقل واقفون، والله يعيننا ويُعينكم على صلاح ما كلّفنا الله به، وسبحانه وتعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، وحده لا شريك له، ذو العرش المجيد. انتهى.

ثم قال :

خُتِم كلامي مع الوزير موسيو بونشرطران، صاحب العقل في دينه ودنياه، ومع موسيو طورسي الشاب المستحي، الله يهديه.

وكما نسأل عن الشاب العاقل المدبر المرضي موسيو موروبا (Maurepas) كثير السؤال. وقد أخذنا معنا العهد على المحبة، لتبقى بيننا إن شاء الله موروثة لأولادنا، والسلام على أزواجكم وأولادكم.

بكرة يوم الخميس الموفي عشرين من شهر الله ذي القعدة عام عشرة ومائة وألف

(20 ذي القعدة 20/1110 مايه 1699)

الإمضاء :

خديم مولانا أمير المومنين نصره الله،

عبد الله القبطان ابن عيشة وفّقه الله، آمين، آمين، آمين

ثم طابعه بداخله :

غلام مولانا نصره الله، عبد الله ابن عيشة.

وبعد تحريره لهذه الرسالة، كتب له أحد الأسرى من المغاربة كتاباً سلّم فيه على أصحابه، وأخبره بأنه لم يقدر على الاجتماع أو الاتصال به بعدما حاول ذلك، فعذّبه رئيس السفينة التي كان بها ببريسط.

فكتب لصاحبه جوردان (Jourdan) كتاباً بتاريخ حادي وعشري ذي القعدة عام عشرة ومائة وألف (21 ذي القعدة 21/1110 مايه 1699)، وذيّله بما نصّه.

نص رسالة ابن عائشة إلى جوردان :

الحمد لله

موسيو جوردان، بعد السلام.

إعلم أننا لمّا كتبنا لك الْبَراة الأولى والثانية، وطبعنا عليها، استدركنا لك هذا الكتاب، لتعلم منه أنه كتب لنا واحد من الأسارى بْرَاة، سلّم فيها على أصحابنا واحداً واحدا، حيث لم يقدر يتلاقى معهم، فبلغ الخبر للرئيس متاعْ الغُراب، واسمه موسيو دوسون (Dausson)، فضرب الأسير مائة عصا، حتى سال منه الدّم، وملّحه بالخلِّ والملْح، وقد أخبرت بذلك الوزير بونشرطران.

وها أنا، أقسمت بالله الذي لا ربّ غيره، ولا معبود سواه، غير نبلغ بلادنا، نبدأ من ممالكي نضربهم مائتي عصا لكل واحد، حين نبلغ ضيفي - نصره الله - نقول له : يأمرني نضرب كلّ أسير من جنس هذا الناس مثل ذلك.

ونحن ما عوّلنا إلاّ على الخير نجتهد فيه، وهذا الناس ما عوّلوا على خير، ولا عندهم خوف من سيدّهم ولا من وزراءه، فأخبرهم به ولابدّ ولابدّ. والسلام.

في التاريخ أعلاه. انتهى.

هذا، ولا يخفى أن الأوامر كانت صدرت من أولي الأمر بباريس بأخذ الاحتياط التّام في عدم اتِّصال السفير بالأسرى، سراً أو جهرا.

ولمّا عزم على الإبحار من بريسط في الخامس والعشرين من مايه سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (25 مايه 25/1699 قعدة 1110) كتب رسالة أخرى، خاطب بها وزراء فرنسا، طالباً منهم استمرار الهدنة التي بين الدولتين، حتى يصل إلى بلاده، ويتوجّه لمكناس، ويُخبر السلطان بما راج، ويعرض عليه صكّ مشروع المعاهدة الأخير، ويُبيّن له الفصول التي لم يتم الاتفاق عليها، وهي المتعلقة بفداء الأسرى، ويرى ما يقتضيه نظره الشريف فيها. وحينئذ يُعلم الحكومة الفرنسية بذلك في كتاب خاصّ، يُوجّهه إليها صُحبة رئيس السفينة التي ستحمله من مرسى بريسط إلى مرسى العدوتين السلاوية الرباطية، ونصّه :

عنوانه :

ليد الوزراء موسيو بونشرطران وموسيو طورسي وموسيو موروپا، كان الله لهم بمنّه وكرمه، آمين.

نص رسالة ابن عائشة :

الحمد الله

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

إلى الوزيرين الأعظمين المرضيين موسيو بونشرطران وموسيو طورسي وعوض ولدنا موسيو موروپا.

السلام على من اتبع الهدى.

فإننا نسأل عنكم سؤال المحبة التي عقدناها معكم، نسأل الله أن لا تنقطع بسبب من الأسباب.

وها نحن نركب البحر لسفرنا السعيد إن شاء الله، بقصد بلادنا، وحضورنا لدى ضيفنا نصره الله.

ونريد منكم مسألة تنفع الجانبين إن شاء الله تعالى، وهي :

لا نسدّ باب العافية بيننا وبينكم، ولا ينقطع حبلها، حتى نصل مرسى سلا، ولا نبيت في داري فوق ليلة، ونقدم لحضرة ضيفي - نصره الله - بالنُّسخة الأخيرة التي تكلمنا فيها آخر الكلام، ونقرؤها عليه حرفاً حرفا، حتى نوريه الثلاثة فصول التي تخالفنا فيها.

وحينئذ الذي يُجيبني به، نكتبه بطابعه الكريم، وندفعه لرئيس السفينة التي نحن قادمون معه فيها في حفظ الله، وهو موسيو شامبسلين (Champeslin)، وها أنا تكلمت معه ومع محب الجميع موسيو سانت أولون، واتّفقنا في ذلك مع الرئيس المذكور، أنه يبقى مقيماً بمرسانا معزوزاً مكرماً مرضيا، حتى نقدم من عند ضيفنا نصره الله، بِحَيْثُ لم يحدث عار منّا ولا منكم، حتى نردّ على رئيسكم المذكور الخبر من عند ضيفنا أيده الله، كما قلته بلساني لسيدكم، وسنجتهد في هذه الخدمة إلى تمامها، نطلب المولى جلّ ثناؤه، أن يُكملّ لي فيه المرغوب إن شاء الله تعالى، إنتهى.

يوم الإثنين الرابع والعشرين من شهر الله ذي القعدة عام عشرة ومائة وألف

(24 ذي القعدة 1110/24 مايه 1699)

الإمضاء :

خديم المقام العالي بالله :

القبطان عبد الله ابن عيشة وفّقه الله بمنّه، آمين آمين.

إبحار عبد الله ابن عائشة من مرسى بريسط ووصوله إلى مرسى العدوتين

بعدما وصل ابن عائشة إلى بريسط، وحرّر منها الرسائل المتقدّمة إلى وزراء فرنسا، أبحر من مرساها مع حاشيته في الرابع والعشرين من مايه سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (24 ماي 1699 /24 ذي القعدة 1110)، على متن الدّارعة الفرنسية المسماة : لاضوفين (La Dauphine)، وحيّته مدافعها بطلقاتها كما تحيي السفراء.

وحدّث من كان معه أنه رآه متأثّراً منفعلا غاية الانفعال، من عدم نجاحه فيما جاء لأجله من إطلاق سراح الأسرى.

وسلّم له سانت أولون جواب لويس الرابع عشر للمولى إسماعيل بتاريخ، رابع مايه سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (04 مايه 1699/4 قعدة 1110).

ومضمّنه أنه متأثر جداً من حسن صنيع سفيره في سفارته، ومباشرته للمهمة التي جاء لأجلها، ولكنه لم يعقد معه معاهدة، ولم يتمّ بينهما شيء في مسألة الأسرى، لأنه لم يقتنع بالتفويض الذي عنده.

وهذا إنّما هو عذر مُنْتَحَل لا غير، وإلاّ فإنّ ابن عائشة كان عنده التّفويض التّام، حسبما يُعلم من رسالة سفارته.

وساعده الريح، فوصل إلى مرسى العدوتين السلاوية الرباطية يوم الإثنين ثامن يونيه سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (08 يونيه 09/1699 حجة 1110)، ولم يبارح السفينة إلى البر إلاّ يوم العاشر من ذي الحجة، وهو يوم عيد الأضحى، وجاء للسلام عليه جماعة من أعيان العدوتين، واستقبلوه في احتفال كبير، وسلّموا لرئيس الدّارعة التي جاء فيها، الموسيو لاجاي (La Jaille) الذي كان بقي رهينة بالرباط منذ سفر ابن عائشة، وحيّته مدافع الدارعة عند نزوله منها، ومدافع أبراج المدينة عند وصوله إليها بطلقاتها، وتوجّه إلى داره بسلام وبذلك خُتمت أعمال سفارته، ولم يُقدّر الله له نجاحاً في ماموريته.

توجه ابن عائشة لمكناس لإخبار السلطان بما راج في سفارته

لم يُقم ابن عائشة بعد رجوعه من سفارته بداره إلاّ يوما أو يومين، ثم شدّ الرحلة إلى مكناس، وقصّ على السلطان المولى إسماعيل جميع ما رأى وسمع بفرنسا، في الأندية

السياسية، والحفلات الرسمية التي كانت تُقام على شرفه، ويحضرها كُبراء الدولة وأعيانها، وأخبره بخيبته في مهمّته، فاغتاظ من ذلك، رحمه الله، غيظاً شديدا، وضيّق الخناق على التجّار الفرنسيين ببِلاَدِهِ، واستدعاهم لحضرته، واسترعى عليهم، وحذّرهم عاقبة ما عسى أن يصدر منهم، أو يُنسب إليهم، وأمرهم بالرجوع إلى محلّهم والاشتغال بشؤونهم الخاصة بهم، تحت المراقبة.

وأصدر أوامره باتخاذ الاحتياطات اللازمة في مراسيه، لِئَلاَّ يُهاجم القراصنة الفرنسيون قراصنة سلا ورباط الفتح، وسلّح السفن القائمة بحراستها، وحصّن أبراجها، وجلب لها المدافع من مكناس.

وأجاب لويس الرابع عشر عن كتابه بكتاب وجّهه إليه بتاريخ ثاني صفر عام أحد عشر ومائة وألف (02 صفر 1111/30 يوليوز 1699) لاحظ عليه فيه أنه كان ينبغي له أن يتنازل ولا يشتطّ في مذاكرته بواسطة نوابه ليُمكن الوصول إلى عقد صلح تعود منفعته على التجار الفرنسيين بالمغرب.

وأشار عليه بتعيين شخص يكون بيده التّفويض التّام في المذاكرة ليتم معه وضع أسس سليمة تعود منفعتها على الطرفين .

وطلب منه أن يُوجّه له الكتب العربية التي بفرنسا، تسهيلاً وتمهيداً للمفاوضة في فداء الأسرى.

وكتب ابن عائشة بذلك كله إلى سانت ألون، ووعده بأنه سيتحيّن الفرصة المناسبة لتهدئة وتسكين غضب السلطان خدمة للمصلحة العامّة.

ولكن المولى إسماعيل رسخ في ذهنه أول مرة أنَّ الحكومة الفرنسية اشتطّت في شروط عقد الصلح، وراوغت فيما يرجع لفداء الأسرى، فجدّد الكتابة للويس الرابع عشر ملقياً مسؤولية ذلك عليه، ومنبّهاً له على أن المغرب ليس في حاجة سلم أو حرب مع فرنسا. وفي أثناء كلامه نوّه بسفيره وأميراله عبد الله ابن عائشة، فقال :

نص رسالة المولى إسماعيل
إلى لويس الرابع عشر :

الحمد لله

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

عن الأمر العلي بالله الإمامي السلطاني الهاشمي الشريف أسماه الله وأعزّ في صعود المعالي ذكره، آمين.

الطابع الإسماعيلي الشريف

إلى طاغية فرانصية، وملكها، لويس الرابع عشر من إسمه.

بعد السلام على من اتبع الهدى.

إعلم أن صاحبنا، وخديم بساطنا الشريف من قديم، قبطان البحر، عبد الله ابن عيشة، لمّا جاءنا من بلادكم، وحدّثنا بما لقي منكم، ومن أصحاب ديوانكم، حتى فهمناه، ورسخ في سمعنا، عذرناه لطول مكثه عندكم بلا فائدة عقد عليها، وكاتبتمونا بعده، فلم نر من كتبكم ما يُسرّ به العاقل، لاسيما ومكاتب الملوك لا يكون فيها إلاّ كلام الصدق بلا كذب ولا تلوية المعاني، فذلك نُقصان في حقّ الأمراء ما يرضاه أحد، وقلتم في حقه : إنه جاءكم بكتابنا الشريف بلا تفويض، فرددتموه بلا فائدة، وفسختم ما كان عقده مع قبطان سُفنكم، وكذّبتموه فيما وجّهتموه له من طرف إسطري (Estrées) من عُقدة قانون البحر[105]، فكان على ابن عائشة حينئذ من أول ما رأى من أصحابك وتقلّبهم في الكلام، وتجرجر أموره أن يرجع إلينا من حينه ووقته، فمالنا حاجة عندكم، ولا أحوجنا الله إليها أصلا، إلاّ أنه هو كان السّبب في طلبه القدوم إليكم، ليرى من أين يُعقد الحبل، وذهب ليحلّه، فاشتغلت وأصحابك تشترطوا عليه شروط التعنيف والتحريف، كشروطكم التي أريتموها إيّاه مع غيره.

فنحن والحمد لله مخازننا المحوطة بعين رعاية الله مملوءة من كل خير مدّخرة من فضل الله سبحانه من الأموال والعدّة وآلات الحرب ما لا يُعدّ ولا يُحصى، فما جاءنا شرّكم ولا صلحكم في شيء.

---

105) وقع في الأصل العربي غموض وتصحيف، ضاعت معه معنى هذه الجملة، وقد أخذناها على سبيل التقريب من الترجمة الفرنسية.

وحيث وقع الكلام بينكم وبين خديمنا المذكور، ها نحن زدناه من فضل الله سبحانه عزاً وتفويضاً في جميع ما يظهر له العمل معكم ومع غيركم، لأنه ألحّ عليّ كثيرا، ورغّبني فيما يرى من صلاح المسلمين ليتم أمره، فأذنّاه وكمّلنا له في كلّ شيء اهتمّ به، وهكذا هو فيما يراه الناس واقف على ساق الجدّ في خدمة ضيفه.

وابن عيشة، لا يخفى على أحد، لطول خدمته مقامنا الشريف، فلو كان رماه الوقت ببلاد أحد أجناس النصارى بغير قصد، وعقد معهم ما عسى أن يعقده معهم، وجاء به إلى خاصّة المسلمين وعامّتهم، لَعَملُوا به وقبلوه، فأحرى أنَّه كان عندكم بكتابنا الأسمى، وبعثناه من حضرة بساطنا الأحمى، ورددتموه كما قدّمنا لكم.

والآن، ها نحن قلنا له يكتب لأصحابك ووزرائك الذين تكلّم معهم فيما تكلّم به، وقد بقي في قلبه ذلك، فإذا كان ما يُرضيه من صحيح القول والفعل مع أهل ديوانك، فقد أذناه يتكلّم معكم ومع غيركم. انتهى

أواخر شهر ربيع الأول الأعظم عام أحد عشر ومائة وألف

(أوخر ربيع الأول 1111/16-25 شتنبر 1699)

وبمقتضى هذه الرسالة الإسماعيلية إلى لويس الرابع عشر، كتب ابن عائشة رسالة أخرى منه إلى الوزير بونشرطران وولده مورويا بتاريخ آخر ربيع النبوي عام أحد عشر ومائة وألف (آخر ربيع النبوي 25/1111 شتنبر 1699) يُخبرهما فيها بأنه لازال على ما عاهدهما عليه من المحبة، ويقصّ عليهما ملاقاته مع المولى إسماعيل، وتغيّظه على إبطائه في سفارته وعدم نجاحه، وأنه استعطفه، ولطّف خاطره، لمَا في ذلك من مصلحة الدولتين، والوصول إلى ما فيه خير لأُسارى الجانبين، ويُعلمهما أيضاً بأنه توسّط لديه، حتى عفا عن التجّار الفرنسيين، وردّهم للاشتغال بتجارتهم بعدما كان عزم على طردهم من بلاده، إلى غير ذلك من أمور أخرى. ونصّ ما يهمّنا منها هنا على ما فيها من عبارات عامية وتصحيف وتحريف.

نص الرسالة :

الحمد لله وحده

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

من مملوك المقام العالي بالله، والجناب النبوي أسماه الله، آمين.

القبطان ابن عائشة، إلى محبّنا وحبيبنا وصاحبنا، وزير دولة ملك فرانصية وعاقلها الموسيو بونشرطران وإلى من هو تحت رضاه، ولده موسيو موريا.

بعد السلام على من اتبع الهدى، وسلك نهج الحق واهتدى، فإنّي نسأل عنكم غاية، وعن جملة أولادكم، ونحب نسمع عنكم خيراً مليحاً في جانبكم، منذ فارقناكم.

وقد كُنَّا أخذنا العهد فيما بيننا، حيث لم يقضي الله بما اهتمّ به ضيفنا نصره الله، ورعى فيه وجه الله الكريم، في حقّ ما كنّا لأجله عند سيّدكم، أن يُبقي العهد في مقتضيات ما يقضي بيننا، ولو بالسلام الجائر. وقد حقّ علينا ذلك إذ أدخلتمونا خير منازلكم، وسلّمنا على كافة أولادكم، وأحضرتمونا صغارهم وكبارهم، فبقي ذلك في قلوبنا حتى بلغنا بلادنا، ومقام ضيفنا الشريف، وفرح بنا، والحمد لله، وأرانا في وجهه المحبة التي عهدنا فيه أول مرة، بارك الله في وجوده وعمره.

وكان من حديثنا في حقّكم حين حضر الكلام في حقّ ملاقاتنا مع سيدكم وما كانت أول فائدته وآخرها. وقد مدحتكم على قدر وزارتكم في عقل وسياسة وتدبير وظرافة، وفرحكم بنا، وتأدّبكم معنا، حين لقيتمونا، وغير ذلك. وما جهلنا لكم من هذا شيئا، ولا نكرنا ما عاملتمونا به من الأدب أوّلاً وآخرا، حتى حمده ضيفنا، وقال لنا : أنت قلت في حقّ هؤلاء الناس ما رأيت وما حقّقت من وقوفهم الجِدي في حقّ سيّدهم، والحدود التي حدّدها قانونهم، إذ ما كان لسيّدهم تأثير في أمر إلا بما يوافقه عليه وزراؤه، ورأى في ذلك راحة نفسه، وما يُوافق رعيته. فقلت لضيفي في حقّك : إنه رجل عاقل أكثر مِمَّا سمعنا حتى رأينا، ورعيته وخدّامه يُحبّونه ويُحبّهم عظيمهم وسيّدهم حقيقة ومعنى.

وها أنا أُدافع بكلامي له أيده الله ترطيباً لخاطره الشريف، وجلب سكينته إلى ما يرضى به الله خيراً لأمر الجانبين، ووفاء بكلامي حيث قلته بلساني، لا نقول إلاّ خيرا، وسنجري عليه طول عمري حتى يُتمّ الله فكّ أولائك الأسارى من الجانبين. وذلك لما قال لي سيدكم : لابدّ أن تتكلمّ فينا خيراً في البساط الشريف. وها أنا قلت في حقّه ما يرضي، وفي حقّكم كذلك.

وتغيّر على طول مقامنا ببلادكم ذلك الزمن كلّه، واعتذرنا له بكل عذر فما قبله، وكنّا كلٌّ ما نحدّثه به يُصغي لبعضه ويُعرض عن بعضه.

ولمّا جاء حديث تهديد عمارة سُفنكم لحصار مراسينا، والتهدّد على حصون ثغورنا، رجع عليَّ وفاض حتى ظننته شيئاً آخر يضرّني.

وقال :

أنت كنت السبب في طلبك الذهاب إليهم بما زعمته لدينا من أنك عقدت ما يُرضي الجانبين في أمور قانون البحر، مع قبطان البحر على سُفنهم، ورغبنا في ذهابك إليهم، لتُتمّ أموراً تعقّدت، لعلّ الله يحلّها. فبعثتك بكتابي، فردّوا عليك بأنك بغير تفويض، مع أنهم رأوه وتحقّقوه وترجموه، وحفظوا ما بيّناه لهم فيه، فجحدوا منه التفويض، وكذّبوا قبطان سُفنهم، المعروف عندهم بإستري (Estrées) في قانون البحر، ثمّ إنّك يا ابن عائشة ركبت مركباً لبعض تجّارهم بعشرة آلاف (يا ليتك) جئتنا بغير عطلة ولا لعب .

وغضب أيده الله عَلَيَّ، وبعث إلى تجّاركم من مدينتي تطوان وسلا، وقال لهم : أخرجوا من بلادي، ولا تبقوا فيها أصلاً لأنكم جئتم في أمان الله المبين، وسيّدكم يساوم سواحلنا بالشرِّ والحصار. أكتب لهم يا ابن عائشة بأننا عندنا في الحديث : البحر للروم، ولهم أماني كثيرة، وقد سلّمنا لهم في البحر، وما جاءنا شرّهم في شيء ولا صلحهم.

ثمّ عقّب عليّ ثانياً بالعتاب : وقال : إذا أرادوا شرّ البرّ، فلينظروا أي موضع من سواحلنا المحفوظة بنصر الله يتّسع في عقولهم يهبطون إليه، ونوسّعوا عليهم أمره، ونجعلوا لهم أجلا، ريثما يجمعون فيه جيوشهم ونصاراهم على قدر ما يرضون، وحينئذ يرون بحول الله وقوّته من جيوش المسلمين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت بعد، وغضب وأعرض عني، فرغبني التُّجار، وراجعته، وطِحْتُ على رجليه، وقلت له : تسمح لهم إذ هم مسبّبين لا يبغون إلاّ العافية، وطلبوا من الله وسيادتك العفو، فرجع وسمح، وقال لهم : إجلسوا كلّ واحد في موضع سببه، وبشرطه عليكم أن لا تنقلوا عنّا ولا إلينا، وسمح لوجهي، وطالت بذلك مزيّتي ووفاء كلمتي، إذ قلت لكم لا نتكلّم إلاّ بالخير، وها أنا لم نزل عليه حتى يفعل الله في خاطر ضيفي ما يريد في حقّ الأُسارى وغيرهم، وأمّا نحن لا اختيار لنا في شيء، وهو أمر لا يخفى على عاقل، ولا يغيب عن نبيه ولا جاهل.

ثم قال : ولا ينقطع بيننا وبينكم جواب فيما عاهدناكم به من ترطيب خاطر ضيفنا نصره الله بخير في حقّ الأُسارى من الجانبين، وأنتم كذلك، ومع الكلام والجواب يقع الخير والفضل من الله سبحانه...

وفي هذه الرسالة أمور أخرى خارجة عن موضوعنا، ولعلّنا نستشهد بها في محلّ آخر.

وقد كتب ابن عيشة بمثل هذه الرسالة وتاريخها إلى صاحبه التاجر جوردان (Jourdain)، وقصّ عليه خبر ملاقاته مع السلاطان المولى إسماعيل، وما دار بينهما من الحديث الممزوج

بالعتْب والملامة على طول الغيْبة، وعدم تعجيل الأوْبة، وتغيّظه على ما قرّرته فرنسا من حصار ومهاجمة الثغور والمراسي المغربية، وخصوصاً مرسى العدوتين السلاوية الرباطية، وطرده للتجار الفرنسيين ثم عفوه عنهم بشفاعته... ما تقدّم.

وبذلك انتهت المخابرة في فداء الأسرى وفكاكهم بينه وبين الحكومة الفرنسية، وانتقلت فرنسا إلى طور آخر في الاحتيال على فداء أسراها، وبقاء الأسرى المغاربة معذّبين مستعملين في أوراشها البحرية، وسفنها القرصانية، كما سنُبيّنه في الفصول الآتية، هذا ما يتعلّق بسفارة ابن عائشة، وسياتي بقية أخباره وما توفّر لدينا من معلومات عن حياته القرصانية ووظائفه السياسية والبحرية، عند الكلام على رؤساء البحر في الدولة العلوية.

محاولة فرنسا فكاك أسراها بواسطة تجارها بالعدوتين السلاوية الرباطية

لمّا رجع ابن عائشة من سفارته، ولم يُحصّل على طائل في مهمّته، التي سافر من أجلها، وهي فداء الأسرى، حاولت فرنسا أن تسلك في تحرير بعض أسراها طريقة أخرى، فأوعزت إلى تجّارها بالعدوتين: سلا ورباط الفتح أن يتخابروا سراً مع اليهودي ميمْران، الذي كان مقرّباً من السلطان، ومكلّفاً بالقيام ببعض أعماله، في قصوره، وعيّنت لفداء كلّ أسير ستمائة ليڤر[106]، وأمرتهم أن يقتصروا في هذا الفداء على الزمنى والمرضى والضّعاف، ويبتدئن أولاً بفداء إثني عشر أسيراً كتجربة ومعرفة هل المولى إسماعيل يرضى بذلك، أو يُصرّ على المبادلة رأساً برأس، وزيادة قدرٍ من المال.

فامتنع التجّار الفرنسيون من الخوض في هذه المسألة الصّعبة خوفاً على أنفسهم وتعطيل تجارتهم، لاسيما بعد فشل السفراء في سفاراتهم، وعدم توفّقهم في التوفيق بين مصلحة الدولتين، وعجزهم عن إيجاد حلّ يرضي الجانبين، زيادة على ما هُدّدوا به من الطرد والنفي من أرض المغرب، منذ عهد قريب.

وهكذا لم تنجح هذه المحاولة، ولم يظهر لها أثر في مقاولة ولا معاملة.

106) الليڤر (La Livre) هي السكة التي كانت رائجة في ذلك العهد، وحلّ محلّها الفرنك اليوم.

المبحث الثامن

تردُّد البعثات الرهْبانية برياسة الأبوين بوسنو ونولاصك (Busnot et Nolasque) على المولى إسماعيل لفداء الأسرى[107]

لمّا خاب السفراء في سفاراتهم، ولم يتمّ اتّفاق بينهم وبين السلطان المولى إسماعيل في شأن فداء الأسرى وأحجم التجّار الفرنسيون عن التدخل في هذه المسألة، تشكّلت بعثات رهبانية بفرنسا، برياسة الأبوين بوسنو ونولاصك (Busnot et Nolasque) لفدائهم، وجمعت أموالاً طائلة، وقَدِمَتْ إلى المغرب.

وقد ذكر الأبوان المذكوران أنهما رحلا ومن معهما إلى المغرب ثلاث مرات للقيام بمهمّتهما.

وكان وصولهما إلى مرسى العدوتين أول مرة، أوائل شهر نونبر سنة أربع وسبعمائة وألف (نونبر 1704/ رجب 1116)، وزارا قائد رباط الفتح، وتحادثا معه.

وحدث أثناء إقامتهما بالرباط أن أسلم أحد أسرى البرتقاليين اختياراً منه، بعد خروجه من محلّ إقامة صلاتهم، ولبس العمامة شعار المسلمين، وتشهّد وصار مسلماً وأعلن إسلامه.

---

107) – اقتبسنا معلومات هذا الفصل من كتاب الأب بوسنو الذي بسط فيه مهمّته وسمّاه، «قصص ومغامرات في عهد لويز الرابع عشر». (Récits d'Aventures au Temps de Louis XIV)

– ومن كتاب الأب نولاصك، المسمى : «أخبار رحلات جمعية الرحمة إلى المغرب في سنوات (1704-1708-1717)»

(Relation des Voyages au Maroc des Rédempteurs en 1704-1708 et 1712) par le père Nolsque.

كما أن أسيرا آخر، أصله قبطان بحري من نابولي، كان أسلم سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702)، ندم عن إسلامه، وارتدّ إلى نصرانيته، وأُعلم به الوالي، فقتله حرقا بالنار.

ثم توجّهت البعثة إلى مكناس، وكان وصولها إليه في تاسع عشر نونبر (21 رجب) من السنة المذكورة، وقابلت المولى إسماعيل، فحبّذ عملها ووعدها خيرا.

وأخيرا أخبرها بواسطة رسوله إليها، عبد الله ابن عائشة، بأنه عاهد الله تعالى، أن لا يقبل فداء نصراني أسير إلاّ في مقابلة أسيرين اثنين من المسلمين المستعملين جذّافين في السفن القرصانية بفرنسا، فقبلت منه ذلك على أن تنظر فيه.

وفي الغد رجع إليها الرسول المذكور، وأخبرها بأن السلطان قرر أن يكون الفداء ثلاثة من المسلمين في مقابلة مسيحي واحد، ولا يرجع عن هذا الأمر، فعرضت عليه أن يكون الفداء رأساً برأس مع زيادة قدر من المال، فلم يقبل ذلك منهما، لأن القائد علي بن عبد الله أخبره بأن الإصبانيين يقبلون في فداء أسراهم ستة من أسرى المسلمين في مقابلة مسيحي واحد، وأنه تساهل تساهلاً كبيراً معها.

ولمّا رأت ما آلت إليه المذاكرة والمخابرة، استأذنت السلطان في توجيه اثنين من أعضائها لفرنسا للمذاكرة مع حكومتها فيما عرضه عليها، وباقي الأعضاء ينتظرون رجوعها بالجواب بما يكون عليه العمل بسلا (يعني رباط الفتح).

ثم أنعم عليهم – رحمه الله – بالمنّ على اثني عشر أسيراً فرنسيا، قالوا : كانوا من الشيوخ والعجزة والمرضى في مقابلة الهدية التي قدّموا له عند قدومهم عليه.

وبارحت البعثة مكناس أواخر الشهر المذكور من السنة المذكورة.

وبمجرّد وصولها إلى سلا (الرباط)، وجّهت الأسرى الممنون عليهم بالعتق إلى فرنسا، ما عدا واحد منهم هلك بها.

ثم ورد عليها الأمر السلطاني بمبارحة سلا (الرباط) والتوجه إلى مدينة قادس، وبها تنتظر الجواب من فرنسا، فتوجّهت إليها، وطال مقامها بها.

وفي أثناء هذا المُقام، كانت ترد عليها أخبار متناقضة متضاربة فيما يرجع لمهمّتها.

منها أن الأسرى الفرنسيين، استعطفوا المولى إسماعيل أن يأذن لهم في الاتصال بذويهم، في كيفية فدائهم رأساً برأس، فأذن لهم، فاتّصلوا بهم بواسطة قنصلهم والقائد علي ابن عبد الله القائم بالجهاد بسبتة، وراجت المخابرة بين الطرفين، وأشعرته الحكومة الفرنسية بأن الملك لويس الرابع عشر مستعدّ لإطلاق سراح المغاربة الجذّافين في سُفُنه،

والمستعملين في أوراشه، فداءاً للفرنسيين المستعملين في بناء القصور الملكية بالحضرة الإسماعيلية المكناسية.

وعضّد هذه الرواية ما أخبرها به تُجّارهم وقناصلهم بالعدوتين السلاوية الرباطية، من أن السلطان مستعدّ للمخابرة في الفداء رأساً برأس مع زيادة قدر من المال.

وبمقتضى هذه الأخبار رجعت البعثة إلى المغرب، ونزلت بمرسى العدوتين، ومنها توجّهت إلى مكناس، فوصلت إليه في السابع والعشرين من يوليوز سنة خمس وسبعمائة وألف (27 يوليوز 05/1705 ربيع الثاني 1117)، وقابلها المولى إسماعيل، وكان من جملة ما قال لها أنتم الفرنسيون ليست لكم كلمة يُعتدّ بها ويُعتمد عليها، وطال ما حاولت الاتفاق معكم على الفداء بشرط فكاك أسرانا المغاربة الذين عندكم جدّافين في سفنكم، فراوغتم في ذلك، وإني عاهدت الله تعالى على أن لا أقبل فداء أسير فرنسي إلاّ بفداء ثلاثة من الأسرى المغاربة.

ثم صدر لهم الأمر السلطاني بمبارحة مكناس حالاً، فبارحوه، ورجعوا إلى سلا (الرباط)، وأقاموا بها منتظرين ما سيكون من أمرهم.

وبعد حين، وأخذ وردّ طويل، أنعم عليهم السلطان بواسطة بعض الوسائط بإطلاق سراح عشرين من أسراهم في مقابلة الهدية التي قدّموا له.

وبارحوا المغرب راجعين إلى قادس في التاسع والعشرين من أكتوبر (29 أكتوبر /11 رجب) من السنة المذكورة مقتنعين بما حصّلوا عليه.

إسناد المخابرة في فداء الأسرى
إلى القائد علي بن عبد الله

لمّا رجع الآباء الرهبانيون إلى قادس -كما تقدّم في الفصل السابق- أقاموا بها بضع سنين، تردّد بعضهم أثناءها على باريس والمغرب مراراً بدون جدوى ولا فائدة تُذكر، وحصلت فترة في المذاكرة، وكادت أن تنقطع المخابرة، وتوالت الأيام، وتعاقبت السنون والأعوام، من سنة أربع وسبعمائة وألف (1116/1704) إلى سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

وفي خلال هذه الفترة، أسندت فرنسا مباشرة شؤون قنصليتها بالرباط إلى موسيو دو لاماگدولين (Mr. De La magdeleine) قنصلها بتطوان، وفوّضت إليه استيئناف المذاكرة من جديد في شأن الفداء بين الجانبين على شروط قرّرتها له، وأمرته بالعمل بها.

ثم راجت مراسلات، وتمّت مواصلات بين المولى إسماعيل ولويس الرابع عشر، اقترنت بالتفويض في المسائل الفدائية والشؤون البحرية، للقائد علي بن عبد الله، عامل تطوان وطنجة ورئيس المجاهدين بسبتة.

ولعلّ ذلك تمّ بعد أسر عبد الله ابن عائشة بهولاندا كما سياتي في استقراء أخباره القرصانية، وأعماله السياسية، بصفته قبطان البحر وأميرال سلا.

ونصّ ما خاطب به المولى إسماعيل لويس الرابع عشر في هدا الشان عن كتاب كان كتب له به قبل ذلك في مسائل سياسية أخرى، لا تعلُّقَ لها بموضوعنا.[108]

نص الرسالة

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وحسبنا الله ونعم الوكيل. ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم

عن أمر عبد الله تعالى، المتوكل على الله، المفوض أمره في سائر أحواله، وجميع أقواله وأفعاله، إلى خالقه ومولاه، أمير المؤمنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني، أبَّدَ الله سلطانه، ومهّد بالعافية أوطانه.

الطابع الإسماعيلي الشريف

إلى عظيم الرّوم وكبيرها، ومالك أزمّة أحكامها وتدبيرها، وعارفها بقواعد الإمارة وخبيرها، وارث درجة الملك عن أسلافه وأجداده، ومضيف ما جلّ طارف ذلك إلى ما عظُم من تلاده، الرِّيّ المعظّم دون لويش الرابع عشر أنبلادور فرنسية، وصاحب كُرسيها الأشهر.

السلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وحده ثم اهتدى.

أما بعد، فإنَّا كتبناه لكم من حضرتنا العلية بالله، محروسة مكناسة، أمّن الله أرجاءها، وخصّ بالخيرات الدائمة أنحاءها، ونحن نحمد الله تعالى، ونشكره على ما أسدى من النِّعَم

---

108) ص 464 من المجلد السادس من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وأزاح من النِّقَم، وأفاض من المواهب والرّغائب، ودَرَأً من الأغيار والمصائب، لا أُحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، لا إلاه إلاّ هو سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّاً كبيرا.

وقد ورد على مقامنا العلي بالله كتابكم الذي وجّهتموه إلينا قبل هذا بأشهر عديدة، فقرأناه، وتعرّفنا لفظه ومعناه، ووقفنا منه على أمرين اثنين أحدهما تجديد العهد بنا، وتأكيد ما لكم من الودّ والمحبّة في جانبنا، وتلك عوائد الملوك وسيرهم مع بعضهم، على مرور الدهر، وتقاضي الأزمنة والعصور، جزاكم الله عنّا أفضل ما يجازى به أمثالكم، فقد أدّيتم الواجب وقضيتم المفترض بين الملوك واللاّزم، وحتى نحن والله إلاّ نحبّ مراسلتكم ومكاتبكم على الدوام، ونودّ أن لا تنقطع عنّا، لاسيما إن كانت هكذا لأغراض وأوكام، فإن ذلك سنّة سابقة، وعادة متقدّمة، جارية بين أرباب الدول من الملوك الأُوَل، فلا نحبّ أن تنقطع على يدنا ولا تتعطّل بسببنا، إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون.

والثاني، هو ما ذكرتموه على افتداء من لكم عندنا، وفي أرضنا وبلادنا وبحضرتنا العلية بالله من الأسارى، منذ أعوام وسنين، وذلك ممّا يجب المساعدة فيه، وإن لم تستدعيه ضرورة للأجر الحاصل في استخلاص العاني، وفكّ الأسير، وهذا هو الذي أوجب تأخير الجواب وبطأه، لأنَّ أمور البحر من حيث هي ما لأحد عندنا فيها كلام، لا من خدمتنا، ولا من أعيان مملكتنا، ولا نظر ولا تصرّف إلاّ لأخينا في الله، القائد علي بن عبد الله، صاحب محميتيْ طنجة وتطوان، وما انضمّ إليهما من الأقطار المنبسطة كلّها، فهو الذي صدّرناه لذلك وعيّناه له، ولم نعمل معه فيه شريكاً ولا قسيما، ثقة بعقله ودينه وصيانته ومُرُوأَته، وعلماً بأنه ممّن لا تأخذه في حقّ الله لومة لائم، وكنّا ننتظر وفوده على أبوابنا العلية بالله، ونترجوا الاجتماع به لنتكلّم معه في هذا المعنى، إلى أن جاءنا في هذه الأيام، وناولنا معه الكلام منّا إليه في شأن ما عرّجتم عليه، فأسندنا إليه النَّظر والتَّصرف في ذلك كما كان أو أشدّ، وأنْبناه عنَّا في كل ما يبرمه معكم ويُمضيه، لا في أمر المفادات ولا في غيرها من كلّ ما تريدونه عندنا، وترومون إنجازه منّا، فهو مأذون مفوّض غير مضروب على يده في شيء أراده وابتغاه، وأحبّه وارتضاه، ممّا فيه مصالح الجهتين، ومنافع الملّتين، لكوننا عرفنا دينه ومذهبه وجِدّه وحزمه وصدقه وصونه، وحتى أنتم تعرفون أنه بهذه المكانة، وأنَّ له القدم الرَّاسخة في خدمة أبوابنا العلية بالله، وحظّه بها أوفر الحظوظ وأكبرها وأعظمها وأكثرها، وكلّ ما في أغراضكم، وما تريدونه عندنا يُقضى لكم بعون الله على يده، وبواسطته، وبوقوفه ورغبته وشفاعته، ولا ياتي على يده إلاّ الخير إن شاء الله تعالى.

والسلام على من اتبع الهدى.

في أواسط جمادى الثانية عام ثلاثة وعشرين ومائة وألف

(أواسط جمادى الثانية 14-15/1123 يوليوز 1711).

وحيث كان كتاب لويس الرابع عشر الذي ترتّب عنه هذا الجواب، ووجّهه الوزير بونشرطران إلى المولى إسماعيل بواسطة القائد علي بن عبد الله المذكور، فقد أجابه برسالة يُعلمه فيها بأنه بعدما أوصل الكتاب الموجه بواسطته إلى جلالة السلطان، تخابر معه فيما يرجع لمسائل الأسرى، وأسند إليه التفويض التام في ذلك، ونصّها :(109)

نص الرسالة :

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم

إلى كبير المملكة الإفرنجية ووزيرها الأعظم والقائم بشؤونها في برّها الأكبر وبحرها الخضم، ومن إليه تنتهي أوامرها فوق وتحت وخلف ومن أمم، الأنجب، الأدرب، الكوندي دو بونشرطران.

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد، اعلم أن كتابك وصلنا قبل هذا بأشهر، فقرأناه، وتعرّفنا بما فيه، وهو كتاب مليح، وخطاب فصيح، يشهد لصاحبه بقوة الإدراك وكثرة الفهم، واتساع العارضة، أعجبنا والله، ووقع في قلوبنا وخواطرنا كلّ موقع. وعلمنا أنك صاحب رأي وسياسة ونظر بليغ، ومن مثلك يكون للملوك الوزراء والقرباء والأعوان، والأصحاب والأخدان، الذين يعينونهم على بلوغ المقاصد ونيل الآمال، في المصادر والموارد، دمت على ما أنت عليه في رتبتك ومكانتك، ومنزلتك ومثابتك.

وقد وصلنا مع كتابك كتاب سلطانك لسيدنا ومولانا أمير المومنين الشريف المنيف، سليل النبوة والرسالة، وفَسِيلِ السُّلالة التي كان من أجلها الكون، وأكْرِمْ بها من سلالة، مولانا إسماعيل، بن مولانا الشريف، الطيب المنيف، فأتهيناه لمقامه الأسمى على يدنا،

109) ص 473 من ج 6 من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة» السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وبعثنا به إليه في الحال، ومازلنا نسعى في قضاء الغرض الذي عرّجتم عليه، وأومأتم إليه، ونجدّ ونجتهد في تحصيله سرّاً وجهرا، ووِرداً وَصدْرا، إلى أن قضى الله بوصولنا للحضرة المولوية محروسة مكناسة أمّنها الله، التي هي اليوم أمّ القرى، وقاعدة الملك الوثيقة العرى، العالية الذرى، فما اجتمعنا بسيّدنا، أبقاه الله وأرقاه، وألبسه ملابس خشيته وتقاه، وقضينا الواجب من زيارته، حتى ذكرنا له أغراضكم، وكانت من مهمّات الأمور لدينا فأجابنا أدامه الله بالقبول والرضى، وفوّض لنا التفويض التام في الكلام معكم على فداء الأسارى وعلى غيره ممّا تاملونه من عليّ مقامه، وأعطانا الإذن التّام في أخذ جميع ما نريد أخذه من أسراكم، والإتيان به معنا، وأسند إلينا في ذلك من النّظر والتّصرف ما لا وراءه ورا، بارك الله في عمره، ومتّعنا بطول حياته.

فاقتضى نظرنا بعد الإمعان والتفكّر أنْ لا نأتي بجميع الأسارى، ولا بغالبهم اتّقاء أمور وأشياء لا تخفى عن أمثالكم، فإنّ الإنسان الحازم يجب عليه أن لا يُقدم على أمر حتى يقرأ عاقبته، ويعلم ما يترتّب عليه، سيما وعوارض الوقت ونوازله وبواعثه أكثر من أن تُحصى أو تُستقصى، وما رأينا أَوْلى من الإقتصار على عشرين رجلاً منهم، أتينا بهم معنا، وجئنا بهم في أيدينا، وها هم اليوم عندنا بمحروسة طنجة، أمّنها الله، مكرّمون محتاطون، فإذا جاءت فديتهم، وتمّ الفصال فيهم على الوجه الذي وقع الاتفاق عليه، وأتى عوضهم من المسلمين الذين هم المقصود الأهم، والغرض الأكبر من أعمال هذه المفادات، يعقبها ما بقي إن شاء الله، ويكْمل الغرض، وتبلغ الأمنية غايتها من كلتي الجهتين.

وقد عرّفناك بهذا وأخبرناك به لتسارع بالجواب عنه عزْما، فإنّ العزم له بركات، والتأخير غير محمود في غالب الحالات.

وقد أوصينا القُونْصُ بالكتب إليك على بعض الأغراض معيّنة تأتينا في جملة هذه المفادات، فنحبّ منك أن تعنى بها لتجيئنا على الغرض والمقصود.

والسلام على من اتبع الهدى.

في مُهَل رجب من عام ثلاثة وعشرين ومائة وألف

(01 رجب 15/1123 غشت 1711)

الإمضاء : طابعه بداخله :

خديم المقام العالي بالله علي بن عبد الله الحمامي، وفّقه الله.

وبمقتضى هذه الرسالة المتبادلة، وتنفيذاً لما جاء فيها، اتّصل به رهبان الفداء، وبعد المخابرة الطويلة، تمّ الاتفاق بينهم وبينه على فداء الأسرى من الطرفين، وأن يقع تسليمهم بسبتة رأساً برأس مع زيادة ثلاثة مائة بياسطر (Piastres) عن كل فرنسي تم فداءه، وأخبرهم بأنه أحضر معه من مكناس عشرين أسيراً فرنسياً في مقابلة عشرين من الأسرى المغاربة، طبق ما ذكره في كتابه للوزير بونشرطران.

ولكن لم يتم هذا الاتفاق، لأنّ البعثة الرّهبانية، لمّا جاءت لسبتة، أرادت أن تأخذ جميع الأسرى الفرنسين الذين كانوا بمكناس، وواعدت بإحضار الأسرى المغاربة من فرنسا بعد ذلك في أجل غير محدود، فنكثت بذلك عهدها، وأخلفت وعدها، وغضب القائد علي بن عبد الله، وقطع المخابرة معها في الحين، وقبض على الرّسل الذين كانوا واسطة في المخابرة من الفرنسيين، وسجنهم، وأثقلهم بالحديد، وفتح أفواه مدافعه على سبتة، وأعلنها حرباً شعواء على من بها.

وطيّر رئيس البعثة الخبر إلى حكومته بباريس بما وقع، فأجابته بالتّساهل في القضية، وأمرته بتسليم العشرين أسيراً مغربياً الذين عنده، وأخذ العشرين أسيراً فرنسياً الذين أحضرهم القائد علي بن عبد الله في مقابلته، وتمّ ذلك على يده قرب سبتة في السابع والعشرين من أبريل سنة إثني عشرة وسبعمائة وألف (27 أبريل 20/1712 ربيع الأول 1124).

واستقبل القائد علي الأسرى المغاربة في مهرجان كبير وإطلاق المدافع والبارود فرحاً بهم، ثم أشخصهم إلى السلطان بمكناس.

واستقبل إصبان سبتة الأسرى الفرنسيين باحتفال وإطلاق المدافع أيضا، ورجعت البعثة بهم إلى فرنسا.

وحيث كان تأخر دفع المال الموظّف على الأسرى الفرنسيين عن أجله، فإنّ القائد علي ابن عبد الله قنبل المدينة مرّة أخرى منذراً بالحرب.

وبمجرّد ما وصل المال، أعلمه رئيس البعثة بوصوله، فوجّه كاتبه، وبعض المبعوثين من قبَله، إلى المحل الذي وقع به تسليم الأسرى قرب سبتة، وحضرت البعثة الفدائية ومن معها، واستوفاه منها.

هذا وقد أخبر الأب بوسنو (Busnot) في كتابه أنه مات من الأسرى الفرنسيين بالمغرب

نحو ستمائة أسير، وأسلم منهم نحو خمسمائة في عدة سنين، والباقي هو الذي كانت المخابرة بالفداء في شأنه.

وقد نظّمت هذه البعثات الرّهبانية عدة جمعيات لفداء الأسرى وشرائهم من ملاّكهم، أو تهريبهم واختطافهم وإخفائهم بواسطة المهرّبين الميطادور (Metadores)، وهم جماعة من الراغبين في الحصول على المال بأي وجه أمكن، كانوا يشتغلون بتهريب الأسرى بعد الاتفاق معهم، أو مع أسرهم بواسطة قناصلهم وتُجّارهم على قدر معلوم من المال، فيُهرّبونهم مختفين إلى مرسى من المراسي المغربية المحتلة، كسبتة أو مليلية أو الجديدة. وفي الغالب كانوا يخدعونهم، ولا يَفُون بعهدهم ووعدهم، أو لا يؤدُّون لهم شيئاً بالكلية. ولكنهم كانوا إذا عُثر عليهم، لا تغيب عنهم محنة، ويعاقب الهارب والمهرّب بالسجن والعذاب أو الموت. ولو تتبّعنا أخبارهم ونوادرهم وما وقع لهم أثناء هروبهم من الغرائب، لطال بنا ذلك.

وأفاد الأب بوسنو أيضاً أنَّ الأب دييگو (Diego) الإصباني كان قدم على المولى إسماعيل أيضا، على رأس بعثة رهبانية أخرى، واتّفق معه على فداء الأسرى الإصبانيين، فأطلق له مائتي أسير إصباني بثمن قدره خمسين ألف بياسطر (50.000)، وكلّهم من العجزة والضعاف والشيوخ.

وقد فصّل الأبوان بوسنو ونولاصك أخبار رحلاتهما إلى المغرب تفصيلاً وافيا، ووصفا وفودهما على السلطان المولى إسماعيل بمكناس، وبيّنا كيفية مذاكرتهما معه، ومع قواده ورجال دولته في كتابيهما الذين اقتبسنا منهما هذه المعلومات.

وسطّرا أموراً لا شك أنّها لا أصل لها. وإنما هي أضاليل وبهتان ومختلقات كان ينبغي لهما أن يتحاشيا عن ذكرها، وينزّها قلمهما عن تسطيرها، وبعضها إنّما هو فضول أو عدم فهم للحوادث كيف حدثت وبرزت، وجهل بالعوائد والأخلاق المغربية، زيادة على الإزدراء والسخرية بالدِّين والوطن والأمّة.

وفي الحقيقة هما كغيرهما من كُتّاب ذلك العصر الذين كانوا، لتعصّبهم، يُغيّرون الوثائق، لِتَنْطَمِسَ الحقائق.

وَعَــيْنُ الرِّضى عن كلّ عــيبٍ كليلَةٌ   ولكنّ عــيْن السُّخْطِ تُبْـدِي المَســاوِيَا

الفصل الرابع

عن بعض المعلومات المتعلّقة بالأسرى المغاربة الذين كانوا مستعملين في الأوراش والسفن الحربية المجذافية (Les Galères) الفرنسية.

مبحث فريد

قائمة أسماء بعض الأسرى المغاربة بفرنسا ما بين سنة 1700/1111 و1139/1727، وبعض الرسائل الصادرة عنهم إلى ذويهم

لقد اعتنى الفرنسيون اعتناءً كبيراً بحفظ أسماء أسراهم الذين كانوا بالمغرب، ولم يهتمّوا بتقييد وحفظ إلاّ بعض أسماء الأسارى المغاربة الذين دعت الحاجة إليهم في مبادلة أو فداء بواسطة المخابرة الدبلوماسية، أو بواسطة رُهبان الفداء، أو القناصل والتجار، مع آبائهم وأُسرهم وأوليائهم، أو لتقييدهم في سجلات الجذّافين في السفن أو المستعملين في الأوراش البحرية، وما حُفظ من هذه الأسماء، وعُثر عليه مُبعثراً في بعض السجلاّت والأوراق، وُجِد مصحّفاً محرّفاً لا يكاد يُقرأ ولا يُفهم.

وقد عثرنا على قائمة من أسماء هؤلاء الأسرى[110]، وجلّهم من تطوان وسلا ورباط الفتح، فأحببنا نقلها هنا، تتميماً لما تقدّم في شأنهم من السفارات والمخابرات الرسمية، في عهد الدولة الإسماعيلية ولويس الرابع عشر لِمَا في ذلك من الفائدة التاريخية لأُسرهم التي لازالت معروفة أو انقرضت.

وقد بذلنا غاية المجهود في تصحيح ما اهتدينا إلى تصحيحه منها، وراعينا في ترتيبها حُروف الهجاء العربية وهي :

---

110) المجلد السادس من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا من ص 53 إلى ص 84.

1- إبراهيم بن أحمد

أصله من سلا، وكان عُيِّن في فداء بعض الأسرى سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (1699/1110-1111)، فلم يتمّ ذلك، وتأخّرَ إطلاق سراحه إلى أن فُدي به أسير آخر سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1702/1113-1114).

2 – إبراهيم بن عيسى

أصله من العرائش، وأمّه إسمها للا فاطمة الزهراء، حرفته نسّاج، طويل القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أسمر اللون، به أثر جرح في جبهته.

وصل إلى مرسيليا أسيراً آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1707/1119)، وهو ابن أربعين سنة.

3 – الطالب إبراهيم بن محمد الفنتوري الماسي

كان هذا الأسير تقرّر إطلاق سراحه أثناء المناورة التي قام به أحد قراصنة الأسطول الفرنسي بشواطئ المغرب سنة سبعمائة وألف (1700/1112-1111) فداء لبعض الأسرى الفرنسيين، ثم أُبطل هذا التقرير لأنه فرّ بنفسه.

4 – الحاج إبراهيم الخيْطي

كان طالب بإطلاق سراحه عبد الله ابن عائشة، عقب رجوعه من سفارته بفرنسا سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (1699/1111).

ولكن تأخر ذلك إلى سنة إحدى وسبعمائة وألف (1701/1113-1112)، وفُدي به أسير فرنسي بالمغرب.

5 – أحمد بن أحمد

أصله من تطوان، أُطلق سراحه سنة سبعة عشرة وسبعمائة وألف (1717/1129) بطلب من جميعة فداء الأسرى.

6- أحمد بن أحمد آخر

أصله من أگادير، أسود اللون، طويل القامة، مُستطيل الوجه، أفطس الأنف، مفلفل الشعر.

فُتن في دينه، وتمسّح والعياذ بالله بإصبانيا واشتُري منها، وجيء به إلى فرنسا سنة ست وثمانين وستمائة وألف (1097/1686) وهو ابن اثنين وأربعين سنة.

7- أحمد الغنيمي السّلاوي

من أهل سلا، كان بحّارا، قصير القامة أسود الشعر مدوّر الوجه، برأسه أثر جروح، أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن سبعة عشرة سنة.

وأُسرة الغنيمي سلاوية، ومازالت موجودة بسلا إلى وقتنا هذا.

8- أحمد بن عبُّود السّلاوي

أصله من سلا، وكان عسكريا، متوسّط القامة، أسفع الشعر، بيضوي الوجه، مبرقشه، أفطس الأنف، أشرم الشفة العليا من ناحيتها اليمنى.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ثمان عشرة سنة.

9- أحمد بن عبد اللّه

من المهدية قرب سلا، وأُمّه إسمها فاطمة الزهراء، حسن القامة، بيضوي الوجه، أسود الجسم والشعر، به أثر جرح بذراعه الأيمن.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن عشرين سنة.

10 - أحمد بن عبد الله آخر

أمه إسمها زهراء، وأصله من أصيلا، وحرفته نسّاج، مُعتدل القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، به أثر جرح فوق عينه اليمنى.

أُسر سنة ست وسبعمائة وألف (1118/1706)، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وسُرّح في مبادلة أسير تركي إسمه عبد الكريم حسين آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

11 – أحمد بن عبد الخالق

أصله من رباط الفتح، متوسّط القامة، قويّ البنية، أصهب الشعر، به أثر جرح فوق حاجبه الأيسر.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن اثنين وعشرين سنة، ومات بالمستشفى سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

12 – أحمد بن عبد السّلام بن يحيى

أصله من تطوان، ويُقال له أحمد اللّبدي سلاّم، أُمّه إسمها فاطمة، وأُخته رقيّة، وأخوه محمد.

أُطلق سراحه بطلب من عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله، آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة (1123/1711).

13 – أحمد بن أحمد

أصله من سلا، طويل القامة، أسود الشعر.

أُسر سنة سبعين وستمائة وألف (1081/1670)، وهو ابن خمس وثلاثين سنة، ومات بالمستشفى آخر سنة أربع وسبعمائة وألف (1116/1704).

14 – أحمد بن أحمد آخر

أصله من فاس، وحرفته فلاحة الزيتون، قصير القامة.

أُسر سنة ستين وستمائة وألف (1070/1660) وهو ابن ثمان وعشرين سنة، ومات غرقا في البحر سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702).

15 – أحمد بن أحمد بن سالم

أصله من أصيلا، كان أُطلق سراجه سنة أربع وسبعمائة وألف (1115/1704)، ثم أُعيد اعتقاله في السنة نفسها، قالوا : لموجب سياسي ؟.

16 – أحمد بن علي

أصله من تطوان، متوسط القامة أسود الشّعر.

أُسر سنة سبع وستين وستمائة وألف (1078/1667)، وهو ابن أربعين سنة، ومات بالمستشفى أواسط سنة ست وسبعمائة وألف (1117/1706).

17 – أحمد بن علي آخر

أصله من سلا، ويُقال له أيضاً علي ينّعمان.

أُسر سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (1092/1681)، وهو ابن تسع وثلاثين سنة.

وأُطلق أواخر سنة إحدى وسبعمائة وألف (1114/1701)، بعد أداء فداء قدره أربعمائة ليبرة (400)، بطلب من امرأة فرنسية فداءً لزوجها الذي كان أسيراً بالمغرب.

18 – أحمد بن علي آخر

أصله من سلا، وكان نوتياً بها، معتدل القامة بيضوي الوجه، أسمر اللون، بجبهته أثر جرح من الناحية اليُسرى.

أُسر سنة ست وثمانين وستمائة وألف (1097/1686)، وهو ابن خمس وعشرين سنة.

ومات بالمستشفى سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1114/1703).

19 – أحمد بن علي آخر

أصله من سلا، وكان نوتياً بها، طويل القامة، صحيح البنية، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، بأعلى رأسه أثر جرح مستطيل.

أُسر وهو ابن ثلاثين سنة، سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691).

ومات غرقاً في البحر سنة سبعمائة وألف (1111-1112/1700).

20 – أحمد بن علي آخر

أصله من العرائش، وأُمه إسمها آمنة، قصير القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، بجانب عينه اليمنى خال، وفوق معدته نكتة سوداء.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1106/1693)، وهو ابن خمس عشرة سنة.

21 – أحمد بن علي آخر

أصله من سلا، وكان جذّافاً في السفن بمدينة دونكيرك (Dunkerque)، وأُطلق سراحه بأمر من الملك سنة تسع وسبعمائة وألف (1120/1709).

22 – أحمد بن عمرو

كان أسيرا، وعُيّن في فداء أسير فرنسي سنة أربع وسبعمائة وألف (1116/1704)، ونُفّذ ذلك سنة خمس وسبعمائة وألف (1117/1705).

23 – أحمد بن إبراهيم

أصله من رباط الفتح، معتدل القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، عريض الكتفين.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن خمس وأربعين سنة.

ومات بالمستشفى سنة ست وسبعمائة وألف (1117-1118/1706).

24 – أحمد بن إبراهيم آخر

أصله من رباط الفتح أيضا، وأمه إسمها مباركة، متوسط القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أسمر اللون، به أثر جرح بذراعه الأيمن.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1118-1119/1707)، وهو ابن سبع عشرة سنة.

25 - أحمد بن قاسم

أصله من تطوان، متوسط القامة، بيضوي الوجه، أسود الشعر.

أُسر سنة ست عشرة وسبعمائة وألف (1128/1716)، وهو ابن ثمان عشرة سنة.

وأُطلق سراحه فداء لأسير فرنسي سنة سبع عشرة وسبعمائة وألف (1130/1717).

26 - أحمد بن قاسم آخر

أصله من سلا، وأمه اسمها آمنة، كان بحارا، معتدل القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، مُجدّره، وبرجله اليسرى أثر جرح، ويتكلّم الفرنسية.

وصل إلى مرسيليا مأسوراً آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1707/ رمضان 1119)، وعمره عشرون سنة.

وأُطلق سراحه سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709) في جملة أسرى آخرين كان تم الاتفاق على فدائهم، إلاّ أنه لم يُعثر له على اسم في جملة الأسرى الذين وصلوا إلى المغرب بأمر من السلطان.

27 - أحمد بن قاسم آخر

أصله من سلا أيضا، وكان بحارا، طويل القامة، صحيح البنية، أسود الشعر.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ست وثلاثين سنة.

28 - أحمد بن قاسم آخر

أصله من تطوان، وأمه اسمها مريم، حرفته بحّار، متوسط القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، بجبهته علامة من الجهة اليسرى.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثلاثين سنة.

ومات ببادية طولون (Toulon)، كان مستعملاً في بناء بعض الحصون.

29 - أحمد بن قاسم آخر

ريفي الأصل، ومن سكان ناحية سلا، وكان يُقال له مُوكْلارْ.

أُطلق سراحه آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711)، بطلب من قائد تطوان وطنجة علي بن عبد الله.

30 - أحمد بن منصور

أصله من أكادير، وأمه اسمها عائشة، حرفته بنَّاء، معتدل القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، بيده اليُمنى أثر ضربة بالسيف.

أُسر آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وعمره خمس وعشرون سنة، ونبذ دينه والعياذ بالله، ودخل في المسيحية، وهلك بالمستشفى سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

31 - أحمد بن محمد

أصله من سلا، متوسط القامة، أسود الشعر، بخدّه الأيمن أثر جرح، بيضوي الوجه.

أُسر وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

32 - أحمد بن محمد آخر

أصله من تطوان، وأمه اسمها مريم، حرفته صيْد السمك، متوسط القامة، وبأعلى جبهته أثر جرح.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1105/1693)، وهو ابن أربع وعشرين سنة.

33 - أحمد بن مَحمد فتحاً التطواني

أمه اسمها فاطمة، معتدل القامة، أشمط الشّعر، بيضوي الوجه، أسمر اللّون، مصاب بإصابة مدفع في كفَله.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو شيخ ابن ثلاث وسبعين سنة.

وأُطلق سراحه أواسط سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711)، بأمر من الملك لشيخوخته، ولأنه لا فائدة فيه.

34 - أحمد بن محمَّد تجين

أُطلق سراحه سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) في جملة إحدى وثلاثين أسيراً تمَّ الاتفاق على فدائهم، نتيجة المخابرة التي قام بها عامل تطوان وطنجة، القائد علي ابن عبد الله الحمامي.

35 - أحمد بن محمَّد بن أحمد بسّير

أصله من رباط الفتح وأُطلق سراحه سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وألف (1124/1712)، بطلب وإلحاح من القنصل الفرنسي پيريليي (Perillié)، عِوَضاً عن الأسير علي بن المقدَّم الزناتي المقتول أثناء بعثه إلى وطنه.

وأُسرة بسّير مشهورة بالرباط.

36 - أحمد بن رحّال

أصله من تطوان، ويُقال له أحمد رحّال عبد السّلام.

أُطلق سراحه بطلب من عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله، آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

37 - أحمد بن يعقوب بن سعيد

أصله من سلا، وأُسرة يعقوب مشهورة بها، معتدل القامة، أسود الشعر، به أثر جرح فوق حاجبه الأيسر.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن عشرين سنة.

ومات بالسَّفينة التي كان مستعملاً فيها بمرسى طولون أواسط سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وألف (1125/1713).

38 – أحمد بوعمرو

من أهل سلا، أُطلق سراحه فداءً لأحَدِ الفرنسيين سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وألف (1123/1712).

39 – أحمد شمسي

من أهل سلا، معتدل القامة، أغمّ الشعر، برأسه قزع.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ثلاثين سنة. وأُطلق سراحه منتصف سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709)، بمقتضى الاتفاق الذي تمّ مع جمعية فداء الأسرى.

ورجع لبلاده في السنة التي بعدها، وهي سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

40 – أحمد الهاشمي

من العرائش، ويُقال له أحمد عمّار.

توسّط في فدائه عامل تطوان وطنجة القائد علي بن عبد الله.

وأُطلق سراحه آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

41 – أحمد اللّيفي

أصله من أصيلا، ويُقال له أحمد الأندلسي.

توسّط في فدائه عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

42 – أحمد المشيشي

أُطلق سراحه منتصف سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709) بمقتضى الاتفاق المُبْرم مع جمعية فداء الأسرى.

ومات بمالقة أثناء رجوعه لوطنه سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709)، وهي السنة التي أُطلق سراحه فيها.

43 - الحاج أحمد كيكو

أطلق سراحه سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725)، مع اثني عشر من الأسرى رفقائه، بمقتضى الاتفاق المبرم مع جمعية فداء الأسرى لتحرير سبعة عشر من الأسرى الفرنسيين، ولكنه مات قبل وصوله إلى وطنه.

44 - أحمد مونجي التطواني الحاج

أصله من تطوان، كان أُسر سنة ست وسبعمائة وألف (1118/1706)، فسعى في إطلاق سراحه القائد علي بن عبد الله، فسُرِّح سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

45 - أحمد المراني

أصله من سلا، ويُقال له أيضا أحمد محمَّد.

أُطلق سراحه بطلب من عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

46 - أحمد راغون

أصله من تطوان.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1103/1693). ومات غريقاً بقادس سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1114/1703).

47 - أحمد صندال

أصله من رباط الفتح، وأُسرته مشهورة بها، أُطلق سراحه في جملة ثلاثة عشر من رفقائه الأسرى بمقتضى الاتفاق المبرم مع جمعية فداء الأسرى. وسلِّم للسلطان ببلده أواخر سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

48 – أحمد سنتياكو

أصله من مدينة الرباط، وأُسرته معلومة بها.

وأُطلق سراحه في جملة الأسرى المتفق عليهم مع جمعية فداء الأسرى.

ورجع لبلاده، وسلّم للسلطان أواسط سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

49 – أحمد شُوِيشُو

ويُقال له أحمد شِيشُو، أصله من تطوان.

أُطلق سراحه بطلب من عامل تطوان وطنجة القائد علي بن عبد الله آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

50 – أحمد حميرت

أصله من رباط الفتح، وأُطلق سراحه بأمر من ملك فرنسا، بطلب من جميعة الفداء الرهبانية التي وعدت بتسريح خمسة عشرة بحّاراً مغربياً فداء لسبعة عشر أسيراً فرنسيا.

51 – أميساك دافور

قبطان سفينة، أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1103/1693). وسُرّح بقادس سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1114/1703)، فداء لأحد الفرنسيين كان أُسر بالعرائش، بعد أداء أربعمائة ليڤر.

52 – بلخير بن محمّد الشريف

أصله من تطوان، وأُمه اسمها فاطمة، سوداء، كان بحّارا، طويل القامة مفلْفل الشعر، مستطيل الوجه، بيده اليسرى أثر جرح، وكذلك بكعب رجله اليسرى.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1104/1693)، وهو ابن ثلاثين سنة، ومات بالمستشفى سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

53 – بوعصامة

بحّار سلاوي، كان أسيراً وأُطلق سراحه فداء لأحد الأسرى الفرنسيين بواسطة جمعية الآباء الرهبانية، سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

54 – بوعزة ؟

كان بحّاراً بسلا، وبعد أسره استُعمل بحّاراً بدونكيرك (Dunkerque)، فتنصّر والعياذ بالله.

ولمّا أُطلق سراحه سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وألف (1125/1713)، أصدر الوزير بونشرطران أمره بمنعه من الرجوع إلى بلاده، واستعماله في البحرية الفرنسية ليجد ما يتعيّش به.

55 – بوجمعة بن علي

أصله من العرائش، وأمه اسمها رحمة محجوبة، حرفته بحّار، طويل القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أسود اللّون، بركبته اليمنى أثر ضربة بالسيف.

أُسر آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن خمسين سنة، ومات بالمستشفى آخر سنة تسع وسبعمائة وألف (1120/1709).

56 – بوجمعة بن محمّد

أصله من مراكش، وأمه اسمها هوكة، حرفته فتّال الحبال، متوسّط القامة، أسود الشعر والبشرة، بيضوي الوجه، بيده اليسرى أثر احتراق.

جيء به أسيراً إلى مرسيليا، آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ست وأربعين سنة. ومات بالمستشفى أواسط سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

57 – بو الحجّاج بن علي

كان بحّاراً بسلا، قصير القامة، أصهب الشعر، مستطيل الوجه، بخدّه الأيسر أثر جروح.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1104/1691)، وهو ابن ست وأربعين سنة.

ومات بالمستشفى سنة عشرة وسبعمائة وألف (1122/1710).

58 - بلخير بن مبارك

أمه إسمها مسعودة، وزوجته إسمها فاطمة، وحرفته مدفعي، من مواليد سوس، قرب أكادير، حسن القامة، أسود الشعر، أسمر اللون، صحيح قوي، به أثر مرض الزهري فوق عينه اليسرى، وبصمة حدائها.

أُسر بشواطئ الجديدة، أواسط سنة ست وسبعمائة وألف (1118/1706)، وهو ابن ثلاثين سنة، وسيق إلى مرسيليا واستُعمل في خدمة السُّفن، فطالب السلطان المولى إسماعيل بإطلاق سراحه، فسُرّح آخر السنة المذكورة.

59 - بوسلهام بن الحسن

من أهل سلا، أُسر واستُعمل جذّافاً في السُّفن.

ففرّ سنة خمس عشرة وسبعمائة وألف (1127/1715).

60 - بوسْمان بن مالك

كان بحّاراً بسلا، معتدل القامة أصهب الشعر، بيضوي الوجه، بأنفه علامة.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1104/1691)، وهو ابن إحدى وثلاثين سنة.

61 - الجيلاني بن محمّد

أصله من العرائش.

حاول هذا الأسير الحصول على حرّيته مراراً عديدة بعدّة وجوه، منذ سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وألف (1133/1721)، وفي كل مرة ترفض الحكومة الفرنسية المطالب المقدّمة في شأنه إلى أواسط سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وألف (1136/1723)، فدفع حينئذ هو في فداء نفسه ثمانمائة ليفر، لتشتري بها الحكومة أسيراً آخر عِوَضاً عنه يقوم مقامه في التجذيف في السفن، وبذلك خلّت سبيله.

62 - حمود بن علي

أصله من العرائش، وأمه اسمها رحيمة، حرفته بحّار، متوسّط القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أصلع الرأس، به ورم في عنقه من الناحية اليسرى.

وصل أسيراً إلى مرسيليا، وهو ابن ثلاثين سنة، آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

63 - حمّود بن عبد الله حمّود

أصله من سلا، متوسط القامة، أصهب الشعر، مدوّر الوجه، له عذبة فوق جبهته من الناحية اليسرى.

أُسر وهو ابن ست عشرة سنة.

قيل : ولعله هو عمّار عبد الله الذي اتّحد معه في رقم إطلاق سراحه سنة خمس عشرة وسبعمائة وألف (1127/1715).

64 - حسن ؟

أصله من تطوان، زَمِنٌ، مريض، ضعيف.

أُطلق سراحه سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1113/1702) بطلب من قاضي سلا ؟ بعد أداء خمسين وأربعمائة ليفر.

65 - حسن بن عبد الله

أصله من رباط الفتح، أُطلق سراحه آخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725) بطلب من جمعية الفداء الرهبانية في فداء أسير فرنسي.

66 - حسن بن عبد السلام الحجْري

أصله من تطوان، وحرفته بحّار، حسن القامة أصهب الشعر، بيضوي الوجه مجدّره.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

ومات بالمستشفى أوائل سنة عشر وسبعمائة وألف (1121/1710).

67 - حسن بن علي

أصله من سلا، حرفته نوتي، قصير القامة، أغمّ الشعر، بأُذنه اليمنى عدّة علامات.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691).

68 - حسن بن الحسن

أصله من تطوان، وأمه اسمها زهراء، حرفته بحّار، معتدل القامة، أصهب الشعر، مدوّر الوجه، مجدّره، بجبهته علامة.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1118/1707)، وهو ابن خمس وعشرين سنة.

ومات بالمستشفى سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

69 - حسن بن محمّد الوطاري

أصله من تطوان، وأطلق سراحه سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) بطلب من عامل تطوان وطنجة القائد علي بن عبد الله.

70 - حسن بن موحا بن مولود

توسّط في إطلاق سراحه عامل تطوان وطنجة القائد علي بن عبد الله سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

71 - حسن بن رُونْدَا

أصله من تطوان، وأطلق سراحه آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) في جملة اثنين وعشرين أسيراً آخرين على يد القائد علي بن عبد الله.

72 - حسن بن عزّوز

أُطلق سراحه أواسط سنة ثمان عشرة وسبعمائة وألف (1131/1718)، بعد أداء ثلاثمائة ليفر.

ومع أنه كان صغير السنّ، صحيح البنية، قويًا، فقد وقعت المساعدة على إطلاقه تلبية للطلب الموجّه لنائب الملك بفرنسا من بعض الأعيان، لفداء بعض قرابته من الأسرى الفرنسيين بالمغرب.

73 - حسن حسين

أصله من سلا، وكان عسكريا، قصير القامة، أصهب الشعر، مستطيل الوجه، أقنى الأنف.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ست عشرة سنة.

وأُطلق سراحه سنة خمس وسبعمائة وألف (1117/1705) بعد أداء أربعمائة ليڤر فداء لأسير فرنسي.

74 - حمود ميني

أصله من سلا، وأُطلق سراحه بمقتضى الأمر الملكي الصادر أواخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725) بإطلاق سراح بعض الأسرى من الجانبين المغربي والفرنسي.

75 - رابح بن بلخير

أصله من مكناس، وأمه اسمها مرزاقة، وحرفته حلّاق، حسن القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أسود اللون. مقطوع خنصر الكف الأيمن.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1120/1707)، وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

ومات بالمستشفى سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

76 - رحّال بن قاسم

أصله من سلا، وحرفته بحّار، متوسّط القامة، صحيح البنية، أصهب الشعر، بخدّه الأيسر دمغة مدورّة.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ست وعشرين سنة.

77 - الرُّقَيْوق

بحّار تطواني، طالب بإطلاق سراحه عامل تطوان وطنجة القائد علي بن عبد الله سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1124/1711).

78 - رمضان قيولان

مسيحي أصله من مرسيليا، وأسلم وصار بحّاراً قرصانياً سلاويا.

معتدل القامة، أسود الشعر، تعاطى حرفة القرصنة وهو ابن تسع عشرة سنة، منذ سنة خمس وسبعين وستمائة وألف (1086/1675).

وأُسر بفرنسا، فصدر الأمر من لويس الرابع عشر بإطلاق سراحه، سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وألف (1123/1712)، ولعلّه ترغيباً له في الرجوع إلى النصرانية.

79 - طاهر بن عبد الله أكم

أصله من العرائش، وأمه اسمها فاطمة، حرفته جرّاح، طويل القامة، أسود الشعر، أسمر اللون، بيده اليمنى أثر جرح.

أُسر آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1120/1707)، وهو ابن أربعين سنة.

80 - الطيب بن الحاج أحمد

أصله من سلا، وأمه اسمها عائشة، حسن القامة، أسود الشعر، به أثر جرح بطرف جبهته وبكتفه الأيسر، وركُبته اليسرى.

أُسر سنة أربع وسبعمائة وألف (1116/1704)، وهو ابن عشرين سنة.

وقيل : لعلّه محمد بوكانو، أو الطيب بوكانو، لاتحادهما في رقم الأسرى الذين كانوا بفرنسا، وطالب السلطان المولى إسماعيل بإطلاق سراحهم سنة ثمان عشرة وسبعمائة وألف (1130/1718).

وسُرّحوا على يد جميعة الفداء الرهبانية المرسيلية، سنة عشرين وسبعمائة وألف (1132/1720)، فداءً لبعض الأسرى الفرنسيين بالمغرب.

81 - مبارك ؟

أصله من سلا، وكان أنعم عليه ملك فرنسا بإطلاق سراحه فداءً لأسير فرنسي سنة سبعمائة وألف (1112/1700)، فلم يتم ذلك وبقي في أسره.

82 - مبارك بن الحسن

أصله من سلا، وأُسر سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (1119/1698).

وأُطلق سراحه سنة ست وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1726) بعدما أدّى فداء ستمائة وألف ليڤر.

83 - مبارك بن منصور

كان أسيراً بدونكيرك (Dunkerque).

وفي سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709) سلّم مع رفيق له إسمه محمد سياتي ذكره بعد هذا إلى أحد التجار الفرنسيين الذين كلّفهم لويس الرابع عشر بالتوجه إلى المغرب بقصد شراء القمح، ليُعيناه على مهمّته، ويتوسّطا له في إطلاق سراح أسيرين فرنسيين فداءً لهما.

ولكن هذا التاجر، لم يُعرّج في وِجهته هذه على المغرب، وبمجرّد رجوعه إلى فرنسا ردّ الأسيرين المغربيين المذكورين إلى الأسر كما كانا.

84 - مبارك بن هرون

أصله من العرائش، وكان جذّافا في السفن.

ورد ذكره في لائحة أنه كان معدًا من قبل جمعية الفداء بمرسيليا لفداء أسير فرنسي بالمغرب أوائل سنة عشرين وسبعمائة وألف (1132/1720)، ولا يُعرف هل تمّ ذلك أم لا ؟

85 - محجوب بن أحمد

أصله من سلا، متوسط القامة، صحيح البنية، قوّي العضلات، أسود الشعر، بيضوي الوجه، به أثر جرح قرب سبّابته اليسرى.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691).

وعُيِّن سنة سبعمائة وألف (1112/1700) في فداء أسير فرنسي، ولكن لا يُدرى هل تمّ ذلك أم لا ؟

86 - محجوب بن محمد

أصله من سلا، وأمه اسمها فاطمة، وحرفته حلاّق، حسن القامة، أسود الشعر، مستطيل الوجه، به جروح برُسْغيْ يديه اليُمنى واليُسرى، وأصل إبهامه الأيسر.

أُسر سنة أربع وسبعمائة وألف (1116/1704)، وهو ابن ثلاثين سنة.

ومات بالمستشفى أوائل سنة عشر وسبعمائة وألف (1121/1710).

87 - محمد بن علي قَرا

أطلق سراحه أواخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725) بطلب من جمعية الفداء الرهبانية، تنفيذاً للاتفاق المبْرم معها على أن تُسلّم للسلطان خمسة عشر أسيراً مغربيا، ويُسلّم لها تسعة عشر أسيراً فرنسيا.

88 - مَحمد بن مَحمد صندال

قالوا : أصله من العرائش، وأسرة صندال موجودة اليوم بالرباط، وأمه اسمها حِراب ؟، متوسط القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، به احتراق بذراعه الأيمن ويده اليسرى.

جيء به أسيراً إلى مرسيليا، آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

89 - مَحمد فتحاً ... كذا ؟

أصله من سلا، أُسر سنة تسع وستين وستمائة وألف (1080/1669)،

واستعمل جذّافاً في السفن، وهو ابن ست وعشرين سنة.

وأطلق سراحه بمقتضى الأمر الصادر بذلك سنة سبع عشرة وسبعمائة وألف (1130/1717) في جملة تسعة أسرى آخرين فداءً لبعض الأسرى الفرنسيين، اشترتهم جمعية الفداء الرهبانية.

90 - مَحمد فتحاً بن سالم

أصله من سلا، معتدل القامة، أسود الشعر.

أُسر سنة ثلاث وسبعين وستمائة وألف (1084/1673)، وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

ومات بالمستشفى سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1115-1114/1703).

91 - مَحمد بن مَحمد ...؟

أصله من سلا، وأُسر سنة سبعين وستمائة وألف (1081/1670)، وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

فُتن في دينه، فتنصرً، فأطلق ملك فرنسا سراحه سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

92 - مَحمد ... ؟ كذا

أصله من سلا، وأُطلق سراحه في جملة تسعة أسرى آخرين، فداءً لبعض الأسرى الفرنسيين، اشترتهم جمعية الفداء الرهبانية سنة سبع عشرة وسبعمائة وألف (1130/1717).

93 - مَحمّد ... ؟ كذا

أصله من سلا، وأُطلق سراحه كالذي قبله.

94 - مَحمّد ... ؟ كذا

أصله من سلا، وأُطلق سراحه كالذي قبله.

95 - مَحمَّد ... ؟ كذا

أصله من سلا...، كذا، هَرِم زَمِن، أُطلق سراحه سنة سبع عشرة وسبعمائة وألف (1130/1717) كالذين قبله.

ومات في طريق رجوعه إلى وطنه، قبل أن يصل إليه.

96 - محمَّد بن عبد الله

أصله من طنجة، وأمه اسمها حادَّة، حرفته نسّاج، قصير القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه مُبرقش بالجُدَري، مشروم الأذن اليسرى.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن أربع وعشرين سنة.

97 - محمَّد بن أحمد ... ؟

أصله من العرائش.

وأُطلق سراحه بمقتضى الأمر الصادر بذلك سنة أربع عشرة وسبعمائة وألف (1126/1714).

98 - محمَّد بن أحمد

أصله من تطوان، وأمه اسمها فاطمة، حرفته بيطار، متوسط القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، به أثر جرح مستطيل بظهره، وأثر جروح أخرى بذراعه الأيمن، وصل إلى مرسيليا أسيراً أواخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثلاثين سنة.

99 - محمَّد بن أحمد آخر

أصله من العرائش، وأمه اسمها سلطانة، طويل القامة، أشهل الشعر، مستدير الوجه، بجبهته أثر جروح.

وصل إلى مرسيليا أسيراً سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثلاثين سنة.

ومات بالمستشفى أول سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

100 - محمد بن أحمد بن علي

أصله من طنجة، وأمه اسمها فاطمة، حرفته نسّاج، متوسّط القامة، أسود الشعر، مدور الوجه، بناصيته اليسرى وبذراعه الأيمن أثر جرج مستطيل.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1105/1693)، وهو ابن عشرين سنة.

101 - مَحمّد فتحاً بن علي

أصله من سلا، وأُطلق سراحه بمقتضى الأمر الصادر أواخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725) تنفيذاً للاتفاق المبرم مع جمعية الفداء الرهبانية، بإطلاق سراح خمسة عشر أسيراً مغربياً عِوَضاً عن سبعة عشر أسيراً فرنسيا.

102 - محمد بن علي آخر

أصله من سلا، حرفته بحّار، متوسط القامة، صحيح البنية، أسود الشعر، مُدوَّر الوجه، به أثر جرحين بمفرقه الأيسر.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وكان تقرر إطلاق سراحه سنة إحدى وسبعمائة وألف (1112/1701) فداءً لأسير فرنسي، بعد أداء أربعمائة ليڤر، ولكن هذا القرار لم يُنفّذ، وفرّ من مرسيليا سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1113/1702).

103 - محمد بن علي آخر

أصله من سلا، وحرفته بحّار، متوسط القامة، قاتم الشعر، مُدوَّر الوجه، بجبهته أثر جرح من الناحية اليسرى.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن أربعين سنة.

104 - محمّد بن عمرو

أصله من تطوان، وأمه اسمها مارية، حرفته جذّاف في السفن، حسن القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أسمر اللون، به أثر جرح بجبهته.

أسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثلاثن سنة.

ومات بالمستشفى سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

105 - محمد بن البهلول

أصله من سلا، وآل البهلول مازالوا موجودين بسلا.

أُطلق سراحه سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725) في جملة من سُرِّح من الأسرى المغاربة والفرنسيين بمقتضى الاتفاق المُبْرم مع جمعية الفداء الرهبانية.

106 - محمّد بن الحاج العربي

أصله من فاس، قصير القامة، مستطيل الوجه، أسمر اللون.

أُسر سنة ثمان وستين وستمائة وألف (1079/1668)، وهو ابن ثلاثين سنة، واستُعمل جذّافاً في السُّفن.

ومات بالمستشفى سنة إحدى وسبعمائة وألف (1113/1701).

107 - محمد بن إبراهيم

أصله من سلا، وحرفته بحّار، متوسط القامة، صحيح البنية، قوي، أصهب الشعر، غليظ الشفتين، ابن أمَة.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن إحدى وعشرين سنة.

108 - محمّد بن إبراهيم آخر

أصله من سلا، حرفته بحّار، متوسّط القامة، صحيح الجسم، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أصلع الرّأس.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ثلاثين سنة، مات بالمستشفى سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

109 - محمَّد بن إبراهيم آخر

أصله من العرائش، وأمه أمة، اسمها مباركة، حسن القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، به أثر جرح بأعلى ركبته اليسرى.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1105/1693)، وهو ابن عشرين سنة.

110 - محمد بن إبراهيم آخر

أصله من العرائش أيضا، وأمه اسمها حليمة، حرفته بحّار، أشهل الشعر، بيضوي الوجه، به أثر إصابة برصاصة بأعلى كتفه الأيمن من الأمام.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة.

111 - محمَّد بن محمَّد ... ؟

أصله من العرائش، ضعيف البنية، عليل، ولذلك أُطلق سراحه في جملة الأسرى الذين تمَّ الاتفاق على إطلاق سراحهم من المغاربة والفرنسيين على يد جمعية الفداء الرهبانية.

ونُفِّذ ذلك سنة ست وعشرين وسبعمائة وألف (1139/1726).

112 - محمد بن محمد ... ؟ آخر

أصله من أصيلا، وأطلق سراحه في جملة الأسرى المُسرَّحين بمقتضى الاتفاق المُبْرم مع جمعية الفداء الرهبانية.

ونُفِّذ ذلك سنة ست وعشرين وسبعمائة وألف (1139/1726).

113 - محمَّد بن محمَّد ... ؟ آخر

أصله من سلا، حرفته غسل الثياب، حسن القامة، أسود الشعر، به أثر جرح بمرفقه الأيمن.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

114 - محمّد بن محمّد ... ؟ آخر

أصله من سلا، حرفته بحّار، مدير دفّة المراكب، متوسط القامة، أشهب الشعر، أعرج من الرِّجل اليمنى.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن أربعين سنة.

ومات بالمستشفى سنة أربع وسبعمائة وألف (1115/1704).

115 - محمّد بن محمّد ... ؟ آخر

أصله من أصيلا، وأمه اسمها عائشة، حرفته نسّاج، معتدل القامة، أشيب الشعر، بيضوي الوجه، به أثر جروح بجبهته من الجهة اليسرى، وصل إلى مرسيليا أسيراً آخرَ سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ستين سنة.

116 - محمّد بن محمّد الريفي

أصله من تطوان، وأُطلق سراحه في جملة من سُرّح من الأسرى سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725)، عملاً بالاتفاق المبرم مع جمعية الفداء الرهبانية.

قالوا : ولعله هو نفس الأسير المسمًّى بهذا الإسم المنتسب لتطوان، البالغ من العمر اثنتين وستين سنة، الذي كان احترم بامرأة شريفة بمدينة تولوز (Toulouse) ليُحصّل على حريته.

117 - محمّد بن سليمان

أصله من سلا، وأُطلق سراحه في جملة من سُرّح من الأسرى بمقتضى الاتفاق المبرم مع جميعة الفداء الرهبانية سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725).

118 - محمّد بن سليمان آخر

أصله من سلا أيضا، وأُطلق سراحه كغيره ممن سبق ذكره طبقاً للاتفاق المتفق عليه مع جمعية الفداء الرهبانية سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725).

119 - محمَّد بن عبد الرزّاق

أصله من سلا، وحرفته طبّاخ، معتدل القامة، صحيح البنية، أصهب الشعر، مستطيل الوجه، به أثر ثئاليل.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن أربعين سنة.

120 - محمَّد بَرْدارو

أصله من رباط الفتح، حرفته طبّاخ، حسن القامة، بناصيته اليسرى علامة.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ست وعشرين سنة.

ومات بالمستشفى سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

121 - محمَّد بوعفيف بن قاسم

أصله من العرائش، وأمُّهُ اسمها فاطمة، حرفته نسّاج، حسن القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، بناصيته اليسرى أثر جرح.

وصل إلى مرسيليا أسيراً آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

122 - محمد الحسن المقابري

أُطلق سراحه بأمر من ملك فرنسا آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) إجابة لرغبة عامل تطوان وطنجة القائد علي بن عبد الله.

123 - محمَّد مورو آلْيانْ

كان نصرانياً وأسلم، استُعمل بحّاراً قرصاناً بالرباط.

ثم أُسر، فاستُعمل في السفن القرصانية بمرسيليا، وبعد ذلك عفى عنه ملك فرنسا، لويس الرابع عشر آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) بطلب من أسقف هذه المدينة، ترغيباً له في الرجوع إلى نصرانيته.

124 - محمَّد ولد عبد الله الغماري

أصله من سلا، ومنذ أُسر سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (1110/1699) إلى سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1115/1703)، وهو يُعرض في جملة من سيُطلق سراحه، فلم يُسرّح، إلى سنة عشر وسبعمائة وألف (1121/1710). فطلب السلطان حينئذ إطلاق سراحه خلفاً عن الأسير أحمد مسيس الذي كان سُرِّح ومات بمالقة في طريقه إلى وطنه، وذلك بواسطة بعض قناصل فرنسا بالرباط.

125 - محمَّد أكْزولْ

أصله من تطوان، وأُطلق سراحه بطلب من القائد علي بن عبد الله، سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1122/1711).

126 - محمَّد بَاشَرُو

كان أسيراً بمرسيليا منذ مدّة طويلة، وأصله من رباط الفتح.

ولمّا عزم عبد الله بن عائشة على الرجوع من سفارته بباريس سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (1111/1699)، وخاطب الأسرى برسالة يُعلمهم فيها بعدم نجاحه في فكاك أسرهم، استهلّها بذكر اسمه في آخرين، وصبّرهم، ووعدهم بالسَّعْي في إطلاق سراحهم بعد ذلك.

وقد أُطلق سراحهم سنة سبع عشرة وسبعمائة وألف (1130/1717) مع تسعة آخرين فداءً لبعض الأسرى الفرنسيين لكونه ضعيفاً زمنا.

127 - محمد بن علي

أصله من سلا، وحرفته طوبْجي، متوسط القامة، أصهب الشعر، به أثر جرح بحاجبه الأيمن.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة.

128 - محمّد بن علي أخر

حرفته بحّار، متوسّط القامة، أصهب الشعر، مُدوَّر الوجه، به أثر جرح بقفاه.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن خمس وعشرين سنة.

وفرّ من مرسى مرسيليا سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1113/1702).

129 - محمد قاسون الشّاطي

أصله من تطوان، وأُطلق سراحه بطلب من عامل هذه المدينة القائد علي بن عبد الله، بإذن من ملك فرنسا لويس الرابع عشر، آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

130 - محمّد بن محمّد أو حميد بن عبد السلام سماط

أصله من رباط الفتح، حسن القامة، صحيح البنية، أصهب الشعر، بيضوي الوجه.

جيء به أسيراً من مدينة ليڤورن (Livourne) لمّا فرّ منها سنة تسعين وستمائة وألف (1101/1690).

ثم أُطلق سراحه بقادس، سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1114/1703) بأمر من ملك فرنسا، بشرط تعويضه بأسير تركي صحيح البنية، لأنه كانت به زمانة.

131 - محمّد بن محمّد... ؟

أصله من تطوان، وحرفته حلّاق، قصير القامة، أسود الشعر، مستطيل الوجه، أمه أَمَة، به أثر جرح بحاجبه الأيسر.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن اثنين وعشرين سنة.

132 - محمّد بن محمّد بن منصور

بحّار مغربي، طالب بإطلاق سراحه عامل تطوان وطنجة القائد علي بن عبد الله، سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

133 - محمَّد الشويط

بحّار مغربي، طالب بإطلاق سراحه السلطان المولى إسماعيل سنة ثمان عشرة وسبعمائة وألف (1130/1718) بإلحاح والديه عليه في ذلك.

134 - محمَّد الشافعي

أصله من العرائش، حرفته بحّار.

طالب بإطلاق سراحه السلطان المولى إسماعيل، سنة ثمان عشرة وسبعمائة وألف (1130/1718).

135 - محمد الفلّوس

أصله من العرائش أو تطوان، أُطلق سراحه بأمر من ملك فرنسا لويس الرابع عشر في جملة اثنين وعشرين من الأسرى آخرين آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) بطلب من عامل طنجة وتطوان القائد علي بن عبد الله.

136 - محمد الحلْوي

كان أسيراً بدانكيرك (Dunkerque)، وسُرّح سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709) بمقتضى الاتفاق المبرم بين السلطان وجمعية الفداء الرهبانية سنة ثمان وسبعمائة وألف (1120/1708)، ووُجِّه إلى قادس، ومنها إلى مرسى الرباط، فوصلها سنة عشرة وسبعمائة وألف (1122/1710).

137 - محمَّد بن أحمد القانية

أصله من رباط الفتح، حرفته بحّار، متوسط القامة، صحيح البنية، مستطيل الوجه كبيره، واسع الجبهة، غائر العينين، أسود الشعر، به أثر جرح بذراعه الأيسر.

أُسر واستُعمل في خدمة السفن القرصانية سنة خمس وثمانين وستمائة وألف (1097/1685)، وهو ابن ثمان وأربعين سنة.

وطالب عبد الله ابن عائشة بإطلاق سراحه لما كان سفيرا بفرنسا سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (1111/1699)، فلم يأذن ملك فرنسا في إطلاق سراحه إلاّ سنة اثنتي عشرة

وسبعمائة وألف (1124/1712) بطلب من جمعية الفداء الرهبانية، تنفيذاً لرغبة السلطان في ذلك، وكان وصوله إلى المغرب آخر السنة المذكورة.

138 - محمد السمّار السلاوي

أصله من سلا، وأسرة السمّار مازالت موجودة بها إلى الآن.

وكان عبد الله ابن عائشة طالب بإطلاق سراحه لمّا كان سفيراً بفرنسا، فلم يتيسّر له ذلك.

ولمّا كان ببريسط (Brest) راجعاً إلى المغرب، كتب رسالة إلى صاحبه التاجر جوردان بتاريخ حادي وعشري قعدة عام عشرة ومائة وألف (11 قعدة 21/1110 مايه 1699) جاء فيها فيما يرجع بإطلاق سراح هذا الأسير :(111)

«وأؤكد عليك توكيد المحبَّة، في التكلم لنا في حاجة ذلك الأسير (السمّار) أخي صاحبنا قاسم بما يمكن لك من الدراهم وغيرها، وكلّ ما يلزمه أحسبه علينا، وهذه الحاجة، هي أوكد الحوائج عندنا معك في مَحَبَّتِكَ، ولابد ولابد ولابد... »

ثم كتب رسالة أخرى بتاريخ فاتح رجب عام أحد عشر ومائة وألف (فاتح رجب 1111/ 23 دجنبر 1699)، خاطب بها القنصل جان بابتيست إسطيل جاء فيها فيما يتعلق بهذا الأسير :(112).

«... وأنت نحب من الله ومنكم إذا جئت لبلادنا، وعملت في يدك من هديتكم بعض المسلمين الأسارى، أول ما يكون في يدك محمد السمّار، الذي كان معنا أخوه قاسم. وحين جئت هنا، جاءتني أمه، عجوز كبيرة السن، عمياء، تبكي علي بكرة وعشيا، وأنا كنت وكّدت فيه على صاحبنا جوردان المذكور بحضرتكم، وقال لي :

ما ترى وجه أحد من أصحابي إلاّ به. فما رأيت جواباً من عنده عليه ولا على غيره، وها أنا قبضت فيك على مسألته، ولا نرى وجهك إلا به، وإذا جئتنا بواحد من الأسارى فالأول،

111) المجلد الخامس من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة» السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، ص 291.

112) نفس المصدر، ونفس المجلد، ص 508.

وإذا كان اثنان فهو الأول، وإذا كان أكثر فهو الأول، ولا نقبل منكم عذراً فيه أصلا. فقد رأيت ما جرى لأخيه حيث كنا عندكم، واليوم ها أنا مع أمه في ضيق كثير، والذي تعمل في شأنه، نحن نضمنه لكم صحبته، ولا تخشى من شيء، وكلامنا تعرفه في أكثر من هذا.»

وختم كلامه بقوله :

«وسلامنا على جميع الأسارى من المسلمين كافّة، والله يفتح علينا في فدائهم باب التيسير، لأني لم نزل نطمع في الله سبحانه وفي ضيفنا نصره الله الخير والفرج، والكمال على الله جلّ ثناؤه، آمين.»

هذا، ولا نعلم شيئاً حتى الآن عن مآل هذا الأسير، وكيف تمت قضيته ؟ وهل أُطلق سراحه أم لا ؟

139 - محمّد الزياش

بحّار رباطي، طالب عبد الله ابن عائشة بإطلاق سراحه لمّا كان سفيراً بفرنسا، سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (1111/1699).

140 - محمّد عويْد

أصله من أصيلا، وسكن طنجة، ويُقال له أيضا حميد محمّد.

أُطلق سراحه وسراح ولده قاسم الذي كان معه آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) بطلب من عامل طنجة وتطوان القائد علي بن عبد الله.

141 - محمد يعقوب

أصله من سلا، وما زالت أُسرة يعقوب موجودة بسلا إلى الآن.

أُطْلق سراحه آخر سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1115/1703) عِوَضاً عن بعض الأسرى الفرنسيين.

142 - محمد بن سوسان

أصله من تطوان، وأُطلق سراحه آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711)، بأمر من ملك فرنسا، تلبية لرغبة عامل طنجة وتطوان، القائد علي بن عبد الله.

143 - محمد بن أحمد السّوسي

أصله من سوس قُرب أكادير، وأمه اسمها رقية، وزوجته اسمها فاطمة، ينتسب إلى الصُّلاح، حسن القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، به أثر جرح فوق عينه اليسرى، وثلاثة جروح أخرى فوق خدّه الأيسر.

أُسر وهو ابن ثمان وثلاثين سنة.

كان هو وخمسة من رفقائه السوسيين والمراكشيين، فرّوا بحراً من أكادير، بعد انهزام الشريف مولاي مَحمَّد العالم، الثائر على والده المولى إسماعيل، ولعلّهم كانوا من الموالين له، فالتقطتهم سفينة قرصانية فرنسية قرب شواطئ الجديدة، وهم في حالة يرثى لها جوعاً وعطشا، وقادتهم إلى مرسيليا، واستُعملوا في خدمة السفن بها أواسط سنة ست وسبعمائة وألف (1118/1706).

ولكن المولى إسماعيل طالب بإطلاق سراحهم، فسُرّحوا آخر السنة المذكورة.

144 - محمد بن مسعود السوسي

أصله من سوس قرب أكادير، وأمه اسمها فاطمة.

كانت حرفته ببلده بحّارا، معتدل القامة، أسمر اللون، صحيح البنية، قوي العضلات، به أثر جرح بإصابة رصاصة.

أُسر وهو ابن ثمان وعشرين سنة، قرب شواطئ الجديدة، واستُعمل في خدمة السفن بمرسيليا أواسط سنة ست وسبعمائة وألف (1118/1706).

وأُطلق سراحه بطلب من السلطان المولى إسماعيل، آخر السنة المذكورة.

145 - منصور بن مسعود السوسي

أخ المتقدّم، أصله من سوس قرب أكادير، وأمه اسمها فاطمة، وزوجته اسمها عائشة، حرفته بحّار كأخيه، صحيح البنية، أسمر اللون، قوي العضلات، به أثر جرج بيده اليسرى.

أُسر قرب شواطئ الجديدة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، واستُعمل في أوراش سفن القرصنة بمرسيليا، أواسط سنة ست وسبعمائة وألف (1118/1706).

وأُطلق سراحه بطلب من المولى إسماعيل آخر السنة المذكورة.

146 - منصور بن أحمد

أصله من سلا، أطلق سراحه بأمر من ملك فرنسا لويس الرابع عشر، أواخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725)، تنفيذاً للاتفاق المبرم بين جمعية الفداء الرهبانية وملك المغرب، في جملة أسرى آخرين.

147 - منصور بن علي

أصله من مراكش، وأمه اسمها مَرْيامَة، حرفته بحّار، معتدل القامة، أسود الشعر، مجدّر الوجه، مدوّره، بأعلى ذراعه الأيمن شامة زرقاء.

جيء به أسيراً إلى مرسيليا أواخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

148 - مرزوق بن سعيد

أصله من تطوان، أسود اللون، حسن القامة، به جرح بأعلى كتفه الأيمن، وحرفته طبّاخ.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ثلاثين سنة.

ومات بالمستشفى آخر سنة ثمان وسبعمائة وألف (1120/1708).

149 - مُعيز ميسو

أُطلق سراحه فداءً لأحد الأسرى الفرنسيين، سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1115/1703).

ومات بقادس في طريقه إلى بلاده.

150 - مسعود بن مَحمَّد فتحا.

أصله من سلا، قصير القامة.

أُسر سنة تسع وستين وستمائة وألف (1080/1669)، وهو ابن سبع وثلاثين سنة، وحرفته جذّاف في السُّفن.

ومات وهو يجذف في السَّفينة آخر سنة خمس وسبعمائة وألف (1117/1705).

151 - مسعود بن يوسف

أصله من فقهاء بني وَرْياكَلْ.

وأُطلق سراحه بطلب وإلحاحٍ من عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله، بأمر من ملك فرنسا، في جملة اثنين وعشرين أسيراً آخرين من المغاربة، آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

152 - الحاج مسعود

أصله من سلا.

وأُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1115/1693).

ومات بقادس أواخر سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1115/1703).

153 - الحاج مسعود نيگرو

أصله من تطوان أو العرائش.

أُطلق سراحه أواخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) بطلب وإلحاح من قائد العرائش وتطوان.

154 - المهدي بن المهدي

أصله من سلا، وأمه اسمها عائشة، حرفته خرّاز، متوسط القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، بذراعه الأيسر أثر جرح بموسى.

جيء به أسيراً إلى مرسيليا آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن عشرين سنة.

155 - موسى بن أحمد بن إبراهيم السلاوي

أصله من سلا، وكان مستعملاً في خدمة السُّفن بفرنسا، منذ أسره، مدة أربعين سنة إلى أن شاخ وضعف.

وفي سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710)، صدر أمر من ملك فرنسا بإطلاق سراحه عوضاً عن أسير فرنسي بالمغرب، وأداء خمسمائة ليڤر لخزينة البحرية.

وحيث أن هذا المال لم يسلم، فقد تأخر تنفيذ إطلاق سراحه إلى سنة أربع عشرة وسبعمائة وألف (1126/1714)، فسرّح حينئذ بطلب من جميعة فداء الأسرى الرهبانية، عِوَضاً عن أسير آخر فرنسي بالمغرب.

156 - الناصر بن مسعود

أصله من تطوان، أمه اسمها مسعودة، حرفته بحّار، متوسط القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أسود اللون، به أثر احتراق بذراعه الأيمن.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن أربعين سنة.

157 - عبد الرحمان ... ؟

من أهل تطوان، كان جذّافاً في بعض السُّفن، معتدل القامة، أسود الشعر.

أُسر سنة اثنتين وستين وستمائة وألف (1072/1662-1073) ، وهو ابن سبع وعشرين سنة.

158 - عبد الرحمان بن منصور

من أهل سلا، معتدل القامة، صحيح البنية، نحيف الوجه، أسود اللون، بيسار جبهته أثر جروح.

اشتُري في جملة من الأسارى بليڤورن سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (1092/1682)، وهو ابن ثلاثين سنة.

واستُعمل جذّافاً في بعض السفن، ثم أُطلق سراحه فداءً لبعض الأسرى من الفرنسيين بالمغرب.

159 - عبد الرحمان بن أحمد الدكالي

من أهل سلا، وكان يقال له حميدة.

أُطلق سراحه أواخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725).

160 - عبد الرحمان بن علي

أصله من سلا، طويل القامة، أسود الشعر، نحيف الوجه.

أُسر سنة خمس وستين وستمائة وألف (1076/1665-1077)، واستُعمل جذّافاً في بعض السُّفن.

ومات سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وألف (1124/1712).

161 - عبد الرحمان بن علي آخر

من أهل سلا أيضا، قصير القامة، أصهب الشعر، مستطيل الوجه، به أثر جروح.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691).

162 - عبد الرحمان بن الحاج

من سلا، معتدل القامة، صحيح البنية، أسود الشعر، بيضوي الشكل به أثر جرح بأعلى معدته من الناحية اليسرى.

واشتُري من جملة أسرى آخرين من سان مالو (Saint-Malo)، وهو ابن ثلاثين سنة، أول سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691).

163 - عبد الرحمان بن قاسم

أصله من أصيلا.

فُدي أوائل سنة ثمان عشرة وسبعمائة وألف (1132/1718)، ودُفع في فدائه مائتا ليڤر.

164 - عبد الرحمان بن محمد بن حسنية

كان من مُسيِّري السُّفن سنة عشرين وسبعمائة وألف (1133/1720)، وطلبته جمعية الفداء بمرسيليا لتفتدي به أسيراً فرنسيا، فسوعدت على ذلك.

وأُطلق سراحه بعد أداء أربعمائة ليڤر، وهو ابن سبع وأربعين سنة.

وكان مَكْثُهُ في الأسر سنة.

165 - عبد الرحمان بن موسى

أصله من العرائش، وأُمه اسمها فاطمة، طويل القامة، أسود الشعر، أجعده، به أثر احتراق بأعلى كتفه الأيمن.

وصل إلى مرسيليا أسيراً آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثمان عشرة سنة.

ومات فجأة وهو في السفينة أول سنة عشر وسبعمائة وألف (1121/1710).

166 - عبد العزيز بن عبد الرحمان بن يبّه

أصله من العرائش، وطالب بإطلاق سراحه عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله وكاتبه.

فأمر بإطلاق سراحه ملك فرنسا آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1122/1711).

167 – عبد العزيز بن بوعزة

نوتي من أهل سلا، قصير القامة، أصهب الشعر، مستطيل الوجه، بأعلى إحدى يديه أثر جرح.

أسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن إحدى وعشرين سنة.

وأطلق سراحه أواخر سنة تسع وسبعمائة وألف (1120/1709).

ورجع إلى بلاده بإذن الملك في السنة المذكورة.

168 – عبد العزيز القيْسي

من مواليد الجبال الأطلسية.

ولمّا أُسر استُعمل في إحدى السُّفن بمرسيليا.

وأُطلق سراحه فداء لبعض الأسرى الفرنسيين سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وألف (1123/1712).

ثم رجع إلى بلاده بطلب من السلطان المولى إسماعيل.

169 – عبد القادر بن عمرو

من أهل رباط الفتح، وأُسرة آل عمرو شهيرة به، أمه اسمها زهراء، معتدل القامة، مفلفل الشعر، أسمر اللون، وجهه بيضوي الشكل، بيده اليسرى أثر جرح، كان ملاّحا في بعض السُّفن.

أسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن عشرين سنة.

170 – عبد القادر بن حسن

أصله من العرائش، وأمه اسمها حليمة، معتدل القامة، أصهب الشعر، وجهه بيضوي الشكل، بيده اليسرى أثر احتراق، كان ملاّحا في بعض السُّفن.

أسر أواخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن أربعين سنة، ومات بالمستشفى بمرسى تولون أواسط سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

171 – عبد السلام بن أحمد ...

أصله من تطوان، وأمه اسمها عائشة، معتدل القامة، قصير الشعر، بيضوي الوجه.

جيء به إلى مرسيليا أسيراً وهو ابن خمس وعشرين سنة.

فُتن في دينه، وتمسّح والعياذ بالله.

172 – عبد السّلام بن الحسن

بحّار من العرائش، وأمه اسمها محجوبة، معتدل القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه.

وصل إلى مرسيليا أسيراً آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن عشرين سنة.

173 – عبد السلام ... ؟

كان أسيرا، وطلبت أسرته فداءه، وتطوّعت بأداء أربعمائة ليڤر، فامتنع الوزير بونشرطران من ذلك، حتى يُعوّض بأسير فرنسي، ولا يُدرى مآله.

174 – عبد السّلام بن محمد السّلاوي

كان بحّارا، وصفته : طويل القامة، أسود الشعر، وراء أذنه اليمنى عدة علامات.

أُسر وهو ابن ست وعشرين سنة، استُعمل في التُّجذيف في السفن أول سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691).

175 – عبد السّلام فنيش السّلاوي

من أهل سلا، وأسرة فنيش مشهورة بها.

أُطلق سراحه سنة تسع وسبعمائة وألف (1120/1709) بأمر من ملك فرنسا، طبقاً لما تمّ عليه الاتفاق مع جمعية فداء الأسرى الرهبانية، في السنة التي قبلها، وهي ثمان وسبعمائة وألف (1119/1708).

176 – عبد السّلام بن عبد الرّحمان سوسان

أصله من العرائش.

أطلق سراحه آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1122/1711).

177 – عبد الله بن علي

أصله من سلا، وأمه اسمها ميرة، حرفته مدير دفّة السّفينة، معتدل القامة، أسود الشعر.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن سبع وعشرين سنة.

وأُطلق سراحه في السابع يوليوز سنة أربع وسبعمائة وألف (07 يوليوز 1704/ ربيع الأول 1116) في مبادلة أسير فرنسي وأداء أربعمائة ليڤر.

178 – عبد اللّه بن علي آخر

أصله من سلا أيضا، وكان عسكريا، أسود اللون، معتدل القامة، صحيح البنية، مستطيل الوجه، غليظ الشفتين، بيده اليسرى شامة.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ست وثلاثين سنة.

179 – عبد الله بن أحمد

أصله من العرائش، وأمه اسمها فاطمة، معتدل القامة، أسود الشعر، مستدير الوجه أسمره، بأعلى يده اليمنى وبخدّه الأيسر أثر جروح.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وعمره ثلاثون سنة.

180 - عبد الله بن قاسم

أصله من سلا، وكان عسكريا، معتدل القامة، جعد الشعر، وجهه بيضوي الشكل، بيده اليمنى أثر جرح مدوّر.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن أربع وعشرين سنة.

ومات بقادس في ثامن عشر مارس سنة ثلاث وسبعمائة وألف (18 مارس 1703/ قعدة 1115).

181 - عبد الله بن مبارك

أصله من سلا، حرفته بحّار، متوسط القامة، أسمر اللون، وجهه بيضوي الشكل، وعلى خدّه الأيمن خال.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن عشرين سنة.

ومات بالمستشفى في العشرين من يوليوز سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (20 يوليوز 1711/ جمادى الآخرة 1123).

182 - عبد اللّه بن مَحمّد فتحا

أصله من سلا، حرفته خرّاز، معتدل القامة، أصهب الشعر، قريب من السواد، مستدير الوجه، به أثر جرح بظاهر ساقه الأيمن.

أُشتري كعبد مأسور بسان مالو (Saint Malo)، في ثالث وعشري يناير سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (23 يناير 1691/ جمادى الأولى 1103).

183 - عبد الله بن مَحمّد فتحاً بريبش

أسرة بريبش من الأسر الأندلسية المعروفة بالرباط، وكان منها رؤساء في البحر، كالرئيس عبد القادر بريبش.

وعبد الله هذا منها. أمه اسمها فاطمة، وحرفته الخِرازة، وكان حسن القامة، أصهب الشعر، مستطيل الوجه.

أسر هو وأخوه علي، وقاسم مولاطو، وعلي مرشك، وسياتي ذكرهم والتعريف بهم، كلّ في محلّه.

وكان عبد الله لمّا أُسر ابن خمس وثلاثين سنة، سنة أربع وسبعمائة وألف (1116-1115/1704).

وطالب المولى إسماعيل بإطلاق سراحهم جميعا، وتمّ الاتفاق بينه وبين جميعة الفداء الرهبانية، لمّا كانت بمكناس في السنة المذكورة على تنفيذ ذلك والتعجيل به.

وبعدما سُرّحوا، أُعيد القبض عليهم، ووُضعت السلاسل والأغلال في أعناقهم، وبذلك نكثت الجميعة المذكورة عهدها، وأخلفت وعدها. وكتب أحدهم إلى الرئيس عبد القادر بربيش المذكور أعلاه، وأعلمه بما آل إليه أمرهم، فاشتكى إلى السلطان المولى إسماعيل، فغضب لذلك غضباً شديدا، وقطع المخابرة في الفداء مع الجمعية المذكورة.

ثم كتب إلى القنصل الفرنسي بالرباط پيرليي (Perillie) – لأنه كان الواسطة في المخابرة – رسالة تهديد ووعيد إذا لم يُطلق سراحهم حالا، نصّها[113].

الحمد لله وحده

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم

إلى القونص الأفرنصيص، القاطن الآن برباط سلا، حرسه الله

السلام على من اتبع الهدى

وبعد، فاعلمْ أن الرئيس الحاج عبد القادر بربيش، جاءنا بكتاب في يده، جاءه من مرسيليا، من عند ولد أخته قاسم مولاطو، وهو يذكر أن طاغيتكم كان سرّحه لوجهنا، هو وثلاثة من الأسارى : علي مرشك، وأولاد بربيش باثنين، وقاسم مولاطو، وخرجوا من الغراب

113) ص 391 من المجلد السادس من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا

بقصد القدوم إلى بلادهم، لمّا تكفلّت والفريلية بهم، ثم إنهم ردّوهم إلى الغراب لموضعهم، وما علمنا ما السبب في ردّهم، فإلى الآن، فعلى عهد الله وسيدنا محمد بن عبد الله، ولا تبعث من ورائهم بأربعة، ويقدموا بالعزم، حتى نأخذك أنت ومالك، ولا شفاعة فيك. أهاكذا تَلعب علينا، وتسرّحوا الأسرى وتردّوهم. فاعلمْ أنك المواخذ بهم، والجدُّ منّا.

والســـــــــلام.

و في الخامس من رمضان المعظم عام تسعة عشر ومائة وألف

(05 رمضان 30/1119 نونبر 1707)

وحينئذ أعاد الوزير بونشرطران نظره في القضية، وأصدر أوامره بإعادة حريتهم إليهم، وذلك في متم سنة تسع وسبعمائة وألف (دجنبر 1709/ رمضان 1121).

وأبحروا من مرسيليا في شهر أبريل سنة عشر وسبعمائة وألف (أبريل 1710/ صفر 1122)، ورجعوا لوطنهم، وانتهت محنتهم.

184 – عبد الله بن الحسن السّلاوي

أصله من سلا، معتدل القامة، أسود الشعر، مُسطّح الوجه، به أثر جرح جمع بين حاجبين من الناحية اليسرى، وفوق شاربه الأعلى ثلاثة جروح من الناحية اليسرى.

اشتُري على أنه عبد من سان مالو (Saint-Malo)، وهو ابن خمس وعشرين سنة، ذلك في سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691).

وتوفي بالمستشفى أواخر سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1113/1702).

185 – عبد الله بن عبد الرّحمان المسيد

أصله من مراكش، وأمُّه اسمها زينب، وزوجته اسمها كيدة (عگيدة)، متوسط القامة، أسود الشعر واللون، بيضوي الوجه، به أثر جرح بفخده الأيمن.

أُسر بشواطئ الجديدة مع آخرين ممَّن كانوا بسوس مع الأمير مولاي مَحمَّد العالم، وفرّوا بعد انهزامه.

وقد تقدّم ذكرهم، وذلك أواسط سنة ست وسبعمائة وألف (1118/1706).

وسيق بعد أسره إلى مرسيليا، فاسْتُعمل في خدمة السُّفن، وهو ابن أربعين سنة، ثم أُطلق سراحه آخر السنة المذكورة، بطلب من السلطان المولى إسماعيل.

186 – عبد الواحد بن عبد الرحمان

من أهل سلا، أسود اللون، معتدل القامة، صحيح البنية، مستطيل الوجه، أفطس الأنف، به أثر جرح بجبهته.

أُسر في حدود سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ثلاثين سنة.

ومات بمستشفى طولون (Toulon) أواسط سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1115/1703).

187 – عبّاس بن أحمد قرلي

أصله من رباط الفتح، أغمّ الشعر، قصير القامة، وجهه ممتلئ، بيضوي الشكل، وبرجليه بصمة، وأمه اسمها بَسْمَة زهور، وله أخ إسمه يوسف.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وعمره عشرون سنة.

وأُطلق سراحه في مفاداة بعض الأسرى الفرنسيين بالمغرب، وتعويض أربعمائة ليفر، سنة ثمان وسبعمائة وألف (1120/1708).

188 – عزّوز بن سعيد

أصله من تطوان، حرفته بحّار، حسن القامة، أسود الشعر، مستدير الوجه، بكفّه الأيسر علامة.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

189 – عمر بن أحمد

أصله من سلا، حسن القامة، صحيح البنية، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، أحول العينين.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن ست وأربعين سنة، فتنصرّ والعياذ بالله.

وأطلق سراحه ملك فرنسا سنة ثمان وسبعمائة وألف (1120/1708).

190 – عمر بن علي

أصله من سلا، حسن القامة، به أثر جرح بجبهته.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1104/1693)، وهو ابن اثنين وعشرين سنة.

ومات غرقاً بليشبونة (Lisbonne) سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702).

191 – عمر بن الجيلاني

كان مأسوراً بدونكيرك (Dunkerque)، فطالب بإطلاق سراحه عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله، فسُرّح سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

192 – علي ... ؟

يُظن أنه من سلا. كان أسيراً بمرسيليا، وطالبت جمعية فداء الأسرى بإطلاق سراحه فداءً لبعض الفرنسيين. ويقال إنه كان يحاول أن يتنصّر ... ؟

193 – علي بن أحمد

أصله من سلا، وأُطلق سراحه أواسط سنة إحدى وسبعمائة وألف (1112/1701)، فداءً لأحد الفرنسيين الذي أدّى عنه أربعمائة ليفر.

194 - علي بن أحمد

أصله من سلا، وأمه اسمها فاطمة، متوسِّط القامة، أسود الشَّعر، مُدوَّر الوجه، أسمر اللون، غليظ الشفتين، به أثر جرح بكفّه الأيسر.

أسر آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

195 - علي بن أحمد

أصله من العرائش، وأمه اسمها عائشة، حرفته نُوتي، متوسط القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أسمر اللون، به أثر جرح فوق عينه اليمنى.

أُسر آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن ثمان عشرة سنة.

196 - علي بن أحمد

أصله من تطوان، واسم أمه رَحيمة، حرفته خبّاز، معتدل القامة، أصهب الشعر، مُدوَّر الوجه.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1118/1707).

197 - علي بن أحمد كنكلوا ... ؟

أصله من سلا، وأُطلق سراحه سنة سبعمائة وألف (1111/1700) بأمر من ملك فرنسا فداءً لأسير فرنسي، بعد أداء أربعمائة ليفر.

198 - علي بن علي

أصله من أكادير، معتدل القامة، أصهب الشعر.

أُسر وهو ابن عشرين سنة، واستُعمل جذّافاً في السُّفن سنة ثمان وسبعين وستمائة وألف (1089/1678).

ومات بالمستشفى آخر سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

199 - علي بن الحاج مَحمّد

أصله من فاس، طويل القامة، أسود الشعر.

أُسر سنة إحدى وستين وستمائة وألف (1075/1661)، وهو ابن ثمان وعشرين سنة، واستُعمل جذّافاً في السفن.

ومات بقادس أول سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1113/1702).

200 - علي بن المقدّم الزناتي

أصله من رباط الفتح، وكان أسيراً مستعملاً في أوراش السُّفن القرصانية، وأُطلق سراحه بواسطة الأميرال عبد الله ابن عائشة سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

وفي طريقه إلى الرباط لقيت السفينة التي كان راكباً فيها سفينة قرصانية إنجليزية، قرب قرطاجنة، فوقعت معركة بينهما، قُتل أثناءها، بعدما دافع عن نفسه بكل شهامة وشجاعة، ولم يُقدِّر الله رجوعه إلى وطنه.

201 - علي بن عيسى

أصله من العرائش، وأمه اسمها رقية، حرفته بحّار، متوسط القامة، أسود الشعر، بيضوي الوجه، أسمر اللون، بجبهته جرح، وبذراعه الأيمن أثر جرح بموسى، ضعيف البصر.

أُسر آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707)، وهو ابن خمسين سنة.

ومات بالمستشفى سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

202 - علي بن مسعود الزمّوري

أصله من سلا، وأمه اسمها فاطمة، وحرفته بحّار، متوسط القامة، أسمر اللون، أسود الشعر، بيضوي الوجه، بيده اليمنى أثر احتراق.

وصل إلى مرسيليا أسيراً سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707).

ومات بالمستشفى أواخر سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709).

203 - علي بن محمد

أصله من تطوان، طويل القامة، مستطيل الوجه، أسود الشعر.

أُسر، واستُعمل في السفن القرصانية قبل سنة سبعين وستمائة وألف (1081/1670)، وهو ابن ثلاثين سنة.

ومات بالمستشفى آخر سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702).

204 - علي بن محمد

أصله من سلا، حرفته نوتي، حسن القامة، أغمّ الشعر، مسطّح الوجه، برأسه أثر جروح.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن خمس وثلاثين سنة.

205 - علي بن مَحمد فتحا

كان عسكريا، حسن القامة، أصهب الشعر، مستطيل الوجه، بمقدّم رأسه وجبهته أثر جروح.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن سبع وعشرين سنة.

ومات بالمستشفى سنة عشر وسبعمائة وألف (1122/1710).

206 - علي بن الحسن

أصله من تطوان.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1105/1693).

ومات بالمستشفى سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702)

207 - علي بن صالح

أصله من سلا.

أُطلق سراحه سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702)، فداءً لبعض الأسرى الفرنسيين، بطلب من جمعية الفداء الرهبانية.

208 - علي بن يوسف

أصله من تطوان، طويل القامة، أصهب الشعر.

أُسر واستُعمل جذّافاً في السفن سنة خمس وستين وستمائة وألف (1076/1665)، وهو ابن اثنين وأربعين سنة.

ومات بالمستشفى أواخر سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702).

209 - الحاج علي بربيش الرباطي

من تُجّار الرباط، معتدل القامة، أشمط الشعر، مستطيل الوجه، به أثر جرح أو مرض برجله اليمنى.

أُسر وهو ابن خمس وستين سنة، هو وأخوه عبد الله المتقدّم الذكر. وكانت محنتهما واحدة متّحدة.

وأُطلق سراحه بأمر من السلطان المولى إسماعيل في قصة تقدّم بيانها في ترجمة أخيه عبد الله.

وكان وصوله إلى الرباط في شهر أبريل سنة عشر وسبعمائة وألف (أبريل 1710/ صفر 1122)[114].

114) يراجع الكتاب الإسماعيلي الصادر في شأنه ومن معه في ترجمة عبد الله بربيش في تراجم العبادلة.

210 - علي الشريف

كان عسكرياً بسلا، متوسط القامة، مفلفل الشعر، بيضوي الوجه، أحول العينين.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن سبع وعشرين سنة.

211 - علي الحسني بن أحمد

أصله من تطوان.

وأُطلق سراحه من الأسْر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1122/1711)، بطلب من عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله.

212 - طالب علي الحوكبي

أصله من سلا، وكان موصوفاً بالعلم، واسم والده إبراهيم، وأمه عائشة، معتدل القامة، أصهب الشعر، مستطيل الوجه، بيسار جبهته أثر جرح مستطيل.

أُسر سنة أربع وسبعمائة وألف (1116/1704)، وهو ابن أربعين سنة.

وأُطلق سراحه سنة تسع وسبعمائة وألف (1120/1709)، بإذن من ملك فرنسا، تنفيذاً للاتفاق المبرم مع جمعية الفداء الرهبانية، ورجع لبلده.

213 - علي المكناسي

أصله من العرائش، حرفته جذّاف في السُّفن.

أُطلق سراحه سنة ثمان عشرة وسبعمائة وألف (1130/1718)، تنفيذا لأمر سلطاني.

214 - علي مولاطو الرباطي

إسم والده عبد السلام، وأُسرة مولاطو مشهورة بالرباط.

أُطلق سـراحـه سنة خمس عشـرة وسـبـعـمـائة وألف (1128/1715)، ورجع لبلده بطلب وإلحاح من والده وأُسرته بواسطة محمد الأندلسي الذي كان ذا وجاهة عند السلطان المولى إسماعيل.

ومنذ سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وألف (1124/1712) والمخابرة جارية في شأنه إلى أن تمّت بفداء أحد الفرنسيين وزوجته اللذين كانا أسيرين بمكناس في التاريخ المتقدم.

215 – علي مَرْشْكْ

من أهل رباط الفتح، وبه وُلد، وأُمه اسمها فاطمة، كان رئيساً بحريا، حسن القامة، أشهل الشعر، مستطيل الوجه.

أُسر سنة أربع وسبعمائة وألف (1116/1704)، وهو ابن ست وخمسين سنة.

ومنذ سنة خمس وسـبـعـمـائة وألف (1117/1705)، والسلطان المولى إسماعيل يطالب بإطلاق سراحه، لأنه كان معدوداً في جملة القراصنة.

ولم يُطلق سراحـه إلاّ سنة تسع وسـبـعـمـائة وألف (1121/1709)، لمّا أُدرج في جملة الثلاثة عشر أسيراً الذين تمَّ الاتفاق على إطلاق سراحهم مع جمعية الفداء الرهبانية، ورجع لبلده [115].

216 – علي السَّبِيَعْ

من أهل رباط الفتج أيضا، أُطلق سراحه سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709)، بمقتضى الاتفاق الذي أُبرم مع جمعية الفداء الرهبانية أواخر سنة ثمان وسبعمائة وألف (1120/1708).

115) يراجع الكتاب الإسماعيلي الصادر في شأنه ومن معه، وقد تقدم في ترجمة عبد الله بربيش في تراجم العبادلة. وكذلك يُراجع الكتاب الذي خاطبه به الأسير محمد حيدر، وقد أدرجناه في قصّة أسر عبد الحق معنينو، وما كان من أمره.

217 – علي زوفيق

أصله من تطوان.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1105/1693).

ومات بقادس آخر سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702).

218 – فاتح بن مبارك

أصله من سلا، وأمه اسمها مسعودة، وحرفته خرّاز، متوسط القامة، أسود الشعر والبشرة، مُدوّر الوجه، أفطس الأنف.

219 – قاسم عْوِيدْ

أصله من أصيلا، ويقال له أيضاً محمَّد أحمد عْويدْ.

أُطلق سراحه وسراح والده الذي كان أسيراً معه آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711)، بطلب من عامل تطوان وطنجة، القائد علي بن عبد الله.

220 – قاسم بن عبد الرحمان الحمُّود

أصله من العرائش، وكان أسيراً أولا ببريسط (Brest)، ثم بدانكيرك (Dunkerque).

ويظهر أن هذا الأسير كان من أسرة معتصمة بالدِّين، متمسِّكة بحبله المتين.

وقد وقفنا على كتاب كتبه له خاله إبراهيم بن محمد بن أحمد المسَّاري، جواباً عن كتاب كان وجّهه إليه.

وفيه يخبره عن حال أسرته، ويوصيه بالصَّبر والاعتصام بالدِّين، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، وملازمة الصَّلوات الخمس، وصيام شهر رمضان في وقته ؛ ويخصُّه على إبلاغ هذه الوصية إلى كافة الأسرى الذين معه، ويُخبره بأن أهله بخير وعافية، وأنَّ زوجته حازمة ضابطة صابرة، وأنَّهم سيبذلون كل ما في وسعهم لإنقاذه، ونصّه : (116)

116) ص 371 من المجلد السادس من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة» السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

العنـــوان

بيد الطالب قاسم الحمّود العرائشي، ببلاد فرانصية، بمدينة بريسط، دمّرها الله.

من أُسارى عبد الوهاب العلج.

الحمد لله وحده

صلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمّد وآله وصحبه.

الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام. وفضّل هذه الأمة على جميع الأمم لمعتقدنا في الواحد الأحد الذي ليس له ثان، وأعوذ بالله من قول من جحد.

من العبد الفقير إلى رحمته، إبراهيم بن محمد بن أحمد المسّاري.

إلى ولد أختي قاسم بن عبد الرحمان الحمّود.

سلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلاه إلاّ هو.

وقد وصلنا مسطورك وفرحنا به، وسررنا به غاية السرور، من أجل مغيب خبركم عنّا، وطال الأمر (حتى) ظننا أنكم مغْرقين.

ولمّا وصلنا المسطور، فرحنا بالحياة، لأن مصيبة الموت أكثر من كل شئ، والحي إن شاء الله يرجى، وأنت اصْبرْ لمَا قدّر الله وقضاه.

وأوصيك بتقوى الله، وأكثرْ من الصّلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، إن كنت تجد وقتاً تصلّي فيه. ولا تترك الصّلوات الخمس، ولو تُصلّيها بعينك، وإن أقبل عليكم شهر رمضان، فعليكم بصيامه، ونطلب الله تعالى أن يجعل السّراح قبل أن ياتي عليكم، وهذا الخطاب لجميع من معك من الأسارى.

وبعد، فبالله الذي لا إلاه إلاّ هو، لو جعلت الفِدْية ما بقيت هناك إن شاء الله (سواء) بمالنا أو بالكلام، أو بما يظهر لنا.

وأنت، إذا كتبت إلينا، أُكتبْ للقائد وحده، واخْفِضْ له، ولا تقلْ كلاماً مثل الذي قلت في مسطورك.

ويُسلم عليك أولادنا كافة، وتسلم عليك صهرتنا عائشة.

ويسلم عليك أولادك، وأخبرك أن زوجتك جالسة في العرائش، مع بنتها، وهي حازمة، لبيبة، صادقة، فلا تهتمّ من أجلها قط، فما فيها تبذير ولا تغيير، وليكن قلبك سالماً من أجلها، ولا يخطر ببالك عليها شئ قط، وربّما يصلك شئ، فلا تنظر إليه.

وأنت جاوب لنا إن ساعفك الوقت.

ونُسلِّم على جميع الأسارى من غير تخصيص، وكل من يطلع على هذا المسطور، والله يرزقكم الصبر، وعليكم بحسن الظن باللّه، فإنَّ اللّه تبارك وتعالى قال : أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن خيراً وجده، وإن ظن شراً وجده،

والســــــــلام عليكم.

وقد وصلنا مسطورك في نصف شهر ذي الحجة الحرام، وكتب لك في الثالث والعشرين من ذي الحجة الحرام عام ثمانية عشر ومائة وألف (23 حجة 28/1118 مارس 1707).

الامضاء

إبراهيم بن محمد بن أحمد المساري

وبعد هذا، فقد طال أسر هذا الأسير، وتدخلّ أحد الآباء الرهبانيين المهتمين بالفداء، الأب بوسنو (Busnot) في شأنه، وكتب إلى الوزير بونشرطران سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709)، وسنة أربع عشرة وسبعمائة وألف (1126/1714) يطلب فداءه وتعويضه بأسير فرنسي من أسرى المغرب، فلم تحصل مساعدة، ولعلّ ذلك لتمسكه بدينه ورسوخ عقيدته. والغالب على الظن أن هذا الكتاب لم يصل إليه، ولذلك بقي محفوظاً في سجلات الدولة وأوراقها الرسمية السياسية. ولا نعرف حتى الآن شيئاً عن مآله، وما كانت عاقبة أمره.

221 - قاسم بن علي

أصله من تطوان، حسن القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، أسمر اللون.

أُسر سنة سبع وسبعمائة وألف (1118/1707).

222 - قاسم بن مشيش

أصله من سلا، عسكري أسود، حسن القامة، مُدوَّر الوجه، صحيح البنية، فوق جبهته من الناحية اليُسْرى ورم.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691). ومات بلشبونة أواسط سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1113/1702).

223 - قاسم بن مَحمَّد فتحا

أصله من سلا، عاجز مريض ضعيف.

أُطلق سراحه بمقتضى الأمر الصادر سنة ست وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1726)، بتعهد جمعية الفداء الرهبانية، بأنْ تسلم للسلطان عدداً من الأسرى فداءً لسبعة عشر أسيراً فرنسياً من الأسرى الذين عنده.

224 - قاسم بن محمَّد السّلاوي

أصله من شالة، وكان بتطوان، حرفته تسيير المراكب بالمجاذيف.

طالب السلطان بإطلاق سراحه، فسُرِّح سنة ست وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1726) على يد جميعة الفداء الرهبانية في مقابلة ما وعدها به من التساهل في فداء بعض الأسرى الفرنسيين الذين عنده.

وقد رغب السلطان في إطلاق سراحه لأنه كان ماهراً في حرفته، وأدّى عنه خمسمائة ليڤر.

225 - قاسم بن بوسلهام

أصله من سلا، عسكري، طويل القامة، صحيح البنية، مفلفل الشعر، مستطيل الوجه، مقطوع الرِّجل.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن أربعين سنة.

ومات بالمستشفى أوائل سنة تسع وسبعمائة وألف (1120/1709).

226 - قاسم الملوط بن الحاج علي

يُعرف بمولاطو، أصله من الرباط، وهذه الأسرة مازالت معروفة بالرباط.

أُمه اسمها فاطمة، حرفته خرّاز، حسن القامة، أسود الشعر، مستطيل الوجه، بركبته أثر جرح من الناحية اليُسْرى.

أُسر سنة أربع وسبعمائة وألف (1115/1704)، وهو ابن ثمان وعشرين سنة.

وطالب المولى إسماعيل بإطلاق سراحه في السَّنة نفسها. ولم يُسرَّح إلاّ سنة تسع وسبعمائة وألف (1121/1709)، على يد جمعية الفداء الرهبانية، ورجع إلى بلده.(117)

227 - قاسم طونيدو

بحّار مغربي.

كان أسيرا، وطالب بإطلاق سراحه عامل تطوان وطنجة القائد علي بن عبد الله، سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

228 - سعيد بلقاسم

عسكري، حسن القامة، أصهب الشعر، به أثر جرح بخده الأيمَن.

أُسر سنة إحدى وستين وستمائة وألف (1072/1661)، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة.

---

117) يراجع الكتاب الإسماعيلي الصادر في شأنه ومن معه. وقد تقدَّم في ترجمة عبد الله بربيش في تراجم العبادلة، وكذلك الكتاب الذي كتبه الأسير محمد حيدر، وقد أدرجناه في قصة أسر عبد الحق معنينو.

229 – سعيد بن عبد الله

أصله من الرباط، متوسط القامة، أسود الشعر، مُدوَّر الوجه، به أثر جرح بين حاجبيه.

أُشتري عبداً أسيراً وهو ابن عشرين سنة.

230 – سعيد بن بلخير

أصله من سوس، قرب أكادير، وأمه اسمها رحمة، وحرفته بحّار، معتدل القامة، صحيح البنية، أسود اللون والشعر، به أثر جرح بجبهته فوق عينه اليُسْرى.

أُسر سنة ست وسبعمائة وألف (1118/1706)، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وسيق إلى مرسيليا، واستُعمل في خدمة السُّفن.

ثمّ أُطلق سراحه بطلب من السلطان المولى إسماعيل، آخر السنة المذكورة.

231 – سالم بن أحمد

أصله من سلا.

وأُطلق سراحه سنة خمس وعشرين وسبعمائة وألف (1138/1725) في جملة أسرى آخرين، سُلّموا للسلطان المولى إسماعيل عِوَضاً عن بعض الأسرى الفرنسيين بواسطة جمعية الفداء الرهبانية.

232 – سليمان بن عمر واكَرْدينْ

أصله من الرباط، حسن القامة، مستطيل الوجه، أسود اللون والشعر، أمه أَمَة.

وصل إلى مرسيليا أسيراً سنة ست وثمانين وستمائة وألف (1098/1686)، وهو ابن ست وعشرين سنة، فاستُعمل في خدمة السُّفن.

233 – سليمان بن محمّد

أصله من سلا، حرفته خادم، متوسط القامة، أصهب الشعر، به أثر جرح قرب أذنه اليمنى.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة.

234 – سليمان تينير ؟

أصله من سلا، متوسط القامة، مفلفل الشعر، بيضوي الوجه، برأسه علامة مستديرة، وحرفته بحّار.

أُسر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (1103/1691)، وهو ابن أربع وعشرين سنة.

ومات بالمستشفى في الحادي عشر من مايه سنة ثمان وسبعمائة وألف (11 مايه 20/1708 صفر 1120).

235 – سليمان القجيري

أصله من الرباط، وأمه اسمها عائشة، وحرفته الخرازة، حسن القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، بذراعه الأيسر عدة علامات، وأثر ضربة بسيف. وأسرة القجيري لازالت موجودة بسلا.

أُسر آخر سنة سبع وسبعمائة وألف (1119/1707) وهو ابن أربع وعشرين سنة.

وطالما تكرّر طلب إطلاق سراحه بعدة وسائط، إلى أن تمَّ على يد الجمعية الرهبانية القائمة بالوساطة في الفداء، سنة عشرين وسبعمائة وألف (1132/1720).

236 – الهاشمي

أصله من تطوان، وعُرِّف به في دفتر البحّارة، بِأَنَّ والده اسمه مَحمَّد الشريف، وأمه اسمها مريم، وكان بحّاراً بتطوان.

معتدل القامة، أصهب الشعر، بيضوي الوجه، بحاجبه تلالة سوداء من ناحية اليسار، وبإزائها أثر جرح.

أُسر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (1105/1693)، وهو ابن ثمان وثلاثين سنة.

ومات بالمستشفى سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

قيل : ولعلّه الهاشمي البوكاني الذي كان طالب بإطلاق سراحه قائد تطوان وطنجة علي ابن عبد الله.

237 - الهاشمي بن محمّد دَحْداح

أصله من أصيلا، وطالب بإطلاق سراحه قائد تطوان وطنجة علي بن عبد الله، سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711).

238 - ولد شقرون ... ؟

سُرِّح بأمر من ملك فرنسا سنة اثنتين وسبعمائة وألف (1114/1702) فداءً لبعض الأسرى الفرنسيين بالمغرب، بطلب من جمعية الفداء الرهبانية.

239 - يحيى بن محمّد عفريت

أصله من تطوان، وأُطلق سراحه آخر سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711) في جملة عشرين من الأسرى البحّارة آخرين بطلب من قائد تطوان وطنجة، الباشا علي بن عبد الله، ورجع إلى بلده، وبذلك انتهت محنته.

هؤلاء الأسرى، وعددهم مائتان وتسعة وثلاثون أسيراً مغربياً كلّهم كانوا معذَّبين بفرنسا، منهم مَنْ قضى نحبه أثناء محنته، ولم يرجع من غيبته، ومنهم منْ منّ الله عليه بيُسْره، بعد عُسْره، وأُطلق سراحه، وزالت أتْراحه، وتضاعفت أفراحه، ومنهم من بقي في أسره ولا نعلم ما كان من أمره، ولِلّه الأمر من قبل ومن بعد.

*   *   *

هذا ما كان من موقف المولى إسماعيل رحمه الله من الأسرى الذين كانوا بفرنسا.

وسنرى في الفصول الآتية موقفه من الأسرى الذين كانوا بإصبانيا، وما بذله من الجهود في فكاكهم، وإطلاق سراحهم، ونجاحه في ذلك، فنقول :

الفصل الخامس

عن استيناف تبادل السفارات
بين المغرب ودول أوربا
لفداء الأسرى وإثبات السلم
واسترجاع الكتب العربية

المبحث الأول

سفارة أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب الغسّاني إلى إصبانيا لفداء الأسرى واسترجاع الكتب العربية

آل الوزير الغسّانيون

آل الوزير الغسّانيون ينتسبون إلى غسّان، القبيلة العربية الشهيرة، وانتقلوا إلى الأندلس، وتناسلوا بها، وعُرفوا بأبناء الوزير، لولاية بعضهم الوزارة بالأندلس في عهد قديم.

وقد ورد ذكرهم في كتب المعاجم والتراجم والأخبار، وعدّهم ابن عبد المنعم الحميري في كتابه : «الروض المعطار في خبر الأقطار»[118] من أكابير إشبيليا في عهد بني هود.

وكان منهم أُدباء وكُتّاب وشيوخ في الحديث والرواية، منهم أبو علي، الحسن بن أحمد، ابن محمد، بن موسى، المعروف بابن الوزير. وشُهر بنسبته إلى بطرنة، شرقي بلنسية، ذكره ابن الأبّار في «التكملة» وغيره. وتوفّي سنة أربع وعشرين وستمائة (1227/624).

ولمّا ساءت أحوال المسلمين بالأندلس، و تتابع سقوط الأمصار، والمدن الكبار، بيد العدو، هاجروا منها إلى المغرب، واستوطنوا مدينة فاس، أواخر القرون الوسطى (أواسط القرن التاسع الهجري)، وكان فيهم علماء وأُدباء وأطباء وكتّاب، ومنهم سفيرنا هذا، أبو عبد الله مُحمَّد المدعو حَمّ بن عبد الوهاب الوزير الغسّاني.

---

118) ص 118.

أبو عبد الله محمد بن عبد الوهّاب الوزير الغسّاني

كان أديباً متفنّناً فقيهاً درّاكة محبّاً للكتب، جمّاعاً لها، عارفاً بها، له سرعة في نسخها لا تُعرف لغيره، ولذلك اتخذه السلطان المولى إسماعيل كاتباً بديوانه، ولم يتولّ له الوزارة قطّ، وذكروا أنه كان يُلقي له الأوامر فيتلقّاها منه بسرعة عجيبة، ويكتبها، ويستوعبها، ولا يعزب عنه شيء منها، مع كثرتها.

وقد ترجم له في : «نشر المثاني»[119]، و«التقاط الدرر» للقادري[120]، و«سلوة الأنفاس» للكتّاني[121]، و«الدرر البهية» للفضيلي[122]، وكلّهم اتفقوا على أن المولى إسماعيل أرسله لبلاد الروم بالأندلس، بقصد أن يستخلص مَن بأيديهم من الأسرى المسلمين، ويستخرج ما بقي من الكتب العربية بالمساجد المهجورة هنالك، فألّف في سفارته هذه رحلته المسماة : «رحلة الوزير لافتكاك الأسير».

وقد تُرجمت هذه الرحلة للإصبانية، وطُبعت بالعرائش سنة أربعين وتسعمائة وألف (1358/1940).

ومن مراجعتها يُعلم أنه -رحمه الله- اعتنى بتسجيل ما شاهده بإصبانيا من الآثار الإسلامية الباقية الخالدة على ممرّ القرون والأجيال، شاهدة باستقرار الدول الإسلامية بالأندلس، وتقدّمها في الحضارة والعمران، وما كان لهم بها من عز وسلطان، ونباهة وشان، ونبّه على بعض الأسر والأشخاص الذين لازالوا محافظين على أسمائهم، مفتخرين بآبائهم وأسلافهم، كأن لسان حالهم يقول :

كأن لم يكن بين الحجُونِ إلى الصّفا أنِيسٌ ولمْ يسْمُـر بمكّـةَ سَامِـرُ
بلاَ نَحـنُ كُنّـا أهْلها فـأبَادنـا صُرُوف اللّيَالِي والجُدودُ العَواثِرُ

119) ص 100، من ج 2.

120) ص 155،

121) ص 288، من ج 3.

122) ص 360، من ج 2.

ولم يفتْه ذكر العوائد والأخلاق الاجتماعية الإصبانية كما شاهدها في عصره وانتقدها، وانتقد نظام الدولة المُنْبني عليه أُصول أحكامها العامّة وارتباطها بالدين، ممّا يدلّ على ذكائه ونباهته، ويكاد لا يوجد في غير رحلته.

إلاّ أن الذي يظهر لنا، هو أنّ هذه الرحلة المطبوعة غير تامّة، لأنه لم يُسجّل فيها نتيجة سفارته، ولم يُخبر بتاريخ رجوعه إلى المغرب، وأداء رسالته التي جاء بها إلى سلطانه، وفي أي محل اجتمع به.

وعهدنا به ما دوّنه بمدينة طليطلة ووصف مشاهدها وآثارها. وإنما اهتدينا لمآل الأسرى، وكيفية إتمام فدائهم من طرق أخرى، حسبما سياتي في محلّه.

وبعد رجوعه من هذه السفارة، اختاره المولى إسماعيل عُضواً في السفارة التي ووجّهها لعقد الهدنة مع ترك الجزائر، في حدود سنة ثلاث ومائة وألف (1103/1692-1691)، صحبة ولده الأمير مولاي عبد المالك، والعلامة أبي المسك الطيّب بن شيخ الجماعة أبي عبد الله محمد عبد القادر الفاسي[123].

وفاته

ذكر في «سلوة الأنفاس»[124] أنه توفي من مرض بداره بزنقة الرطل من فاس القرويين، عام تسعة عشر ومائة وألف (1119/1708-1707)، رحمه الله تعالى.

موجب السفارة

تقدّم لنا في الفصل المتعلّق بموقف المولى إسماعيل من فداء الأسرى، أنه لمّا فتح العرائش، وكان فتحها يوم الأربعاء ثامن عشر محرم عام واحد ومائة وألف (18 محرم 1101/ فاتح نونبر 1689)، استسلم له من كان فيها من الإصبانيين، وعددهم ألفان، كما في «الاستقصا»[125]، فأُخذوا أسارى بأجمعهم، ولم يُعتق منهم إلاّ أميرهم وحده، وادّعى

123) «نشر المثاني»، ص 86، من ج 2، و«الاستقصا»، ص 37 من ج 4، طبع القاهرة. وص 108 من ج 6 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

124) ص 88، من ج 3.

125) ص 34، من ج 4، طبع القاهرة. وص 100 من ج 4، لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

الإصبان أن السلطان كان وعدهم بالمنّ عليهم، وأخلف وعده، فأمر قاضي حضرته، أبا عبد الله، محمد، المعروف بابن أبي مدين ببيان حكم الشرع في ذلك، فبيّنه، وحكم على أولائك النصارى الأسارى بالأسر، حسبما بسطه وفصّله القاضي أبو القاسم العُمَيْري في «فهرسته»(126).

وكان من جملة أولائك الأسارى مائة من ضبّاطهم وقادتهم وأعيانهم، فطالب الإصبان بفدائهم، والمنّ عليهم، وتردّدت رُسلهم ورسائل ملكهم إلى السلطان المولى إسماعيل بذلك، فاستعصى عليهم، وطالت المخابرة والمراسلة، لأنه كان يُعلّق البتّ في قضيّتهم على إطلاق سراح الأسرى المسلمين المغاربة الذين أسرتهم إصبانيا بواسطة قراصينها في البحر، أو بواسطة جيوشها في البر لمّا كانت محتلة للعرائش والمعمورة، ومن ناحية سبتة ومليلية كذلك، وهم كثيرون.

وأخيراً عيّن -رحمه الله- كاتبه أبا عبد الله محمد بن عبد الوهاب الوزير الغسّاني سفيراً لدى ملك إصبانيا كارلوص الثاني، وكلّفه بمباشرة هذه القضية على الوجه الذي كان يريده، ووجّه معه خديمه السيد عبد السلام بن أحمد جسّوس معاشراً ومرافقاً له.

وقال السفير في مقدّمة رحلته :(127)

"لمّا كان السلطان المولى إسماعيل همّته مصروفة لفكاك الأسارى واستخراجهم من يد من كانوا في يده من النصارى ليغتنم ثواب فكاك الأسير، ويفوز بما ورد في ذلك عن الرسول البشير، وكنت ممّن منّ الله عليه بخدمة بابه، وتفضّل عليه بالانحياز لجنابه، وجّهني -أدام الله علاه- لبلاد الروم، لآتيه بمن هناك من أسارى الإسلام، وأبحث في الخزائن الأندلسية عمّا أبقاه المسلمون هنالك من كُتب الأحكام، ليكون لي معه - دام مجده - كِفلٌ من الثواب، وما هي بأول بركة نالتنا من ذلك الجناب.

فتوجّهت - مستعيناً بالله تعالى - إلى هاتيك الأقطار بإذنه الشريف وأمره، مستظلاً بظلّ جلالته وفخره، ورأيت هنالك من العجب العجاب، ما يسحر العقول ويبهر الألباب، فجمعت بعض ذلك في هذه الرقاع، لئلاّ تعدو عليه يد الضياع، ورسمته مخافة النسيان، ورجاء أن يستفيد من يطلّع عليه من الإخوان، مستمدّاً من الله العون والمنّة، إنّه ذو الفضل والكرم والإحسان والجود والمنة...".

---

126) مخطوط الخزانة الناصرية السلاوية.

127) ص 1-2، طبع العرائش.

ولمّا عزم على السفر، زوّده برسالة ملكية، خاطب بها ملك إصبانيا، جواباً عن الرسائل التي تبودلت بينهما في شأن هؤلاء الأسرى، وأعلمه بالسفير الذي وجّهه إليه، وبيّن له مهمّته التي توجّه لأجلها، وهي : فداء الأسرى، واسترجاع الكتب العربية الإسلامية التي كانت بإصبانيا، وأفصح له عن فتاوى العلماء في شأن أولائك الأسرى، والحكم باسترقاقهم، واستمرار أسرهم، وعدم المنّ عليهم، لأنهم حاربوا الفاتحين، ونقضوا العهد، وصدر منهم ما يوجب ذلك، ونصّها :(128)

نص رسالة المولى إسماعيل
إلى كارلوص الثاني

بسم الله الرحمان الرحيم

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم

من عبد الله، إسماعيل، المتوكل على الله، المفوّض أموره إلى الله، أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين، الشريف الحسني أيده الله، آمين.

ثم الطابع الشريف بداخله :

إسماعيل بن الشريف الحسني أيده الله ونصره

وبدائرته :

﴿إنّما يريد اللّه ليُذهب عنكم الرجْس أهل البيت ويُطهّركم تطهيرا﴾.

إلى عظيم الروم وملك أقاليم إصبانية، وبلاد الهند، والمتولّي أمورها، والمتصرّف في أقطارها، دون كارلوص.

---

128) «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان، ص 63، من ج 2.

أمّا بعد، فقد بلغنا كتابكم، صحبة خديمكم دون منويل بيرْدولونْ، وخديمكم دون أبيلْ مسيح، وهو الكتاب الذي وجّهتم لنا جواباً عن كتابنا الذي أصدرناه إليكم، ووصلكم صحبة الفرايلي قبل هذا، وبعد أن قرأناه، وفهمنا لفظه ومعناه، وألقى إلينا خديمكم دون أبيل مسيح ما في خاطركم وما طلبتموه منّا في فكّ هذه المائة من النصارى الذين وقع عليهم الكلام قبل هذا، رددنا إليكم جواب كتابكم، ووجّهناه مع خديم دارنا العلية بالله، كاتبنا، ومتولّ الخطّ الأقرب في بساطنا، السيد محمد بن عبد الوهّاب الوزير.

ولولا مزيتكم عندنا، ومعرفتنا بمنصبكم، ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساطنا لمهمّات أمورنا، وأذنا لخديمنا الأكبر، الأعز الأشهر، أبي الحسن القائد علي بن عبد الله أن يبعث معه رجلاً من أصحابه، فوجّه خديمنا عبد السلام بن أحمد جسّوس، معاشراً له ومرافقا. وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الإسلام المظفّر بالله على نصارى العرائش، وفي علمه، وعلى باله كل ما كان في ذلك من الكلام والأسباب وكيفية الخبر في ذلك، فثِقوا به، وتعرّفوا منه، فإنّه حفظه ووعاه من أوله إلى آخره، لملازمته لبساطنا العلي بالله في سائر أوقاته. ونحن، بلا شك، كنّا أعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالسراح، ولكن وقع من النصارى ما أخلّ به من الأسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك.

فمنهم من كان ينادي بلفظ مينا على رؤوسهم، ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك القول، وكاد يفتك بمن دخل إليهم من خدّامنا الذين أوفدناهم عليهم، وبعضهم ركب لجج البحر فاراً بنفسه، حتى أدرك وقتل على الموج، وحاجّنا على هذا كلّه كبار ملّتنا، وعلماء شريعتنا، وأئمة ديننا، بأن قالوا لنا : إن المسلمين كانوا أشرفوا على الغنيمة ساعتئذ، ووقع الغلب والظفر، ولم يبق للنصارى إلاّ الموت بالسيف أوْ بالغرق، فلا وجه لسراحهم في الشريعة رأسا، وكُنّا في أثناء هذه المدّة كلّها نترادُّ الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله، وقالوا لنا هؤلاء المائة يكونون أسارى، ويُسترقّون من كلّ وجه. كيف وقد أخذوا العرائش من أول وهلة بلا موجب، بل أضغطوا الشيخ بن السلطان الذهبي وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه أموالا عديدة، ومسكوا أولاده بسببها حتى أعطاهم العرائش على ضغط منه، وعلى غير تأويل حقيقي في ذلك. وذكّرونا في مسألة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الأربعين ألفا، بعد تعدّد الشروط على ستين شرطا، ولم يوفوا لهم بواحد منها إلى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس في كل بلد وقرية بعد بلد وقرية، فألفيناهم ما تكلّموا إلاّ بالحقّ، وبقينا في حيرة من أجل هذه المسألة من وجهين :

الأول : لا نقدر نخالف شريعتنا التي هي أساس ديننا.

والوجه الثاني : ذلك القول الذي سُمع في تلك المائة من النصارى أحببنا الوفاء به، وأنفت نفوسنا أن يسمع عنّا الناس قلنا كلمة ولا نوفي بها. ولولا معارضة العلماء لنا بهذا الاحتجاج القوي، لكنّا سرّحنا هذه المائة مع الفرايلي وأصحابه الذين أتوكم قبل هذا مسرّحين، فلأجل هذا أبصرنا كلام علمائنا في هذه النازلة لابدّ منه، ولا محيد عنه، وأحببنا أن يسمع الناس أننا وفينا في قولنا ولم يلزم فيه حرج ولا معارضة ولا كثرة اعتراض. ولم يلزم فيه من حجة الشرع إثم، فأردناكم تعملون لنا وجه خلاص هذه المائة بالوجه الذي عملناه لكم، وأعطيناكم فسحة فيه، وإلاّ فالمائة المذكورة أرقّاء أسارى من جملة أخوانهم، وذلك أنْ تعطونا في الخمسين نصرانياً من هذه المائة، خمسة آلاف كتاب، مائة كتاب عن كلٍّ نصراني من كتب الإسلام الصحيحة المختارة، المثقفة في خزائنهم بإشبيلية وقرطبة، وغرناطة، وما والاهم من المدن والقرى، حسبما يختارها خديمنا المذكرر من المصاحف وغيرها، وتعطون خمسمائة أسير من المسلمين في الخمسين الأُخرى، عشرة أسارى لكل نصراني، وإن لم توجد الكتب التي هي مرادنا، فاجعلوا عوضها من أسارى المسلمين وأعطوهم لنا من الأسارى الذين في الأغربة وغيرهم، وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمرأة، والصبي الصغير أو الكبير، والشيخ المسنّ من إيالتنا وغيرها، إذ ما لنا قصد إلاّ في الأجر والثواب، في فكاك أسرى المسلمين كيفما كانوا، ومن أي بلد كانوا، وإلاّ فالاعتناء الكلّي إنما يكون بأهل الدواوين من الجند والعلماء حملة الشريعة. وعامّة المسلمين، إنما نقصد بفكاكهم وجه الله تعالى، فإن أنتم سارعتم لهذه المسألة، فما عملكم إلاّ الخير في أرواحكم وفي إخوانكم، وإن ثقل عليكم هذا الأمر، ولم تقدروا عليه، فارجعوا خديمنا الكاتب الذي وجّهناه لكم في أمان الله، كما أتاكم، والمائة النّصارى نُصيِّرهم من جملة الأسارى إخوانهم يخدمون مثلهم، وإذا نحن أبصرنا منكم المسارعة لأغراضنا، والجدّ في ابتغاء مرضاتنا، وأنجزتم بأرواحكم في هذه المسألة، فلا ترون منّا إلاّ ما يعجبكم، وحتى باقي نصاراكم الذين هم عندنا من أصحاب العرائش وغيرها من غير هذه المائة، نعمل لكم الكلام في سراحهم بما يرضينا فيهم عندكم إنْ عملتم الواجب الذي لنا عليكم، وتعرّفتم الصّواب الذي تعيَّن عليكم، كما ذكرتم في كتابكم، وبرجوع خديمنا حامله بما ذكرناه في هذه المسألة، تتلقاه هذه المائة نصراني بسبتة، ويكون ملتقى الجميع فيها، ولا عندنا معكم في هذا إلاّ الجدّ الصحيح، والعمل الصريح، بحول الله تعالى.

وكتب لسادس عشر ذي الحجة الحرام خاتم عام واحد ومائة وألف

(16 ذي الحجة 1101/20 شتنبر 1690)

السفير الغسّاني بإصبانيا

لمّا تم تجهيز السفير، وصدرت الأوامر السلطانية بسفره، أبحر في مركب صغير من قصبة أفراگ المطلّة على سبتة، إلى مرسى جبل طارق، وكان وصوله إليها، منتصف يوم الأربعاء أواسط محرم عام اثنين ومائة وألف (أواسط محرم 18/1102 أكتوبر 1690).

ومنها ركب سفينة أخرى كبيرة أعدّتها له إصبانيا، أقلّته إلى قالص، التي كانت مقصده، فوصل إليها بعد ظهر الغد، وتلقّاه الحكّام وأولو الأمر وسكّان البلد باحتفال كبير(129).

ثم قال السفير في الرحلة :(130)

ولقينا بمدينة قالص من الأسارى رجالاً ونساءً عدداً كثيرا، وكانوا يفرحون ويُعلنون بالشهادة، والصّلاة على النبي ﷺ، ويدعون بالنصر لسيدنا المنصور بالله، فذكّرناهم وواعدناهم خيراً من سيدنا نصره الله، وأنه لا يتركهم ما دام فضل الله عليه، فكان عندهم ذلك اليوم يوم عيد، لاستبشارهم بالفرح من الله تعالى على يد المولى المنصور بالله، ولاسيما وقد تقرّر لديهم أن سيدنا - نصره الله - لا فضل له ولا نية في جمع أسارى النصارى عنده إلاّ لأجل فكاك أسرى المسلمين من يد العدو الكافر.

فاستبشروا بالبال المصروف إليهم من الملك أبقاه الله. اهـ.

ولمّا اقترب في طريقه إلى مدريد من مدينة قرطبة، برز أهلها لملاقاته أيضا، وبرز من بها من الأسارى مُعلنين بلفظ الشهادة أيضا، وداعين بالنصر للسلطان المولى إسماعيل. قال : "وكان صبيان النصارى يقولون ما يقوله الأسارى..."

وصول السفير إلى مدريد

كان وصول السّفير إلى مدريد عشية يوم السبت سابع ربيع الأول عام اثنين ومائة وألف (07 ربيع الأول 09/1102 نونبر 1690)، وتلقّاه في من تلقّاه بها الأسارى المسلمون في فرح وابتهاج وإعلان بلفظ الشهادة والصّلاة على النبي ﷺ، كغيرهم من الأسارى الآخرين، والدعاء بالنصر للسطان المولى إسماعيل، وكان صبيان النصارى يردّدون أقوالهم...

129) «الرحلة»، ص 7 و9.

130) نفس المصدر، ص 18.

ومرّ السفير في موكبه في طريقه على دار الملك، وكان يُطلّ عليهم من نافذة زجاجية.

وجاء في رسالة[131] قدّمها راهب إصباني إلى القائد أحمد بن حدو من سبتة بتاريخ ثاني عشر شتنبر سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (12 شتنبر 18/1691 حجة 1102) أنّ الحكومة الإصبانية كانت تدفع له كلّ يوم لنفقته ونفقة من معه منذ حلّ بإصبانيا مائة بياسطر مدة شهرين كاملين.

ثم خصّصت له داراً جميلة فخيمة تامّة التجهيز تشبه دار الملك فنزل بها، وصارت تعطيه كلّ يوم أربعة وعشرين بياسطر لِمَا عسى أن يتوقّف عليه من الشؤون الخاصّة.

مقابلة السّفير مع الملك

ذكر في «الرحلة»[132] أنه بعد إقامته في مدريد مدّة اثني عشر يوماً بقصد الاستراحة في تلك الدار الجميلة التي خُصِّصت له قرب القصر الملكي، استقبله ومن معه الملك كارلوص الثاني في احتفال كبير، واستقصى في السؤال عن السلطان المولى إسماعيل وأحواله، وعند انتهاء هذه المقابلة الرّسمية، ذكر له أنه سيعيد الكلام معه فيما جاء لأجله.

ثم ذكر[133] أنه لمّا انفصل عنه يوم الملاقاة، وناوله الكتاب السلطاني، سلّمه إلى ترجمان مسيحي ماروني حلبي من الشام، ليترجمه أو يعجّمه. وهو ترجمان الملك الرسمي، ورافق السّفير في زيارته لمدريد، وكان صلة الوصل والتفاهم بينه وبين الحكومة.

ولمّا عجّمه، وأطلع الملك على ما فيه، وما أشار المولى إسماعيل إليه، من إعطاء خمسة آلاف كتاب عربي وخمسمائة أسير مسلم، ثقُلت عليه الوطأة العلوية. ولم يدر كيف يتلقّى هذه الإشارة، وعرف أنّها عزمة من الملك، ولم يمكنه الاضطراب لمَا أُشرب قلبُه وقلب أهل ديوانه من صيت هذه الإمامة العلوية وعلوّ همّتها.

ووقعت المشُورة منه في ذلك مع أهل ديوانه، فرأوْا أنّ الإجابة إلى ما دعاهم إليه المولى إسماعيل، والامتثال لأمره المطاع أوْلى لهم وأوفق، وتشاوروا في ذلك أياماً عديدة.

131) «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، المجلد الثالث، ص 395 من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، السلسلة الثانية.

132) ص 43.

133) ص 57-58.

وزاد قائلاً : إنَّه بعد تدوينهم في الأمر السلطاني، وزعمهم حرق الكتب الإسلامية فيما ذكروا ببلاد إصبانيا، قدّموا للكلام معنا في ذلك كاتب الديوان الكبير والكاردينال الذي هو رأس دينهم، وهو خليفة البابا برومة، وإليه ينتهي أمر دينهم وديوانهم.

وحيث كان المولى إسماعيل جعل لهم في كتابه الشريف فُسحة إن عَدِموا وجود الكتب، أو تعذّر حالها يجعلون عِوَضها كمال ألف أسير من المسلمين، وحاولوا ترك بعض الألف فلم يجدوا له مجالا، ولم يمكنهم إلاّ المساعفة والامتثال.

وحين قبل منهم المولى المنصور ذلك، اشتغلوا بالبحث عن الأسارى وجمعهم.

وكان الملك في أثناء هذه المدّة التي صدرت أوامره فيها إلى الآفاق بجمع الأسارى، يتعهّد السفير ومن معه، ويستدعيه لصيده ومنتزهاته، ويُدخله قصره، ودور الأعيان بمدريد بقصد التَّسلية وإظهار الاعتبار والتقْدير ومزيد الاعتناء.

الكتب المشترطة في فداء الأسرى

لا يخفى أن الكتب الإسلامية العربية التي كانت بالأندلس، حاربتها الكنيسة ومحكمة التَّفْتيش، كما حاربت اللغة والدِّين وحملته بالحرْق والتمزيق والتبديد، والتشتيت والتشريد، ولاسيما بعد سقوط غرناطة، وغروب شمس الإسلام عن آفاق البلاد الأندلسية، واختفاء قرصها المضيء من سمائها.

وإن كان بقي منها شيء في زوايا الإهمال، وطوْر العفاء والاضمحلال، فهو الذي التقطه فيليپ الثاني، وضمّه إلى كتبه، وقدّمه هدية إلى مكتبة الإسْكُرْيالْ عند إنشائها وتأسيسها، وكان عددها أربعة آلاف مجلد.

فكانت بداية ثروة هذه المكتبة الغنية الزاخرة بالكتب العربية.

وقد أشار السفير في «رحلته»[134] إلى ذلك عند الكلام على زيارته للإسْكُورْيَالْ بقوله : وإلى هذه الخزانة كانوا نقلوا خزائن كتب المسلمين من قرطبة وإشبيلية وغيرهما، وزعموا أنَّها احترقت بالنار جميعها فيما قبل الآن من عشرة أعوام.

134) ص 99.

ثم نمت هذه الخزانة، وغزُرت مادتُها، وتضاعفت ثروتها لمّا اختطف قراصنة الإصبان في البحر، قرب شواطئ سلا سنة اثنتي عشرة وستمائة (1021/1612) السفينة الفرنسية التي كانت بها مكتبة المولى زيدان بن أحمد المنصور الذهبي السعدي، وكان عدد كُتبها النفيسة الغريبة النادرة الوجود ما يزيد على ثلاثة آلاف مجلد، قُدّمت هدية أيضا إلى مكتبة الإسكوريال ولم يشر إليها السفير في رحلته بكلمة.

وقد حاول المولى زيدان، وَمَنْ بَعْدَهُ من الملوك استرجاعها، وبعثوا السفراء لإنقاذها، فلم يتمكنوا من ذلك لتصميم إصبانيا على أخذها، واعتبارها غنيمة قرصانية حصّلت عليها.

وقصة هذه المكتبة طويلة محزنة، وخسارتها لا تُعوّض، ولعل المولى إسماعيل قصد من جملة الكتب التي اشترط ردّها في فداء الأسرى هذه الخزانة الزيدانية.

وأما الحريق الذي اعتذرت به الحكومة الإصبانية، فهو الحريق الذي شبّ بالإسكوريال سنة إحدى وسبعين وستمائة وألف (1082/1671).

قالوا : واستمرّ خمسة عشر يوما، وأحدث أضراراً وخراباً كبيراً في بنائه، وأتلف عدداً مهمّا من الكتب المخطوطة. وأظنّها ليست كلّها عربية، لأن كُتب الخزانة الزيدانية، لازالت موجودة بها إلى وقتنا هذا، حسبما وقفنا على بعضها وتصفّحناه لمّا زُرنا الإسكوريال في إحدى سياحاتنا بإصبانيا، والله غالب على أمره.

انتهاء مهمة السفير بإصبانيا وطلبه الرجوع إلى بلاده

لمّا طال مُقام السّفير الغسّاني بمدريد، وتشوّق للرجوع لبلاده، طلب من الملك أن يأذن له فيه، فأجابه إلى ذلك، وقابله مقابلة الوداع بأحد منتزهاته المسمى أرنخويس (Aranjuez) قرب مدريد في احتفال خاص، وسلّم له جوابه عن الرسالة التي كتب له السلطان المولى إسماعيل، وحمّله السلام عليه، اللائق بجنابه، وقال له : "نحن نرجو الخير منه في الأسارى الذين عنده".

وكان خروج السفير من مدريد في طريقه إلى المغرب في اليوم الأول من رمضان عام اثنتين ومائة وألف (فاتح رمضان 29/1102 مايه 1691)، فمرّ على طليطلة ووصفها، ووصف مسجدها، والآثار الإسلامية بها[135]

135) ص 103-104، من «الرحلة».

ولا ندري تاريخ وصوله إلى المغرب ونتيجة سفارته من رحلته، ممّا يدلّ على أن النسخة المطبوعة غير تامّة، حسبما أشرنا إلى ذلك فيما تقدّم.

الهدية التي قدّمها ملك إصبانيا للسفير لمّا عزم على الرجوع لبلاده(136)

لمّا عزم السّفير على السّفر بعد انتهاء سفارته، بقصد الرجوع لبلاده، وانتهت مقابلة الوداع مع الملك، قدّم له هدية لجلالة السلطان المولى إسماعيل، وهي :

مجوهرات، وأحجار من اليواقيت والديامنط النفيسة، قيمتها سبعة آلاف بياسطر، ودبّان كبيران، وأربع كلاب للصيْد من أحسن نوع وأغربه، وأربعة وُعول غريبة، وبندقيتان قيمة كل واحدة منهما ألف بياسطر، وفتاة تركية بارعة الجمال، ومعها فتيات أُخر مغربيات جميلات أيضا.

وخصّ السفير بأشياء أخرى، كما أن سائر أعيان الإصبان وكبرائهم قدّموا له هدايا نفيسة، وفي ذلك دلالة على اعتباره واهتمام الملك ورجال دولته بشأنه.

مآل الأسرى المغاربة بإصبانيا بعد رجوع السفير منها

لم يذكر السّفير في رحلته مآل الأسرى المغاربة المسلمين بإصبانيا بعد أوبته منها، وهل تمّ الاتفاق على فدائهم، وعلى فرض إتمامه، هل رافقوه في طريقه، أو جاؤوا بعده، أو وجّهتهم إصبانيا لسبتة أو إحدى المراسي المغربية ؟

وقد فسّر هذا الغُموض الراهب الإصباني في رسالته التي قدّمها للقائد أحمد بن حدّو (137)، وكان جاء للمغرب لإتمام المذاكرة في فداء ما بقي من الأسرى الإصبان بمكناس، وتنفيذ ما تمّ الاتفاق على فدائه، فقال :

136) رسالة الراهب الإصباني التي قدّمها للقائد أحمد بن حدو في 12 شتنبر 18/1691 حجة 1103 «المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، ص 335 من السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

137) تقدّمت الإشارة إليها في الفصل السابق.

إنَّه عمل غاية مجهوده في فداء الأسرى المغاربة الذين بإصبانيا، وزاد على ما تمّ الاتفاق عليه إطلاق سراح سائر الصبيان الرّضع ذكوراً وإناثاً تبعاً لأمهاتهم ووالديهم بدون عوض هدية وإرضاء لجلالة السلطان، ليتفضّل بالإنعام عليه بإطلاق سراح سائر النساء الإصبانيات الأسيرات بالمغرب تبعاً لأزواجهن.

وذكر أنه تأثّر جداً، وندم على عدم تقديم المذاكرة في هؤلاء الأطفال وأمهاتهم منذ أول مرة، ولكنه يعتمد على حسن وساطة القائد وإعانته، حتى ينعم عليه السلطان بهم، وعددهم مائة وستة وثلاثون.

وأخبره بأنَّه سيسلم له بسبتة الألف أسير مغربي عِوضاً عن المائة أسير إصباني، تنفيذاً للاتِّفاق المبرم في شأنهم.

ويؤخذ منه أن تسليم الأسرى تمَّ بعد رجوع السفير من سفارته.

ثم قال : والباقي من الأسرى الإصبانيين، وعددهم ثلاثمائة وواحد وخمسون أسيرا، ستقع المذاكرة في فدائهم بالعِوَض النقْدي، بعد الاتفاق عليه وتعيينه في مدة قريبة.

وأقْسَم له بأنَّ بعض الأسرى المغاربة الذين سيسلمهم للحكومة المغربية دفع ملكه الإصباني في ثمن كل واحد منهم لملاّكهم من الإصبان مائتين وخمسين بْياسْطَرْ.

ثم قال : وزيادة على هذا كلِّه، فقد رخّص لأولئك الأسرى المغاربة المطلق سراحهم أن يحملوا معهم سائر ما ربحوه واقتنوْه بإصبانيا مالاً ومتولا. ومنهم من أخذ معه ألف بْياسْطرْ، ومنهم من أخذ خمسمائة إلى مائتين، مع أنَّه ممنوع على كل أحد أن يخرج معه النقود أو السكة الإصبانية، لمَا في ذلك من المخالفة لقوانين البلاد المقررة والمعمول بها.

وأخبره بأنه جاءه بالدْرعين أو الزْردين الحديديْين الذيْن أوصاه عليهما، وكلَّفه بشرائهما له.

وفي الرسالة أمور أخرى شخصية أعرضنا عنها.

كيفية تسليم الأسرى بسبتة

جاء في مذكرات جان بابطيسط إيسطيل التي رفعها لوزيره بونشرطران، بتاريخ ثاني مارس سنة اثنتين وتسعين وستمائة وألف (02 مارس 1692/13 جمادى الآخرة 1103) ما ملخّصه ببعض تصرف...[138].

138) ص 453. من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وأخيراً تم الفداء ومبادلة الأسرى بين المغرب وإصبانيا بسبتة على يد القائد علي بن عبد الله.

قال : وقد كنت أستبعد هذا الفداء، وأظنه لا يتم، لأن المغرب كان واعد الإصبانيين بأن الأسير المدفعي الذي عنده، سيكون أول من يُفدى من المائة أسير الإصباني، في مقابلة ألف أسير مغربي، فإذا به تمّ الأمر بخلاف ما كنت أظنه، وأخلف المغرب وعده ساعة الفداء وتركه عنده، وعوّضه بأسير آخر شيخ أعمى، ولم تبخل إصبانيا بالعشرة أسرى من المغاربة الذين كانوا مُعَينين في مقابلته.

وهذا المدفعي الإصباني الذي حجزه المولى إسماعيل عنده، إسمه خوسي دياز (Jose Diaz)، أُسر في جملة أسرى العرائش عند فتحها عام واحد ومائة وألف (1689/1101) كما تقدّم، وكان موصوفاً بالذكاء والفطنة والمهارة في صناعة البارود، واشتهر بها، ولذلك اصطفاه المولى إسماعيل، وقرّبه وحظي عنده، وأسند إليه رتبة قائد في الجيش، ووجّهه سفيراً إلى البرتقال، وإلى إنجلترا سنة إحدى وسبعمائة وألف (1119/1701).

ولكنّه بعد ذلك سقطت منزلته عنده وسَخِطَه، لمّا بلغه أنه يعمل على طلب فدائه ورجوعه إلى إصبانيا، وربّما صدر منه ما أوجب قتله، فقتله بعدما قضى في الأسر ثماناً وعشرين سنة.

وفي اليوم المعيّن لتنفيذ الفداء، وهو يوم ثلاثين من شهر مارس، سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (30 مارس 29/1691 جمادى الآخرة 1102)، ورد على مرسى سبتة ثلاث سفن جَنْوِيَة، تقل على ظهرها الألف أسير مغربي الذي تم الاتفاق على فدائهم.

ووقع خلاف بين سفير إصبانيا، والقائد علي بن عبد الله في كيفية إنزالهم إلى البرّ، واشترط القائد الابتداء بإنزال الرجال الأصحّاء الأقوياء وذوي الامتياز والشهرة، وبعدهم من هم دونهم، خشية أن يقع ما يوجب فرار السُّفُن وإقلاعها من المرسى قبل إنجاز العمل.

ولمّا نزلوا كلهم إلى البرّ، وتسلّمهم القائد، وأحصاهم واستقصاهم، سلّم المائة أسير من الضبّاط وأعيان الجيش الإصباني إلى السفير عِوضاً عنهم حسبما تمّ الاتفاق عليه.

ثم رحل القائد إلى العاصمة المكناسية، وأصحبهم معه، ليقدّمهم إلى السلطان بنفسه.

وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهودا، برز الناس فيه على اختلاف طبقاتهم للقائه، مظهرين الفرح بإطلاق سراح أسراهم، واسترجاع حريتهم ورجوعهم إلى أوطانهم.

واخترق شوارع المدينة في ذلك المهرجان الكبير، ومعه جيوشه في أحسن زَيٍّ وأكمله، يقرعون إثني عشر طنبورا، ويحملون راية كبيرة خضراء، وخلفهم الأسارى الممنون عليهم بالفداء.

وكان السلطان المولى إسماعيل في انتظارهم في زيِّه وهيأته الملكية بباب القصر.

قال الرَّاوي : وبمجرد وصول القائد علي لحضرته، نزل عن فرسه، وقبّل الأرض بين يديه، ثمّ تقدّم إليه، ولثم حاشية كسائه، فتهلّل وجهه ورحّب به.

ثم قدّم له الأسرى، فسُرّ الملك بهم، وقبّل كُلَّ واحد منهم قبلة اعتبار وتقدير بين عَيْنَيْه، وكان عددهم سبعمائة أسير، والباقي من الألف وهنّ النساء، وعددهنّ ثلاثمائة، تنحّوا وانعزلوا في جناح خاصٍّ بهنَّ من القصر.

وبعد هذا الاحتفال والاقتبال، خلع على كلّ واحد وواحدة من الجميع خلْعة ملكية تُناسب قدره ومقامه.

قال الراوي : وكُنْتَ حينئذ لا تسمع إلاّ : "الله يبارك في عمر سيدي ويطيل حياته".

وقد كان لهذا الاحتفال بخلاص هؤلاء الأسرى، دوي عظيم، تردّد صداه في أقطار المغرب.

كما كان لنجاح عملية هذا الفداء أثر كبير بين سائر الدول المسيحية، ورفع به قناصلهم تقاريرهم الرَّسْمية، وتحدّثوا به وعنه في مجالسهم وأنديتهم السياسية.

وبذلك انتهت أعمال سفارة السفير أبي عبد الله محمد بن عبد الوهّاب الوزير الغسّاني، وما أسفرت عنه من نتائج مجدية، وإن كنّا لم نقف له على ذكر في هذا التنفيذ الذي تمّ بسبتة، ولا هذه الاحتفالات التي أُقيمت بالعاصمة المكناسية، ولعلّه كان إذ ذاك متغيباً في السفارة التي عُيّن فيها لدى الحكومة التركية الجزائرية.

وأمّا باقي الأسرى الإصبان الذين كانوا بمكناس، فقد كان يقع فداؤهم بعد ذلك زُمراً وأفراداً على يد الوسائط من القناصل والرُّهْبان والتجّار في ظروف وأحوال مختلفة، كلَّما دعت الحالة السياسية أو الحوادث الحربية إلى ذلك.

وجاء في مذكرات القنصل جان بابتيسط إيسطيل التي رفعها لوزيره بونشرطران من سلا بتاريخ سادس عشر يونيه سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (16 يونيه 1691/

19 رمضـان 1102)[139]، أنه بقي من الأسـرى الإصبـانيين بالمـغرب خمسـمـائة وألف أسـير، فيـهم المـرضى والزَّمنى والعَـجَزة، وأنَّـهم لمّا سـمـعوا بفداء المـائة أسـير من أسـرى العـرائش دونـهم، سَخِطوا على حكومتهم، ودخل جلّهم في الإسلام.

---

139) ص 376. من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

المبحث الثاني

سفارة القائد أحمد بن حدو العطّار إلى انجلترا لعقد الصلح وفداء الأسرى

ظهر في عهد المولى إسماعيل، قائدان ممتازان من أعيان وكبار رجال حكومته، فكانا كنجمين لامعين في سماء دولته، وكل منهما سبح في فلك سياسته، ودار حول محور قطب الجهاد، بالثغور المغربية المحتلّة بمملكته، وكلّ منهما كان يسمى أحمد بن حدّو.

أحمد بن حدّو الريفي

أما أحدهما فكان يُعرف بالريفي، وهو أخو القائد عمر بن حدّو الريفي، عامل مقاطعة الغرب والقصر الكبير الذي حضر فتح المعمورة، كما في «المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا أبي عبد الله أحمد» لسيدي عبد السلام بن الطيب القادري[140].

وبعد وفاته، خَلَفَهُ أخوه أحمد هذا في وظيفته، وهو الذي ساق الجيوش لمحاصرة العرائش، حتى تمّ فتحها، كما عند الزياني في «الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب»[141] و«الاستقصا»[142]، وبعد فتحها أُضيفت لولايته.

وهما معاً من أسرة القائد الشهير أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي الحمامي، عامل تطوان، وفاتح طنجة، صاحب الآثار الباقية فيها.

140) ص 85، من ج 1، طبع فاس.

141) ص 22، طبع باريس، سنة 1886.

142) ص 34 من ج 4، طبع القاهرة. وص 99 من ج 6 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

قال في «الاستقصا»[143] : "وأعقاب هذا القائد لا زالوا اليوم بطنجة، وكثيرا ما تكون فيهم الرياسة هنالك".

وأثنى عليهم في محلّ آخر بقوله :[144] وكان أولاد الريفي هؤلاء من الشهرة في الجهاد، والمكانة في الشجاعة ومكايد الحرب، بمنزلة أولاد النقسيس، وأولاد الليف، وأضرابهم، رحم الله الجميع.

القائد أحمد بن حدّو العطّار

وأمّا الآخر فكان يُعرف بالعطّار، وهو السفير بإنجلترا الذي سنتكلّم على سفارته.

وكان مقرّباً من المولى إسماعيل ومن خاصته، وأسند إليه عمالة أكادير وآسفي، وآزمور، وسلا ورباط الفتح، فتخلّى عنهما لأخيه، واحتفظ بولاية الثغور الحوزية، ليقوم بالحركة الجهادية فيها وحولها بشنّ الغارة على العدو المحتلّ لها. وكان كثير الإقامة بمكناس وملازماً للحضرة السلطانية الإسماعيلية[145].

وكانت أمه أوربية مسيحية، ولعلّها من سبي القراصنة، وقيل إنها فرنسية مرسيلية.

ولمّا كان سفيراً بإنجلترا، ادّعى إنها إنجليزية، وفي أثناء مذاكرته مع سفراء فرنسا كان يزعم أنها فرنسية، "تميمياً مرّة وقيسياً أخرى"، حسبما تقتضيه الظروف والأحوال[146]

وقد ذكر السفير سانت أولون (Saint-Olon) في مذكراته المؤرخة بسابع شتنبر سنة ثلاث وتسعين وستمائة وألف (07 شتنبر 08/1693 محرم 1105)[147] أن المولى إسماعيل لمّا كلّفه بالمذاكرة معه في تحرير صكّ الصلح، كان يزعم أن أمّه فرنسية مرسيلية، تقرباً من الفرنسيين واستجلاباً لهم، ووصفه بأنه كان حادّ البصر رقيق الحاشية، ولكنه مكّار خدّاع، محتال إلى آخر درجة، محبّ للمال جمّاع له.

وكان رفيقاً وجليساً للأمير مولاي زيدان، وملازماً لمجلسه، هذا ما قاله فيه.

---

143) ص 31، من نفس الجزء والطبعة. وص 92 من ج 6 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

144) ص 30، من نفس الجزء والطبعة. وص 88 من ج 6 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

145) ص 87 من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا، وكذلك ص 587 من المجلد الأول.

146) ص 703، من نفس المصدر، المجلد الثالث.

147) ص 176، من نفس المصدر، المجلد الرابع.

قلت : ونحن نعلم أنه كانت له مواقف حاسمة، وأخذ وردّ وجدال أثناء المذاكرة والمحاورة مع هذا السفير في تحرير مشروع صكّ المعاهدة السلمية التي جاء من أجلها، ويزعم أنه كان سبباً في عدم نجاحها.

وكانت بينه وبين القائد أبي الحسن علي عبد الله الريفي منافسة على الرياسة والنفوذ، وخصوصاً في مقامات الشفوف والامتياز في الدولة.

كما كانت بينه وبين الأميرال عبد الله ابن عائشة صداقة ووصلة متأصِّلة متواصلة، منذ كان ولياً على العُدوتين.

ولمّا كان ابن عائشة في سفارته الباريسية سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (1110/1699)، كتب رسالة لأخيه الرئيس عبد الرحمان أخبره فيها بعد أمور تتعلّق بسفارته ومهمّته وقال له : أطْلِعْ على هذه الرسالة القائد أحمد بن حدّو العطّار ولا بدّ، ونُبْ عنّي في تقبيله، وليطمئنّ بالاً من أشغالنا وأعمالنا السرية والعلانية... ممّا يدل على الثقة التامّة التي كانت متبادلة بينهما[148]

مكانة القائد ابن حدّو العطّار من السلطان المولى إسماعيل

كان هذا القائد، كما سبقت الإشارة إليه، عند السلطان المولى إسماعيل من المقرّبين، وفي بساط تشريفاته من المقدّمين، يُدنيه في المحافل الرسمية، ويستنيبه في استقبال سفراء الدول الأجنبية، ويعيّنه عضواً في الاجتماعات السياسية، التي كانت تُعقد بحضرته لتقرير مآل الأسرى وتحرير مشاريع المعاهدات السلمية.

ومن ذلك : ما ذكره السفير الفرنسي سانت آمان (Saint-Amans) فيما دوّنه عن مراحل رحلته بالمغرب إلى المحلّة الإسماعيلية بسوس، سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (1093/1682)، قال :

إنه لمّا أشرف على المحلة السلطانية، تلقّاه على مسافة منها القائدان علي بن عبد الله وأحمد بن حدو العطّار هذا، بعد رجوعه من سفارته بإنجلترا، وهو الذي قاده إلى المحلّة في أحسن زي وأكمله، وقدّمه للمولى إسماعيل عند استقباله يوم قدومه ويوم وداعه.

148) ص 62 من المجلد الخامس من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وكان من جملة أعضاء اللجنة التي عيّنها السلطان المذكور للمذاكرة معه في تقرير الصلح الذي باشره السفير المغربي بباريس، أبو عبد الله الحاج مُحمَّد تميم التطواني في سفارته[149].

وجاء في الرسالة التي رفعها القنصل الفرنسي بيريلي «Perillié» إلى وزيره سينيولي (Seignelay) من سلا (الرباط) بتاريخ خامس عشر يوليوز سنة أربع وثمانين وستمائة وألف (15 يوليوز 1684/ شعبان 1095)[150] أنَّ القائد أحمد بن حدّو العطّار، كان يعضّده في مخابراته مع السلطان المولى إسماعيل، ويهتمّ بالقضايا التي تتعلّق بالسياسة الفرنسية، مع أنه كان قريب عهد بسفارته لدى الدولة الإنجليزية، والذي يظهر أنه لم يوفّق فيها، حسبما كان ينتظر منه...

وقد ظهر منه ميل للجانب الفرنسي، ولذلك يتعيّن على الحكومة الفرنسية أن تستغلّه وتعتبر عطفه عليها، وتصطنعه وتحتفظ بوداده، وتتظاهر بمحبّته، لمَا له من النفوذ في الحالة الحاضرة بالحضرة السلطانية، بحيث لا يضاهيه في ذلك غيره من الوزراء، زيادة على اطلاّعه التّام على المسائل والقضايا التي تهمّ الفرنسيين في الوقت الحاضر.

ثم قال ناصحاً وزيره : إن اقتضى نظرك أن تكتب لهذا القائد ليحْمي تُجّارنا الفرنسيين بالمغرب، ويمدّ لهم يد المساعدة من قبل الملك، فنعم العمل، وفي ذلك ضمان لنجاحهم.

وقد أخبرني بأنَّ السفير الحاج محمد تميم، لمّا كان بفرنسا رأى ببعض حدائق فِرْسَايْ وعولاً وتيوساً غريبة جميلة، واستحسنها غاية الاستحسان.

وعليه فإنْ رأيتَ أن توجّه له بعضها ليقدّمها كهدية لجلالة السلطان، فإنه يكون مسروراً بها جداً، ولعله هو الذي رغب فيها.

أسباب السفارة وموجباتها.

كان استيلاء البرتغال على مدينة طنجة كغيرها من الثغور المغربية الأخرى سنة تسع وستّين وثمانمائة (1464/869)، وبقيت تحت حكمه مائة وخمس سنين، ثم سلّمها للإنجليز سنة أربع وسبعين وألف (1662/1074) في مقابلة المهاداة والصهر الذي انعقد بينهما[151].

149) ص 425 من المجلد الخامس من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

150) نفس المصدر، ص 424، من المجلد المذكور.

151) «الاستقصا»، ص 150، من ج 2، وص 14 من ج 4، طبع القاهرة، وص 298 من ج 4 وص 38 من ج 6 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

فكانت كقرحة دامية غير مندملة في جسم المملكة المغربية لموقعها الجغرافي وأهميتها السياسية والاقتصادية.

وعليه، فيمكننا أن نعتبر أن المغرب كان في حالة حرب مع الإنجليز منذ هذا التاريخ، إذْ لم تنقطع الغارة على طنجة والتضييق عليها وحصارها منذ ابتداء الدولة العلوية، وخصوصاً في العهد الإسماعيلي، ونشأ عن ذلك كثرة الأسرى من الجانبين، سواءً في أثناء الحرب والمناوشة أو اختطافهم من وراء الأسوار، والتقاطهم من حولها، كلّما وجد الطرفان غرّة في بعضهما، زيادة على استفحال القرصنة السلاوية الرباطية وتصدّيها للسفن والمراكب الإنجليزية، فكانت تصطادها، وتنقضّ عليها انقضاض النسور على الأنعام السّائمة، فاهتمت إنجلترا بذلك اهتماماً كبيرا، وحاولت بسياستها تخدير المغاربة، لعلّهم يامنون إليها، وتامن هي هجومهم وحصارهم لها، لاسيما بعد ما شاهدوه وعرفوه من عزم السلطان المولى إسماعيل الذي لا يتزعزع، وانصراف همته الثابتة إلى الجهاد، وتطهير البلاد من المحتلّين للمراسي والشواطئ المغربية كالبرتقال والإصبان.

وعملاً بذلك، فإنّه في حدود سنة أربع وستين وستمائة وألف (1075/1664)، وفد عليه بحضرته الفاسية أحد ضبّاط الجيش المحتل بطنجة المسمى وَيْتْ (Whit) صحبة عامل العدوتين سلا ورباط الفتح عبد القادر مورينو، ومعه نحو الثلاثين من الأسرى السلاويين والرباطيين الذين أسرهم الأسطول القرصاني الإنجليزي هدية له، وترغيباً في عقد صلح وهدنة معه، فوعده أوّلاً خيراً لمّا يكون بمكناس.

ولمّا رجع إلى مكناس، رجع إليه الضابط المذكور مستنجزاً وعده، فأجابه بأنه لا يمكنه مهادنته ولا مصالحته حتى يسترجع طنجة تنفيذاً لمَا أمره الله به على لسان رسوله ﷺ من الدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين.

ثم أمر عامله على القصر أن يُعطيه ثلاثمائة من البقر، ومثلها من الغنم في مقابلة هديته.(152)

وفي سنة ست وسبعين وستمائة وألف (1087/1676)، أصدر أوامره لقائده، حامل راية الجهاد بالمغرب، عمر بن حدّو الريفي، بشنّ الغارة على طنجة ومضايقتها بكل ما يمكن من التشديد، فضاق الإنجليز به ذرعا، ونالهم منه حسرة وشدّة.

---

152) «تاريخ مولاي الرشيد ومولاي إسماعيل» للأسير مويط (Mouëtte) ص 79، وتاريخ «إسماعيل الكبير» لدوفنطان ماكزانج (Defantin Maxange)، ص 138-139.

ونتج عن ذلك انعقاد هدنة بينهم وبين المغرب سنة ثمانين وستمائة وألف (1091/1680) لمدّة ستة أشهر.

ثم عُوضت بهدنة أخرى أُمضيت في شهر أبريل سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (1092/1681) بواسطة السفير جيمس ليسْلي (James Leslie)، والقائد عمر بن حدّو الريفي المتقدّم الذكر، وتضمّنت المادة الثالثة منها، أنْ لا يبني الإنجليز حصناً أو برجاً خارج طنجة(153).

وهذا السفير هو الذي أرغمه القائد أحمد بن حدّو العطار، - صاحب الترجمة - على المثول بين يدي السلطان المولى إسماعيل حافي الرجلين، كما سياتي.

ثم جُدّدت هذه الهدنة في السنة نفسها على يد سفير، آخر يسمى كيرك (Kirk)، لمّا قدم على السلطان لمكناس لمدّة أربع سنوات، ولكنها لم تُحترم من الجانبين، ولم يتم تسريح الأسرى من الطرفين، واستمرّت أعمال القرصنة على ما كانت عليه شدّة وحماسة.

توجّه السفير أحمد بن حدّو العطّار إلى انجلترا

لمّا كثُر تردُّد السفراء الإنجليز على المولى إسماعيل، وتعدُّد عقد الهُدَن وتجديدها بدون فائدة تذكر، لأنّ طنجة لازالت محتلّة، وحالة الأسرى بالمغرب وإنجلترا سيئة مختلّة، اقتضى نظر المولى إسماعيل توجيه سفير من قبِله إلى الملك شارل الثاني، ووقع اختياره على القائد أحمد بن حدّو العطّار، وذلك في سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (1092/1681)، وعيّن معه مرافقاً ومصاحباً أبا العبّاس أحمد الوقّاش التطواني.

وكان القصد من هذه السفارة إعادة العلائق السياسية بين المغرب وإنجلترا وإيقاف الحركة القرصانية بين الطرفين ومبادلة الأسرى(154).

ثم أبحر السفير من طنجة بعد ما أقام بها مدة تزيد على الشهر.

---

153) ص 535 من المجلد الأول من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

154) نفس المصدر والمجلد، ص 587-603.

وكان وصوله إلى إنجلترا في التاسع والعشرين من دجنبر سنة إحدى وثمانين وستمائة وألف (29 دجنبر 7/1681 محرم 1093)، ونزل بمرسى دِيلْ (Deal)، ومنها توجّه إلى لوندرة.

وبعد وصوله إليها، احتفلت به دوقة بورت سموث (Portsmouth) احتفالاً لائقاً بشخصيته، وأقامت مأدبة فخيمة على شرفه، فحضرها ومن كان معه، وكان بها عدد كبير من النساء الإنجليزيات في لباسهنّ الخاص، كاشفات عن صدورهن وأذرعهن، ومبديات ما يُخْفى من زينتهن، فأظهر الحياء والخجل، وغضّ طرفه وقال : إن ذلك مخالف لدينه وعوائد قومه في بلاده.

واحتفلت به كلية كامبريدج (Cambridge)، وأعطته شهادة فخرية شرفية[155].

استقبال الملك له

ثم استقبله الملك شارل الثاني، وبعد ذلك تمّت المخابرة بينه وبين رجال الدولة البريطانية فيما جاء لأجله.

وحدّث جان بابتيسط إيسطيل في مذكراته التي حرّرها بمرسيليا بتاريخ سادس يوليوز سنة تسعين وستمائة وألف (06 يوليوز 29/1690 رمضان 1101) :[156]

أنه لمّا وصل سفير انجلترا السير جيمس ليسلي إلى مكناس في التاريخ المتقدّم، وأراد الدخول على السلطان المولى إسماعيل بقصد استقباله وأداء رسالة ملكه إليه، أشار القائد أحمد بن حدّو هذا على السلطان بأن لا يدخل عليه إلاّ حافي القدمين، بدون حذاء.

وبعد رجوعه إلى بلاده أخبر ملكه بذلك، فاعتبره إهانة واحتقاراً له، وأسرّها في نفسه إلى أن جاء أحمد بن حدّو هذا سفيراً إليه، فأمر أن لا يدخل عليه إلاّ مكشوف الرأس حافي الرجلين، انتقاماً منه وانتصاراً لسفيره، فأُرغم على نزع عمامته من رأسه، ونعليه من رجليه، ومَثَلَ بين يديه على هذه الحالة، فاعتبر ذلك مُثْلة وإهانة له أيضا.

ومن ذلك الحين، أظهر الحقد والعداوة للإنجليز، وصار كلّما ذكرهم أوْ ذُكروا عنده، تنمّر واغتاظ، وصبّ عليهم من لسانه سوْط سبٍّ وثلب.

---

155) «تاريخ المغرب» لكواصاك دو شاڤروبيير (Coissac de Chavrebière)، ص 387-388.

156) ص 228 من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

المعاهدة الصلحية وما نتج عنها

بعد الاحتفالات الرسمية التي قوبل بها السفير أحمد بن حدو العطّار بلوندرة، تمَّ التوقيع بينه وبين الحكومة الإنجليزية في ثامن أبريل سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (02 أبريل 23/1682 ربيع الأول 1093) على صك معاهدة وايط هال (Whithehall).

وتوخذ نتيجة هذه المعاهدة من نص الكتاب الذي وجهه السلطان المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر بتاريخ تاسع شعبان عام خمسة ومائة وألف (09 شعبان 22/1105 يوليوز 1684) منددًا به، ومقابلاً بينه وبين ملوك دول أوربية أخرى، كإنجلترا، وأنه لم يظهر منه اعتناء، ولا قول صحيح صريح(157).

قال : ...

«والإنجليز تكلّموا معنا كلمة وقبضناها عليهم، ووفوا بها، فحين ذهب خديمنا لبلادهم (يعني أحمد بن حدو العطّار) لمّا أنْ طلبوا منّا ذلك، فرحوا به، وأكرموه، وبرّوا به وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة، وستة عشر مائة قنطار من البارود، ومائة وسبعة من المسلمين أطلقوهم من الأسر لوجوهنا، وعملوا من الخير مراعاة لنا، وثبتوا في قولهم، ووفوْا بكلامهم...»

رجوع السفير بن حدو العطـار إلى المغرب

لمّا أتمَّ السفير ابن حدّو العطّار مهمته بلوندرة بالتوقيع على المعاهدة المتقدمة، بارح إنجلترا راجعاً إلى بلاده، وكان وصوله إلى طنجة أوائل شهر شتنبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (أوائل شتنبر 1682/ رمضان 1093) مصحوباً بهدية إلى السلطان المولى إسماعيل.

وجاء في الرسالة التي كتبها السفير سانت آمان (Saint-Amans) إلى وزيره سينيولي (Seignelay) من بوغاز جبل طارق بتاريخ فاتح أكتوبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (01 أكتوب 13/1682 شوال 1093)(158)، أن السفير المغربي أحمد بن حدّو الذي كان بإنجلترا، وصل إلى طنجة منذ نحو ثلاثة أسابيع.

---

157) نفس المصدر، ص 434. و442 من المجلد الثاني.

158) ص 264 من المجلد الثاني من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وأنَّ ملك إنجلترا وجّه معه هدية إلى ملك المغرب المولى إسماعيل، وهي :

- عربة فاخرة

- ومِقْرَن هولاندي تُقرن به الخيول.

- واثنى عشر مائة برميل مملوءة بارودا.

- وألفا بندقية.

محنة السّفير أحمد بن حدُّو العطّار بعد رجوعه من سفارته

ذكر السفير الفرنسي سانت آمان (Saint-Amans) المتقدم الذكر - وكان سفيرا بالمغرب- في رسالة رفعها لوزيره سينيولي (seignelay) بتاريخ ثامن نونبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (08 نونبر 1682/ قعدة 1093)[159] أن السفير أحمد بن حدو العطّار لمّا رجع من سفارته، واجتمع بالسلطان المولى إسماعيل، وأخبره بنتيجة مخابراته، وأطلعه عل صكّ المعاهدة التي أمضاها ووقّع عليها، استقلّها لأنه كان يأمل الحصول على نتيجة أكثر منها، وسخطه وسجنه وأثقله بالحديد وامتحنه.

- وبعض الناس يقولون، إنّه زيادة على أن النتيجة كانت ضئيلة جدا، فإن أعضاء السفارة لمّا كانوا بلوندرة، حصل بينهم خلاف وخصام أدّى إلى هرج ومرج.

- وآخرون يقولون : إنّ السفير ارتشي وقبض قدراً من المال من ملك انجلترا.

- وتزعم فئة أخرى من الناس أن هذه المحنة التي حلّت بهذا السفير، بعد رجوعه من سفارته، سببها وشاية أقرانه من رجال الدولة إلى السلطان به.

وامتنع المولى إسماعيل من المصادقة على المعاهدة، وبقيت حبراً على ورق، ولم تمض إلاّ مدة يسيرة حتى رضي عن قائده وسفيره، بعدما غرم قنطارين من الفضة، وكانت محنته سحابة صيف عن قريب تقشّعت، ولكنه أصابه منها شؤْبوب.

وقد تجدّدت محنة هذا السفير مرة أخرى، حسبما أخبر به جان بابتيسط إسطيل (Jean-Baptiste Estelle) في مذكراته بتاريخ رابع عشر يوليوز سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (14 يوليوز 1691/27 شوال 1102).

159) ص 282 من نفس المصدر ونفس المجلد.

قال :[160]

إنّ القائد أحمد بن حدو العطّار كثُرت به الشكايات إلى السلطان من المسلمين واليهود والنصارى، بأنه يظلمهم، ويتعدّى عليهم، ويُضيع حقوقهم، فأحضره المولى إسماعيل، وأحضر المشتكين به، وقابله وإياهم وجهاً لوجه، وصرّحوا له بتُهمهم التي اتّهموه بها بمحضره.

ولمّا رأى ذلك وسمعه، سخطه وسبّه، وهدّده بالقتل، وعزله من وظيفته، وجعل مكانه القائد عبد الله بن حمدون الروسي، عامل فاس ونواحيها.

ولكن هذه النكبة لم تدم إلاّ نحو ثلاثة أشهر فقط، ثم رضي عنه، وردّه لمرتبته ومكانته، وما كان له من النفوذ بحضرته، والقرب من سدّته.

عدم المصادقة على المعاهدة التي عقدها السفير ابن حدّو وما نشأ عن ذلك

كان المولى إسماعيل ينتظر نتائج أهمّ وأعظم ممّا تضمّنته معاهدة وايْطْ هالْ (Whitehall)، ولذلك لم يُصادق عليها بعد رجوع السفير ابن حدّو من سفارته، ولم تكن حدّاً فاصلاً لهجوم القراصنة السلاويين الرباطيين على الأساطيل القرصانية الإنجليزية.

وفي أثناء هذه الظروف التي عُقدت فيها هذه المعاهدة، بلغه أن الإنجليز مدّوا يدهم إلى ابن أخيه ابن محرز الثائر عليه، وأمدوه بالعدة والسلاح، فازداد حنقاً عليهم، وقرّر عدم المصادقة على معاهدتهم، وانتشرت القرصنة السلاوية الرباطية في البحر تهاجم السفن الإنجليزية وتسوقها للأسر قهرا، ولا تجعل لها من أمرها يُسرا.

قال سانت آمان (Saint-Amans) في رسالته المؤرخة بثامن نونبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (08 نونبر 08/1682 قعدة 1093) لوزيره سينيولي (Seignelay)[161] إن قراصنة سلا (يعني والرباط) لم يحترموا ما أبرمه السفير ابن حدّو مع الإنجليز، وأخذوا له في البحر، في مدّة قصيرة، ثلاثين سفينة.

---

160) ص 384-385 من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

161) ص 288 من المجلد الثاني من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وأخبر القنصل الفرنسي بيريليي (Perillié) في رسالة له أيضاً من الرباط إلى الوزير المذكور بتاريخ خامس عشر يوليوز سنة أربع وثمانين وستمائة وألف (15 يوليوز 1684/02 شعبان 1095)[162] : أن الإنجليزيين -انتقاماً من قراصنة سلا والرباط- طاردوا سفينة للأميرال عبد الله ابن عائشة، فجنحت إلى البر، واستولوا على ما فيها من بحّارة ومتاع، وذلك منذ نحو خمسة عشر يوماً من تاريخه، والباقي من بحّارتها غرق في البحر، أو نجا إلى البر بِجُرَيْعَةِ الذّقن.

ثم قال : وقد تأخرت سفينتان أخريتان عن موعد دخولهما لمرسى العدوتين، فحصل للناس قلق كبير، خشية أن يكون حلّ بهما ما حلّ بالسفينة الأخرى من الإنجليزيين، لأنّ لهم خمس فركاطات تتجوّل يومياً متفرّقة بين أسفي ومرسى العدوتين.

وقَصْدُ الإنجليز من إخراج هذه القطع من أسطولهم الحربي إلى الشواطئ المغربية، هو إرغام حكومة المغرب على الاعتراف بالمعاهدة التي عقدها معهم السفير أحمد بن حدّو العطّار.

وزاد قائلا : إن ظهر لك أيها الوزير أن تأذن في إخراج بعض القطع من أسطولنا الحربي الفرنسي إلى البحر تتجول بالسواحل المغربية، فنعم العمل، لما فيه من التشويش على السياسة الإنجليزية بالمملكة المغربية، وفق ما تقتضيه مصلحتنا الخاصّة في الوقت الحاضر.

وجاء في رسالة أخرى له أيضا بتاريخ ثاني عشر غشت (رمضان) من السنة المذكورة[163] أن القطع الإنجليزية المتحدّث عنها، أرست أمام مرسى العدوتين مهدّدة مبرقة مرعدة، مطالبة بالمصادقة على المعاهدة، وأنّ السلطان قدّم للمذاكرة مع رئيسها السفير السابق أحمد بن حدّو العطّار، وأن المخابرة جارية بينهما.

وقال كواندرو (Coindreau) في كتابه «قراصنة سلا» :

ومع هذا، فإن الحكومة الإنجليزية، من ناحية أُخْرى، كانت تغضّ الطرف عن قراصنة العدوتين في استجلابهم الأسلحة الممنوعة، من البارود وغيره، من هولاندا ترضية لِخَاطِرِهِم، واستجلاباً لهم، لعلّهم يميلون إليها.

---

162) ص 425 من نفس المصدر ونفس المجلد.

163) ص 451 من نفس المصدر ونفس المجلد.

فتح طنجة

وفي أثناء هذه الحوادث، وقع الشقاق والخلاف بإنجلترا على طنجة، وامتنع البرلمان الإنجليزي من المصادقة على النفقة عليها، واعتبرها ملجأ دينياً للكاتوليكيين أعدائهم في العقيدة.

ونتج عن هذا الخلاف صدور أمر الملك بتخريبها، وتهديم حصونها وأبراجها، وإفساد مرساها، فنفذّ ذلك كلّه، وقام به اللورد دارطموث (Dartmouth) الذي كان رئيساً وسيداً بها، وأحاطت بها جيوش المجاهدين بقيادة القائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي، وضيّقوا الخناق عليها، ففرّ الإنجليز منها، وتركوها قاعاً صفصفاً خاوية على عروشها، ففتحها المسلمون ودخلوها، واستولوا عليها من غير طعن ولا ضرب، وشرع قائد المجاهدين حيناً في تحصينها وإصلاحها، وبناء ما تهدّم من أسوارها ومساجدها، وإعادة الحياة إليها، وذلك في فاتح جمادى الأولى عام خمسة وتسعين وألف (فاتح جمادى الأولى 16/1095 أبريل 1684) [164].

الحالة السياسية والحربية بين إنجلترا والمغرب بعد فتح طنجة

لمّا تمّ فتح طنجة، واستَفْحَلَ الأمر، واتّسع نطاق الخلاف بين الدولتين، خاطب الإنجليز المولى إسماعيل في إطلاق سراح أسراهم وفدائهم، ثم عقدوا هدنة جديدة معه، مدّتها أربعة أشهر، وكتب إلى ملك إنجلترا عدة رسائل في هذا الشان.

ثم خاطب رئيس الأسطول كلودوسلي شوفيل (Cloudesly Shovel) الذي كان متجولاً بالشواطئ المغربية بكتاب مؤرخ بسادس وعشري غشت سنة أربع وثمانين وستمائة وألف (26 غشت 08/1684 رمضان 1095) جاء فيه بعد الافتتاح والخطاب ما مُلَخّصه بتصرّف[165].

... أما ما يرجع للأسرى الذين أسرتهم أثناء جولانك بالشواطئ المغربية، فإنّهم من مدن مختلفة، ومنهم من هو ليس من رعيتنا، وإذا حاولنا عتقهم، وإطلاق سراحهم، فبصفة أنّهم مسلمون، والذي حملهم على الخروج إلى البحر هو الحصول على معيشتهم.

---

164) – «تاريخ إسماعيل الكبير» لمؤلفه دوفونطان مَاكْزانْج. (Defantin Maxange)، ص 154 والتي بعدها.

– «الاستقصا»، ص 31 من ج 4، طبع القاهرة. وص 92 من ج 6، لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

165) «تاريخ إسماعيل الكبير» لمؤلفه دوفونطان ماكزانج. (Defantin Maxange)، ص 155-156.

ومن كان منهم من جيشنا البحري، فإنهم ركبوا البحر ليُقاتلوا أو يقْتلوا على أنَّ جلّهم ليس من الأعيان، ولا من ذوي الرعاية والاعتبار في الرعية.

واعلمْ أنَّني من الآن فصاعداً سأصرف همّتي لإنشاء أسطول ضخم قوي أقوى من أسطولك لأشنَّ به الغارة عليكم في شواطئكم، وعقر دياركم وبأرضكم الإنجليزية انتقاماً منكم، ورداً على فعلكم الذي فعلتم بأرضنا وبلادنا، وسوف أصطدم به مع وحداتكم الحربية، وآخذ ضبّاطكم من رجال البحرية أسرى، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

وقد وجّهت لملك إنجلتيرا عدة مكاتب، وسيكون مسروراً بها جدّا لمّا تصله ويطّلع عليها.

واعلمْ أيضاً أنكم لمّا كانت لكم السيادة، وكنتم سادة طنجة مدّة استيلائكم عليها، كُنَّا نسمح لكم تكرّماً منا بكل ما تحتاجون إليه، وحيث أنكم الآن أُجبرتم على التخلّي عنها، والانسحاب منها، فقد انقطع ذلك المدد عنكم، ولكن ملك إنجلتيرا لازال في احتياج إليه، ويُمكننا أن نسمح له به سواءٍ من البر أو البحر، لكن بشرط أن يكون بيننا صلح مستمر، وسلم حقيقي مستقر.

هذه كلمتي الصريحة أقولها لك، وعزمي الثابت الذي لا يتزعزع ولا يتغيّر بيّنتُهُ لك لتعْلَمَه.

ولازلت في انتظار أجوبة ملكك عمًّا كتبت له به في هذا الشأن وفي غيره، وأرجو أن تكون موافقة لِمَا يوافق مصلحتنا واتّفاقنا ومواقفنا.

هذا، ولتعلمْ أنك هاجمت أساطيلنا ومراكبنا، وأتلفت، وأعدمت ما قدرت على إتلافه وإعدامه منها، لمّا كنت تجول وتصول بسواحلنا، وهذا العمل ليس من الأسباب التي تدعو إلى السِّلم واتّصال صلة الوصل بيننا ولا من عمل الناس ذوي الأدب واللياقة.

ولكن، الحمد لله الذي أرغمكم على مبارحة طنجة، وهي قطعة من بلادنا، وبضاعتنا رُدّت إلينا، وسنصلحها، ونعتني بها وبناحيتها، وننشئ فيها ما لا تعلمون، لِحُسْن موقعها من مملكتنا.

أمَّا الأسرى الذين عندكم، فلتسلكوا في قضيتهم ما ظهر لكم، وفي استطاعتكم إغراقهم في البحر إن شئتم، أو تفعلوا بهم غير ذلك. ولكن، ليكن في علمكم أن جميع التجّار الإنجليزيين المستغرقي الذِّمة ببلادنا، بمجرّد ما نستخلص منهم ديونهم كلّها كاملة غير منقوصة، سينفون ويطردون من بلادنا.

ثم انصرف المولى إسماعيل بعد هذا التهديد، والوعيد الشديد، إلى ما بقي محتلاً من المراسي والثغور المغربية الإسلامية، عاملاً كل ما لديه من حول وقوة في خلاصها وإنقاذها وضمّها لحظيرة الدولة العلوية.

وبعد هذا، كانت العلاقات السياسية والاقتصادية بين المغرب وإنجلترا في حلّ وربط، والتزام عقد وشرط، حسب التجليات الوقتية، وانتشار التيارات الحربية، المبعدة والمقرّبة، بين المغرب وأوربا.

وبمقتضى ذلك تردد السفراء بين الدولتين في عدة مناسبات، وتبادل الطّرفان الأسرى طبق المقتضيات، ووجّه المولى إسماعيل رسالته المشهورة إلى الملك جاك الثاني، لمّا خُلع و طُرد من بلاده، والتجأ إلى فرنسا يدعوه إلى الإسلام، أو البقاء على العقيدة البروتيستانتية، لأنها خير من الكاتوليكية.

هذا بعض ما يتعلّق بسفارة القائد أحمد بن حدّو العطّار، من الحوادث والأخبار، سُقناه هنا بإيجاز واختصار، وسنرى، فيما سياتي، ما سيتجدّد من الحوادث في ميدان القرصنة السلاوية الرباطية مع هذه الدولة الإنجليزية، بحول الله.

المبحث الثالث

سفارة الحسن بن محمد سكيريدو إلى هولاندا لإثبات السلم وفداء الأسرى وما احتف بها ونشأ عنها

تمهيد

كان لهولاندا اتصال سياسي، ومواصلة تجارية مع المغرب، منذ عهد السعديين والدلائيين، وما كان يسمى بـ "الجمهورية السلاوية الرباطية"، بل وقبل ذلك، كما يُعلم من الوقوف على الصُكوك والوثائق التاريخية المحفوظة بسجلاَّت التاريخ بالبلاد المنخفضة.

وجل تلك العقود والعهود الرسمية، يتعلّق باستجلاب العدّة والعدد والآلات الحربية، وما تجهز به السفن القرصانية، وفداء الأسرى ومبادلتهم من الجانبين. وبسبب ذلك كان يحصل من حين لآخر فتور في المواصلة وتوتُّر في حبل السياسة بين الطرفين، وعدم اتفاق على حل المسائل والمشاكل الناتجة عن ذلك بين الدولتين، ويترتَّب عليه في الغالب مبادلات الرسائل والرّسل والسفراء، ومظاهرات حربية بحرية بالشواطئ المغربية، وخصوصاً أمام مرسى العدوتين السلاوية والرباطية، لأنهما كانتا مركز القرصنة المغربية، ودار هجرة الجالية الأندلسية، ومحطّ رحال رجال البحر القراصنة، وملجأ الأساطيل البحرية، ومتبوّأ قناصل الدول الأوربية، تزدحم في شوارعهما أسرى السفن المنكوبة، وتُباع في أسواقهما السِّلع المجلوبة والمنهوبة.

وفي العهد الإسماعيلي، كانت السياسة الهولاندية بالمغرب متأثرة بما يتجدّد في جوّه وجوّ أوربّا من الحوادث والحروب، فيرتفع ميزان ضغطها وحرارتها بارتفاعها، وينخفض بانخفاضها، وكثيراً ما تولّى القناصل والرسل معالجة ما يتجلّى في الجو من خلاف، فترجع المياه إلى مجاريها في آجالٍ محدودة، وهُدَنٍ آمادها مقدّرة معدودة.

ومن ذلك أنه في حدود ست وثمانين وستمائة وألف (1097/1686)، أَسَرَ أحد رؤساء البحر من قراصنة الجزائر، محمد البُوسطانجي، - قالوا : وأصله مسيحي إيطالي، أسلم، وتعاطى حرفة القرصنة تحت إمرة وراية داي الجزائر، - سفينة هولاندية، فيها ثمانية وأربعون هولانديا، وساقها إلى مرسى العدوتين بالمغرب، فاشترى منه المولى إسماعيل أولائك الأسرى، وأضافهم إلى الأسرى الذين عنده.

فقامت قيامة هولاندا من أجل ذلك، وألحّت في ردّ السفينة المذكورة وفداء الأسرى، فلم تُحصل على طائل، واستحالت الحالة إلى توتُّر، وانتشرت القرصنة الهولاندية بالسواحل المغربية، قائمة بمظاهرات حربية، أمام مراسيها.

وقد أخبر القنصل الفرنسي بيريليي (Périllié) في كتابه الذي كتب به لوزيره سينيولي من سلا (الرباط) بتاريخ خامس عشر غشت سنة ست وثمانين وستمائة وألف (15 غشت 25/1686 رمضان 1097)[166] بأنَّ هولاندا وجّهت إثر هذه الحادثة ست قطع من أسطولها الحربي تتجوّل بالشواطئ المغربية، وأنَّها وقفت أمام مرسى العدوتين، ونزل منها ضابطان بحريان إلى البر، وتجولاً بالرباط وطالبا التزوّد ببعض المؤن المعتادة، وأخبرا بأنَّ عشرين قطعة أخرى من أسطولهما توجّهت إلى الجزائر.

وبناءً على هذه المظاهرات، اقتضى نظر السلطان المولى إسماعيل توجيه سفير من قبَله إلى هولاندا لحلٍّ ما استحكم من عُقد الأزمة، وإعادة ربط العلائق السياسية، كما كانت قبل ذلك، بعد تصفية مسألة الأسرى بين الدولتين، ووقع اختياره على أبي علي الحسن بن محمد سكيريدو الرباطي.

السفير الحسن بن مُحمَّد سكِيرِيدُو الرباطي

أصل هذا السفير من أسرة أندلسية، وكان معدوداً من أعيان الحضرة الرباطية، مقرباً من الجلالة الإسماعيلية، ملحوظاً بعين الاعتبار والإقبال، بين رجال الأعمال في الدولة، ولذلك أسند له ولاية المرسى لأهميتها عنده، وما كان يراه من صدقه وأمانته.

166) ص 644 من المجلد الثاني من «ينابيع تاريخ مغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وأخبر مويط (Mouëtte) في تاريخه لدولتي السلطانين المولى الرشيد والمولى إسماعيل[167] بأنَّ هذا السفير كان معدوداً من أعيان الرباط، ومتولياً شؤون المرسى.

وذكر السفير الفرنسي سانت آمان (Saint-Amans) في وصف طريق رحلته إلى المحلة السلطانية الإسماعيلة بالسوس، المؤرخة في ثاني أكتوبر سنة اثنتين وثمانين وستمائة وألف (02 أكتوبر 1682/ متم رمضان 1093)، أنَّه لمّا وصل إلى رباط الفتح، تلقّاه في جملة الموظفين قائد المرسى، الحسن سْكيريدو هذا، ورافقه إلى المحل المعدّ لنزوله، وبمجرّد استقراره فيه، وجّه له عدّة موائد من الطعام المعدّ لغذائه هو ومن معه، وفيها الكباش المشوية، والدجاج المُحمَّر، واللحوم المطبوخة أحسن طبخ مغربي، والكُسْكُسُو، والحلاوي المتنوعة، وغير ذلك من الفواكه الوقتية، وعجب هذا السفير من كرمه.

وبعد الغذاء، زاره في منزله، وقال إنَّه قابله بإحسان وبشاشة[168]

سفارته

كان من جملة ما كُلّف به زيادة على حلّ المسائل المعقدة المتعلّقة بالأسرى أن يطلب من هولاندا دفع عدد كبير من العدَّة الحربية والبنادق، وإنْ لم تفعل فلا صلح بينها وبين المغرب[169].

ولمّا تمّ تجهيزه، وما يتوقّف عليه في سفره، توجّه إلى طنجة، ومنها ركب البحر في سفينة من السفن الحربية الهولاندية، المتكونة منها قافلة الشرق البحرية، جاءت خصّيصاً لأجله من قادس، وذلك أواخر شهر يوليوز سنة ست وثمانين وستمائة وألف (أواخر يوليوز 1686/ أواسط رمضان 1097).

وبعد وصوله إلى هولاندا، طال مكثه فيها ما يزيد على سنة ونصف، ولعلّ مخابرته مع أولي الأمر كانت صعبة جدّاً، ولذلك طال مقامه.

---

167) ص 71.

168) ص 323 من المجلد الثاني من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

169) ص 652، من نفس المصدر ونفس المجلَّد

وقد أنتجت هذه المخابرة ما أخبر به القنصل الفرنسي بيريلي (Périllié) في كتابه الذي رفعه لوزيره سينيولي (Seignelay) من الرباط بتاريخ ثامن وعشري يوليوز سنة سبع وثمانين وستمائة وألف (18 يوليوز 1687/08 رمضان 1098)[170] قال :

إن سفينة حربية هولاندية، بناءً على ما أسفرت عنه سفارة السفير الحسن سْكيريدو ألقت مرساتها بمرسى العدوتين، ومعها مائة مكحلة فقط، وكان الشائع أكثر من ذلك، في مقابلة الأسرى الهولانديين الذين اشتراهم السلطان من الرئيس القرصاني بوسطانجي الجزائري.

ولمّا علم المولى إسماعيل بذلك، استقلّه، ولم يرتضه، وأمر بردّ تلك المكاحل وعدم قبولها. فتوجّه قنصل هولاندا بالرباط، مصحوباً بأخ السفير سْكيريدو المذكور، إلى السفينة التي كانت راسية بالمرسى، وردّا تلك المكاحل إلى رئيسها. وكذلك الكتاب الذي وجّهته الحكومة الهولاندية إلى السلطان، مصحوباً بالتهديد بقطع المعاملة والمواصلة مع حكومته وبلاده، واستئناف القرصنة السلاوية الرباطية أعمالها في الحين.

وأصدر المولى إسماعيل أوامره إلى سفيره بالانسحاب حالا، ورجوعه إلى بلاده، إذا لم ترضه الحكومة الهولاندية في الحين، وتدفع له أربعين ألف خرطوشة مكحلية، وعدداً كبيراً من المكاحل يرضاه في مقابلة أولائك الأسرى المطلوب فِداؤُهُمْ.

وجاء في صكّ الأوامر الصادرة من فيرساي (Versailles) إلى أميرال الأسطول الفرنسي المتجوّل بالسواحل المغربية مورتومار (Mortemart) بتاريخ تاسع ماي سنة سبع وثمانين وستمائة وألف (09 ماي 1687/26 جمادى الآخرة 1098)[171] أن العدّة الحربية المطلوبة من هولاندا في فداء الأسرى، وُجّهت في سفينة خاصّة إلى مرسى العدوتين، وتحتوي على قناطير من البارود، وعدد كبير من البنادق، وغير ذلك من أنواع السلاح.

رجوع السفير سْكيريدو إلى بلاده وما نتج عن ذلك

لمّا وصلت الأوامر السلطانية إلى السفير بالانسحاب من هولاندا، إذا لم ترضه في مطالبه كما تقدّم، رجع في سفينة حربية هولاندية، كما أخبر به القنصل الفرنسي بيريلي

170) ص 134، من نفس المصدر، المجلد الثالث

171) ص 183 من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

(Périllié) في عرضه الذي رفعه من الرباط إلى وزيره سينيولي (Seignelay) بتاريخ عاشر فبراير سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف (10 فبراير 06/1688 ربيع الثاني 1099)[172] قال :

ونزل بمرسى المعمورة؛ وفي الغد من يوم وصوله، توجّه إلى مكناس ليُنهي لعلم السلطان نتيجة ماموريته ومهمته، وجاء معه بستمائة مكحلة وأربعمائة سيف، وأشياء أخرى لا أهمية لها.

ومعلوم كما صرّح به هذا السفير أن ذلك لا يُقنع المولى إسماعيل، وسيستأنف قراصنة سلا ورباط الفتح أعمالهم القرصانية، ويقتنصون كل سفينة هولاندية يصادفونها سابحة في البحر جارية...

ثم أخبر بيريليي (Périllié) المذكور في رسالة أخرى رفعها لوزيره المذكور بتاريخ خامس يوليوز سنة ثمان وثمانين وستمائة وألف (05 يوليوز 25/1688 شوال 1099) بأنّ السفير المذكور، لمّا توجّه إلى مكناس، واستقبله المولى إسماعيل، استقلّ النتيجة واحتقرها، فتطوّع القنصل بأن يُقدّم له، إرضاء لخاطره، خمسة وعشرين ألف قنبلة مدفعية مختلفة الوزن والعيار، ومهراسين كبيرين لقذف القنابل، وأربعة وعشرين أسيراً مغربياً كانوا ببلاده، فداء للخمسة والأربعين أسيراً هولاندياً الذين كان اشتراهم من الرئيس القرصاني محمد بوسطانجي الجزائري، كما تقدّم، فلم يتم ذلك.

ولمّا تأزّمت الحالة، ولم يقبل المولى إسماعيل ما أسفرت عنه سفارة سفيره، تولّى هذا القنصل إصلاحها بواسطة القائد أحمد بن حدو العطّار، على أن يكون الفداء في الثمانية وثلاثين أسيراً الباقين أحياءً من الخمسة والأربعين أسيراً هولاندياً على الكيفية الآتية، وهي :

أن تُسلِّم له هولاندا عِوَضاً عنهم أربعة وعشرين أسيراً مغربياً كانوا أسرى عندها، وخمسة وعشرين ألف قنبلة من وزن ثلاث ليبرات إلى ست وثلاثين من هذا العيار[173].

ثم جاءت سفينتان هولانديتان إلى مرسى العدوتين، ومعهما العدد المذكور من القنابل المشترطة، وطلب القائد من القنصل إنزالها من البرّ لتُختبر في وزنها وعيارها، وفي أثناء إنزالها، وقع خلاف في كيفية التنفيذ، ولم يُسلّم القائد للقنصل إلاّ ثمانية عشر أسيراً فقط،

172) نفس المصدر السابق في الصفحة قبله.

173) الليبرة (La Livre) توازي خمسمائة غرام.

ثمّ طلب منه زيادة على ذلك مائة قنطار من البارود، كان السلطان محتاجاً إليها في حصار البرتقال بمرسى مازكان (الجديدة)، وأخّر إطلاق سراح باقي الأسرى في مقابلة ذلك.

وبعد محاورة ومخابرة في هذا الموضوع، امتنع رئيسا السفينتين من إعطاء البارود المطلوب، وتوقّف العمل. وفي الغد أقلعت السفينتان المذكورتان من المرسى، وتوجّهتا إلى قادس، ومعهما القنصل، وبقيت المسألة معلّقة، وأحدثت دوياً كبيراً في العدوتين السلاوية والرباطية، وبقي عشرون من الأسرى الهولانديين تحت الأسر عند القائد أحمد بن حدّو العطّار، وقامت قيامة التجّار الهولانديين بالرباط، وقالوا : إنهم أصبحوا مهدّدين في أنفسهم وحريّتهم وأموالهم، لاسيما وقد كانت لهم ديون عند القائد المذكور، تقدّر بعشرة آلاف بياسطر.

واغتاظ القائد غيظاً شديدا، وحَمِيَ أنفه ، وتفجّر بركان سخطه على الهولانديين، واستغلّ القنصل الفرنسي بالرباط هذه القضية، فاتّخذها سبباً للدّس والمكر بهولاندا، وإغراء الحكومة المغربية بقطع المواصلة والمعاملة معها، ويرجع ذلك للحالة العدائية التي كانت متجلّية بينها وبين فرنسا في ذلك العهد، وبقيت مسألة الأسرى معلقة لم يتم فيها شيء، ولم تنحسم مادّتها.[174]

ولمّا وصل القنصل الفارُّ إلى قادس في السفينتين اللتين توجّهتا إليها، استأنف سفره منها إلى بلاده، وأقام بها مدّة، ثم رجع إلى محل ماموريته بالرباط، وشدّ الرحلة إلى العاصمة المكناسية، وجدّد المذاكرة مع السلطان في حلّ عقد ما بقي مُعقداً من مسائل الأسرى وغيرهم من أمور أخرى. وكأنه كان مبعوثاً من حكومته أو موعزاً إليه منها بمباشرة ذلك، فغضّ الطرف عنه المولى إسماعيل، وواعده بأنه سيُطلق سراحهم في مقابلة لوازم وعُدد حربية ياتي بها من هولاندا، تتعلّق بتجهيز السفن بالصواري والقلوع، والبارود، والقنابل المدفعية وغيرها.

وفي الحين ذكر له أنَّه سيرجع إلى بلاده، وطلب منه أن يتوجَّه معه أحد خدمته من اليهود المسمى حايم طوليدانو ليتسلم منه ذلك[175].

---

174) ملخص من مذكرات جان بابتيسط إسطيل المحررة بمرسيليا في 06 يوليوز 29/1690 رمضان 1101، ص 306 من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

175) ملخص من مذكرات جان بابتيسط إسطيل المحررة بالرباط في 28 فبراير 05/1691 جمادى الآخرة 1102، ص 350 من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

كتاب إسماعيلي إلى الحكومة الهولاندية في شأن هذا القنصل

بعدما تمّ الاتفاق بين السلطان المولى إسماعيل والقنصل الهولاندي على ما سيدفعه من العدّة ولوازم تجهيز السفن القرصانية في مقابلة إطلاق سراح ما بقي من الأسرى، كما تقدّم، حصل منه تباطؤ وتماطل في السفر لتنفيذ الأوامر التي تحملّها، ممّا دلّ على تلاعبه، وأنه لا عهد له ولا ميثاق يعتمد عليه، فاستنكف المولى إسماعيل من هذه المعاملة، الخالية من كلّ اعتبار ومجاملة، وكتب إلى حكومته الهولاندية كتاباً شرح لها فيه أمره، وأشعرها بأن الحالة الحربية لازالت مستمرة ما داموا لم ينفّذوا ما التزم به قنصلهم بحضرته.

وملخصها من الفرنسية، لأن الأصل العربي لم يُعثر عليه، وزعم إسطيل (Estelle) أنه وقف عليه وترجمه للغته.

إلى السادة جماعة نواب المملكة.

أنهينا إليكم بواسطة أميرال بحريتنا، القبطان عبد الله ابن عائشة، أوامرنا الصادرة إليه بأخذ وأسر سائر سفنكم التي يُصادفها في البحر، طبق ما تقتضيه العدالة وصيانة الحقوق، وما أقدمنا على هذا الأمر حتى استفتينا فيه علماء شريعتنا، فأفتونا فيه.

وإليكم موجبات ذلك باختصار.

إنّ قنصلكم الصعلوك بكل معنى الكلمة، الذي عاش بأرضنا مدة أربع وعشرين سنة، يعرف ما خلّفه من الذكريات والآثار عند المسلمين واليهود من رعيتنا، لمّا كان أسيراً بينهم عدة سنين، كان شدّ الرحلة إلينا بعاصمتنا المكناسية منذ ثلاثة أعوام خلت، وطلب منا استرجاع سفينة مِنْ سفنكم القرصانية كان أسرها أحد قراصنتنا[176]، ومع أن جوازه الرسمي لم يكن مستوفياً للشروط الواجبة، فقد تساهلنا معه لأجل وساطة أحد خدمتنا اليهودي ميمْران، وواعدناه بردّ بحرية السفينة المذكورة.

وفي علمكم أن جميع الأسارى الذين يدخلون إلى مملكتنا بأي وجه من الوجوه، لا يُوذن لهم في الخروج منها، إلاّ بمنّ أو فداء، ولذلك فإنّ قنصلكم هذا واعدنا بأن يُسلّم لنا خمساً وعشرين ألف قنبلة مدفعية من وزن 36 إلى 6 ليڤرات.

176) المقصود به البوسطانجي، وهو وإن كان جزائرياً، فإن المولى إسماعيل كان يعتبره بمنزلة قراصينه، لتردده على مراسيه.

ولمّا وصلت هذه القنابل لمرسى العدوتين، وجدها القائد أحمد بن حدّو مخالفة تمام المخالفة لما تمّ الاتفاق عليه في شأنها، ولذلك لم يأذن في ركوب السفينة إلاّ لنصف الأسرى المتّفق على فدائهم وإطلاق سراحهم.

وبعد ذلك بمدّة رجع هذا القنصل إلى مكناس مشتكياً متظلماً من القائد المذكور، ومتوسطاً باليهودي المذكور، فساعدناه مرّة أخرى، وأصدرنا أوامرنا لقائدنا بالإذن لبقية الأسرى في ركوب البحر، واتّفق معه في مقابلة ذلك على تسليم ما تُجهّز به ستاً من السفن القرصانية، لتخرج إلى البحر محاربة أعداءنا وأعداءكم.

ثم طلب منا إذناً آخر يتوجّه بمقتضاه إلى بلادكم ليُشعركم بهذا الطلب، ويبيّن لكم مصلحته ووجوب تنفيذه، فساعدناه على ما طلبه، وكتبنا له كتاباً خاصّاً إليكم، بتاريخ خامس عشر قعدة عام واحد ومائة وألف (15 قعدة 10/1101 غشت 1690).

وفارق حضرتنا الشريفة، على أنه سيسافر من يومه أو غده، ومرّت ستة أشهر، ولم نسمع عنه خَبَراً، ولا وجدنا له أثرا، فاستبطأناه، وسألنا عنه وعن أخباره، وهل رجع من وجهته، فبلغنا عنه أنّه لازال يماطل ويطاول، ولم يسافر حتى الآن، وكنّا عازمين على معاملته بما يستحقّ لكذبه وتماطله ومراوغته، لولا الواسطة التي توسّط بها.

وعليه، فإني لا أُحِبُّ بعد اليوم أن يكون رسولنا، ولا يحمل إليكم رسائلنا، لأنه لا يستحقّ ذلك.

وها نحن عيّنا لقضاء هذه المهمة مكانه، اليهودي حايم طوليدانو. وقد مرّت ستة أشهر على سفره، ولم نعلم عنه خبرا، وظننّا أن سبب هذا التأخير هو الاهتمام بتنجيز ما طلبناه منكم، وتمّ الاتفاق عليه معكم، وحيث أنّنا لم نر أثراً لذلك، فقد أصدرنا أوامرنا الشريفة لأساطيلنا القرصانية بالخروج إلى البحر، والتقاط سفنكم وأسرها وسوقها إلى مرسى سلا، وبقائها محجوزة بها، لا تُمسّ، حتى نتحقّق بنتيجة ما ذهب لأجله رسولنا إلى بلادكم، وهل ستنفّذون أم لا، ما التزم به قنصلكم ؟ ...

وبعد هذا، جُمَلٌ تتعلّق بسنّة الهدايا التي كانت تقدّمها الدول الأجنبية لملوك الدولة العلوية، وأن إصبانيا فدت أسراها بالعرائش بعشرة من المسلمين في مقابلة أسير واحد إصباني كما تقدّم، وغير ذلك مما لا علاقة له بموضوعنا.

وقد حُرر هذا الكتاب بمكناس في فاتح محرم عام ثلاثة ومائة وألف (01 محرم 1103/ 24 شتنبر 1691)[177].

ولا ندري هل وصل هذا الكتاب إلى الحكومة الهولاندية أم لا. لأنه لم يوجد في مجاميع الوثائق والأوراق والمكاتب الرسمية المتعلقة بالمراسلات والمواصلات المغربية الهولاندية، كغيره من الوثائق الأخرى.

رسالة اليهودي حايم طوليدانو إلى هولاندا وما تطورت فيه من الأطوار

لمّا رجع السفير أبو علي الحسن بن محمد سْكيريدو الرباطي من سفارته بهولاندا، ولم يحصل على نتيجة مرضية، وازدادت الحالة توتُّرا، وخاطب المولى إسماعيل الحكومة الهولاندية بالكتاب السابق، ورفض المخابرة معها بواسطة قنصلها كما تقدّم، عيّن رسولاً من قبله إليها أحد خدمته حايم طوليدانو من يهود الرباط.

فتوجّه إلى هولاندا، وكان وصوله إلى أمستردام (Amsterdam) أوائل شهر يونيو سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف (أوائل يونيو 1691/أواسط رمضان 1103)، وأقام بها نحو ثلاثين شهراً بلا فائدة محسوسة، أو نتيجة معتبرة ملموسة، وإنّما اغتنم فرصة إقامته بها لترويج تجارته الخاصّة به، واشترى سلعاً كثيرة رجاء بيعها بالمغرب لعلّه يربح فيها أرباحاً طائلة.

وسنبسط فيما يلي مآل هذه الرسالة، وما نتج عنها، وتطوّرت فيه من الأطوار، تتميماً للموضوع، وإلحاقاً للتابع بالمتبوع، فنقول :

أخبر القنصل الفرنسي بالرباط ج. ب. إسطيل (J. B. Estelle) في كتابه المحرر بسلا (الرباط) المرفوع لوزيره بونشرطران (Pontchartrain) بتاريخ ثامن وعشري فبراير سنة أربع وتسعين وستمائة وألف (28 فبراير 1694/03 رجب 1105)[178] بأن أفواجا من قوافل المراكب

177) ص 441 من المجلد الثالث من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

178) ص 243-244 من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

الإنجليزية الهولاندية، وصلت يوم سادس فبراير سنة أربع وتسعين وستمائة وألف (06 فبراير 10/1694 جمادى الآخرة 1105) إلى مرسى قادس، وفي سفينة منها كان يوجد اليهودي حايم طوليدانو - رسول ملك المغرب إلى هولاندا - مع قنصلها بالرباط.

وقد كتب هذا اليهودي إلى ولده بالرباط يخبره بما كان من أمره أثناء رجوعه بعدما أقام ما يقرب من ثلاثة أعوام بهولاندا، حسبما أخبره به أحد أصدقائه الذي اطّلع على هذا الكتاب، وعلم ما فيه، ومضمّنه أنه جاء معه بستمائة قنطار من البارود، وألفي جعبة مكحلة، وألفي زناد مكحلة، وعدد من قلوع السفن القرصانية، وغير ذلك من أجهزة مراكب القراصنة السلاويين الرباطيين، وهدايا أخرى شخصية لجلالة الملك والقصر الملكي.

وقرّر هذا الرسول اليهودي، والقنصل الذي معه النزول بمرسى طنجة ظنّاً منهما أنّ مصب وادي أبي رقراق في حالة اضطراب لا يُساعدهما على مجاوزته وإنزال ما معهما من العدّة والسلاح الثقيل إلى البر.

كما قرّر القنصل وربّان المركب الذي توجّها فيه إلى طنجة أن لا يأذنا في إنزال شيء ممّا معهما من السلاح والبارود والهدايا إلى البر إلاّ بعد حيازتهما وتمكّنهما من جميع الأسرى الهولانديين الذين بالمغرب، لأنّ ذلك السلاح، وتلك الهدايا، في مقابلة فدائهم، خشية أن يحصل مانع يمنعه منهم كما وقع سنة تسعين وستمائة وألف (1102/1690) في قضية الخمس والعشرين ألف قنبلة مدفعية التي زعم أحمد بن حدُّو أنّها مخالفة لما تمّ الاتفاق عليه.

ولمّا وصلت قطع الأسطول إلى طنجة، أنذر ربّانها القائد علي بن عبد الله بما استقرّ عليه عزمه ورأيه، وطالبه بتسليم الأسرى حالاً في مقابلة ما أتى به من السلاح والهدايا، وأعطاه أجلاً لذلك عشرة أيام، ليعلم السلطان بمكناس ويأخذ إذنه فيه، وإلاّ فإنه سيرجع بعد انصرام هذا الأجل إلى بلده.

وحاول القائد علي بن عبد الله إقناعه بإنزال ما أتى به إلى البر، ريثما يتمُّ أمر إحضار جميع الأسرى، ويتسلّمهم حينئذ، فلم يقتنع.

وبمجرد ما بلغ خبر ما وقع وراج في هذه القضية لعلم السلطان غضب غضباً شديداً، وقال : إن هؤلاء الهولانديين ليست لهم عندنا ولا بنا ثقة، وأمر بجمع جميع أسراهم وتصفيدهم في السلاسل والأغلال والتضييق عليهم، حتى يتبيّن ما سيؤول إليه أمرهم.

ثم استأنف القائد علي بن عبد الله مذاكرته مع ربّان الأسطول مرة أخرى، وطالبه بإنزال الهدايا السلطانية إلى البر أدباً معه، ويعطيه عوَضاً عنها كتاباً يتضمن حوالة مالية قدرها ألفا بياسطر في مقابلة ثمنها إذا لم تنجح وساطته.

وتشتمل هذه الهدية على ستمائة قنطار من البارود، وستمائة مكحلة، وأشياء أخرى من نوع الظرائف واللطائف للقصر السلطاني. فطاع الرئيس حينئذ لإنزال هذه الهدية إلى البر، وتمّ ذلك في السابع والثامن والعشرين من مارس سنة أربع وتسعين وستمائة وألف (27-28 مارس 1694/ متم رجب و01 شعبان 1105)، واحتفظ بالعدّة الحربية التي ستقدّم فداء للأسرى، وهي :

- أربعمائة قنطار من البارود،
- وأربعمائة وألف مكحلة،
- وأربعمائة وألف زناد،
- وأربعمائة وألف سيف.

ورجعت قطع الأسطول إلى قادس على أنّها ستعود إلى طنجة بعد مضي شهر كامل، ريثما يأتي الجواب السلطاني للقائد بالمساعدة والموافقة على ما تمّ الاتفاق عليه، وتوسّط فيه.

ولكن المولى إسماعيل[179] صمّمَ العزم على عدم قبول كُلِّ مَا يتدخل فيه ذلك القنصل الهولاندي، وتوقّفت القضية مدّة تزيد على الشهر، إلى أن ورد على مكناس في شهر مايه سنة أربع وتسعين وستمائة وألف (مايه 1694/ رمضان 1105) الرئيس الأميرال عبد الله ابن عائشة، ومعه جماعة من رؤساء البحر بسلا ورباط الفتح بقصد تلقي الأوامر السلطانية المتعلقة بخروجهم في سُفُنِهم القرصانية إلى البحر، فأمره السلطان ومن معه بأنهم إذا خرجوا إلى البحر، فليأخذوا كلّ سفينة هولاندية يصادفونها ويسوقونها إلى مرسى العدوتين، وتبقى محجوزة بها لا تُمَسُّ، ومن كان فيها من البحارة فليعاملوهم معاملة حسنة، حتى توجه لهم حكومتهم سفيراً من قبلها، يتّفق معه على ما يؤل إليه أمرهم.

---

179) مذكرات ج. ب إسطيل المحررة بالرباط في 09 مايه 14/1694 رمضان 1105، ص 267 من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وأما ذلك القنصل، فإنَّه لا يقبل منه قولاً ولا عملا، ومن الآن فإنَّه لا يحب أن يضع قدمه في أرضه وبلاده، وإنْ عاد إلى طنجة فإنَّه سيأمر القائد علي بن عبد الله بأن يفعل به كذا وكذا، لأنه امتنع من إنزال ما أتى به من السلاح والعدة إلى البر، وفي ذلك دليل على عدم ثقته بالمغرب وحكومته.

وبعد هذا[180] وجّه القائد علي بن عبد الله أخ اليهودي طوليدانو إلى قادس ليُفهم القنصل بأنَّ قضية الأسرى في طور المباشرة والنجاح وأن جلّهم بطنجة، وما عليه إلاّ أن يرجع إلى طنجة ليتم المذاكرة معه في شأنهم ويتسلّمهم.

ولمّا وصل إلى قادس، وأخبر أخاه والقنصل برسالته، رجعت السفن الهولاندية إلى طنجة.

وبمجرّد وصولها، نزل طوليدانو منها إلى البر، واجتمع بالقائد علي بن عبد الله، وتذاكر معه، فأمره بأن يطلب من القنصل أن ينزل أولاً ما معه من العدّة والسلاح، وحينئذ يتسلّم الأسرى، فامتنع من ذلك، وطالب بتسليمهم في الحين، وطالت المراجعة بينه وبين القائد في ذلك.

وأخيراً انقطعت المخابرة، وأقلعت السفن راجعة إلى قادس بما فيها من السلاح والسلع التي جلبها اليهودي لنفسه من هولاندا، وتُقدّر قيمتها بأربعين ألف إيكوس، وصرّح القنصل بأن حكومته ستأخذها في مقابلة ما أنفقته عليه مدّة إقامته ببلادها منذ نحو ثلاث سنوات، وتوجّه طوليدانو إلى مكناس ليخبر السلطان بمآل مهمته[181].

ونتج عن وصول هذا الرسول اليهودي إلى مكناس، وإخباره السلطان بمنتهى أمره في رسالته أنْ أمر القائد علي بن عبد الله باستئناف المذاكرة مرة أخرى مع القنصل بقادس، ولكن هذا القنصل رفض الرجوع إلى طنجة، وإنْ رجع فإنه لا يُسلّم ما معه من العدة والسلاح والسلع، إلاّ إذا استلم الأسرى يداً بيد.

---

180) رسالة ج. ب إسطيل إلى بونشرطران المحررة بالرباط في 16 مايه 21/1694 رمضان 1105، ص 267 من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

181) رسالة ج. ب إسطيل إلى وزيره بونشرطران المحررة بتطوان بتاريخ 10 مايه 16/1694 شوال 1105، ص 279 من نفس المصدر والمجلد.

ثم صدرت له الأوامر من حكومته بأمستردام بأن لا يُبارح قادس، ولا يرجع لبلاده حتى تتم هذه القضية التي طالت، وطلبت هذه الحكومة من ملك إصبانيا أن يبيع لها أربعين أسيراً من الأسرى المغاربة الذين ببلاده، ويسلمهم لهذا القنصل ليقدم بهم لطنجة، ويضيفهم لِمَا تحت يده من العدّة والسلاح والسلع، ويُقدّم الجميع لملك المغرب، فداءً للأسرى الهولانديين الذين عنده(182).

وبعد صدور هذه الأوامر أخبر ج. ب إسطيل (J. B. Estelle) أيضاً في مذكراته المحررة بالرباط في السادس والعشرين من فبراير سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (26 فبراير 12/1695 رجب 1106)(183)، بأن القنصل الهولاندي بقادس، كتب لنائبه بالرباط كتاباً بتاريخ ثالث عشر دجنبر من السنة الفارطة (13 دجنبر 06/1695 جمادى الأولى 1107)، أخبره فيه بأنَّ تحت يده خمسة عشر أسيراً مغربياً من العدد الأربعين الذي طلبه السلطان. وبمجرد ما يتمُّ هذا العدد، يقدم بهم إلى طنجة، وتقع المبادلة بينه وبين طوليدانو في الأسرى الهولانديين، ويُسلّم له حينئذ العدّة والسلاح والسلع المحجوزة عنده.

ولكن حدث بعد هذا الأمر أمر آخر، وهو أنَّ ملك إصبانيا حذّر القنصل ورئيس الأسطول، بواسطة حاكم قادس، من التوجُّه إلى طنجة وتمكين الحكومة المغربية من السلاح والبارود الذي تحت يده، لأنَّها في حالة حرب مع إصبانيا بسبتة، فتعذّر مجيئه إلى طنجة بسبب هذه الحالة وهذه الظروف الحرجة.

ثم أخبر إسطيل (Estelle) هذا في مذكراته أيضاً المحررة بالرباط في التاسع والعشرين من شتنبر سنة خمس وتسعين وستمائة وألف (29 شتنبر 19/1695 صفر 1107)، بأنَّ ما أخبر به في مذكراته السابقة لم يحصل عليه اتفاق، ولم يتم، ونتج عنه أن الحكومة الهولاندية، أصدرت أوامرها لقنصلها بقادس بأن يوزع ما معه من العدة والسلاح المعد لفداء الأسرى، وسلع اليهودي طوليدانو التي جلبها من هولاندا على السفن الحربية الهولاندية، وتقدّر قيمتها بعشرين ألف بياسطر، الموجودة إذ ذاك هناك، وتبقى كأنها مرهونة بها، وأن يقدم هو حالاً إلى أمستردام لتقع المفاهمة معه، فنفذ ذلك ورجع إلى بلاده.

---

182) مذكرات ج. ب إسطيل المحررة بالرباط في 22 دجنبر 07/1694 جمادى الأولى 1105، ص 312 من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

183) ص 326 من نفس المصدر ونفس المجلد.

وتقدّم أن الحكومة الهولاندية صرّحت بأنها ستستولي على سلع اليهودي في مقابلة ما أنفقته عليه مدّة إقامته ببلادها بدون فائدة تُذكر.

ويقال إن السلطان بعدما تطورت هذه القضية في هذه الأطوار، كان عازماً على تجديد سفارة سْكيريدو ليتمم ما بدأه، ويُحكم ما عقده، ولكن ذلك لم يتم، ولم ينفذ.

وبعد تدخُّل الوسائط من اليهود (لمصلحتهم) لدى السلطان، كتب كتاباً جديداً للحكومة الهولاندية بتاريخ حادي عشر حجة متم عام ستة ومائة وألف (11 حجة 23/1106 يوليوز 1695) يعلمها فيه بأنَّه وجّه الأسرى الهولانديين إلى القائد علي بن عبد الله بطنجة وأنه إذا رجع القنصل ومعه ما يجب في الفداء، فإن القائد المذكور سيسلّمهم له[184].

ثم أخبر إسطيل (Estelle) أيضاً في مذكراته المحررة بالرباط في ثاني أبريل سنة ست وتسعين وستمائة وألف (02 أبريل 28/1696 شعبان 1107)[185] بأنه بناءً على هذا الكتاب، وصلت سفينة هولاندية إلى مرسى العدوتين ومعها العدة والسلاح المطلوب في فداء الأسرى، وسلع اليهودي المحجوزة. ولكن حدث حادث جديد عرقل تنفيذ هذا الفداء، وهو أخذ الرئيس عبد الله ابن عائشة سفينة هولاندية في البحر، واستيلاؤه على ما كان فيها من البحّارة، وعددهم سبعة عشر، وسبعة من المسافرين، وما كان بها من السلع المجلوبة من جزر كناريا، وواعد السلطان بإطلاق سراحهم إذا تمّ الفداء وفق إرادته، وما كان قرّره في شأنه.

ثم ورد أمره على والي الرباط بإشخاصهم لمكناس، وإضافتهم لباقي الأسرى الهولانديين الذين بها، المستعملين بها في البناء والخدمة المخزنية، حتى يظهر ما يكون في شأنهم.

وبعد ذلك وجّههم إلى تطوان، ليكونوا تحت نظر القائد علي بن عبد الله حتى يتم فداؤهم.

ثم وجّه الأميرال عبد الله ابن عائشة و الرئيس علي حكم إلى طنجة، وكلّفهما بمعاينة السلاح والعدّة المعدّة للفداء، إذا وردت، ومُراقَبَتِهَا هل هي جيدة أم لا ؟

وفي أوائل شهر يناير سنة سبع وتسعين وستمائة وألف (أوائل يناير 1697/ أواسط جمادى الآخرة 1108)، ورد على طنجة، صحبة أسطول حربي، قنصل هولاندي جديد، غير القنصل

---

184) مذكرات ج ب إسطيل المحررة بالرباط في 29 شتنبر 09/1695 صفر 1106، ص 352 من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

185) وص 389 من نفس المصدر والمجلد.

الأول لإتمام عقد الصلح وفداء الأسرى البالغ عددهم إذ ذاك نحو الثمانين أسيرا، وأعلم القائد المذكور بوروده، وأنَّه صحب معه، للفداء، خمسمائة وألف قنطار من البارود، وخمسمائة وألف جعبة مكحلة، وعدداً كبيراً من الزناد الذي تقدح به النار، وخمسمائة وألف سيف، وأشياء أخرى من الطُّرف والنفائس، فسُرّ بذلك، ووجّه إكراماً ومؤونة له ولمن معه : أربعة من الثيران، وعشرة كباش، وأربعمائة دجاجة، ووعده خيرا(186).

ثم أخبر إسطيل بعد هذا في مُذَكِّرَاتِه المحررة بالرباط المتضمنة للحوادث التي وقعت من فاتح فبراير إلى فاتح مايه سنة سبع وتسعين وستمائة وألف (1 فبراير–1 ماي 09/1697 رجب – 09 شوال 1108) بأنه في فاتح فبراير وصلت إلى مرسى طنجة سفينتان حربيتان هولانديتان ومعهما مركب مشحون بالسِّلَع والسِّلاح المعدّ لفداء الأسرى، والهدايا السلطانية.

وبمجرّد الوصول، أعلم رئيس هذه القطع القائد علي بن عبد الله بوصوله، فوجّه له الحاج الوقّاش التطواني، واليهودي طوليدانو، الذي كان رسولاً بهولاندا، ونائب القنصل الهولاندي بالرباط، ليقنعوه بأن تسليم الأسرى يكون بعد إنزاله ما معه من السلع والسلاح المعدّ للفداء، والهدايا السلطانية إلى البر، فامتنع هذا الرئيس امتناعاً كلياً من ذلك حتى يتسلم الأسرى ويكونوا تحت يده في سفنه، أو يدفع القائد له ضمانة قيمة تلك السلع إلى أن يتم الفداء بشروطه.

وأما الهدايا السلطانية، فإنه لا يُسلمها ولا يُنزلها إلى البرّ حتى يصادق السلطان على معاهدة الصلح.

وفي ثامن من فبراير (08 فبراير /16 رجب)، وصل إلى طنجة الأميرال الرئيس عبد الله ابن عائشة، واليهودي ميمران، آتيين من مكناس من قبل السلطان، بقصد إتمام الصلح وإحكامه، ومعاينة الهدايا السلطانية، ولكن رئيس الأسطول الهولاندي اشترط قبل التوقيع على معاهدة الصلح، تَسلُّم الأسرى الذين أُسروا، كما قال، في عهد السلم بدون عوض، والأسرى الآخرين بما هو مقدّر ومقرّر في فدائهم، فأخبره اليهودي ميمران بأن الأوامر السلطانية الصادرة في هذه القضية إلى القائد علي كلها في صالحه وما يُرضيه، و طلب منه

186) كتاب إسطيل إلى بونشرطران المحرر بتطوان في 11 يناير سنة 18/1697 جمادى الثانية 1108، ص 454 من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

أن ينتظر أربعة أيام أخرى ليقع التنفيذ، فساعده على ذلك، وتوجّه في الحين للمحلّة السلطانية المحاصرة لسبتة، للمذاكرة مع القائد علي بن عبد الله.

وفي أثناء غيبته، طلب عبد الله ابن عائشة الذي كانت لديه أوامر سرية خاصة من رئيس الأسطول أن يوجّه له زورقاً من زوارقه الخاصّة التابعة لأسطوله، ليأتي فيه لزيارته والسلام عليه والمذاكرة معه، فامتنع الرئيس من إجابته إلى ما طلبه، خشية أن تكون في ذلك مكيدة له، ويبقى الزورق مأسوراً عند ابن عائشة، وقال له : إنه يُمكنه أن ياتي لزيارته في زورق من زوارقه، وهو يرغب في ذلك.

ولمّا وصل ميمران إلى المحلة السلطانية حول سبتة، واجتمع بالقائد علي بن عبد الله، وسلّم له الكتاب السلطاني الذي أتى له به معه يأمره فيه بتسليم الأسرى للرئيس، وأن يتسلّم منه ما أتى به معه من السلاح في مقابلتهم، وأن يحتاط في جعاب البنادق هل هي جيدة، وليس تلك التي كانت وصلت قبل هذا منذ نحو ثلاث أعوام لأجل هذا الغرض، فقال له القائد : «كيف يمكنني أن أعرف جيّدها من قبيحها إذا لم تكن كلّها بالبر ؟» ووجّه رسالة صحبة رقّاص خاص إلى السلطان بمكناس طالباً أمره بما يكون عليه عمله.

وبعد انصرام أيام الانتظار الأربعة التي طلب اليهودي من الرئيس، أطلق قلوعه للريح، وتوجّه إلى قادس، وأشعر طوليدانو بأنه اضطرّ إلى الذهاب إلى قادس ليتلقى أوامر جديدة، وسيرجع إلى طنجة بعد نحو عشرة أيام، وحينئذ يستأنف المذاكرة معه في القضية.

ثم طلب طوليدانو من التجار المسيحيين بواسطة القنصل إسطيل (Estelle) ضمانة جعاب المكاحل إذا كانت غير جيدة وأداء ثمنها على أن يُسرّح الأسرى ويُؤذَن لهم في ركوب البحر قبل إنزالها إلى البرّ إرضاء لخاطر رئيس الأسطول، فامتنع التجار من قبول هذه الضمانة أو الخوض في هذه القضية، لما فيها من المسؤولية.

وحينئذ التزم اليهودي ميمران للسلطان بضمانة جودة جعاب المكاحل، وإن كانت غير جيدّة فإنه ياتيه بغيرها من أحسن نوع وأتقنه من ماله الخاص، وتكفّل له أيضا بأنّ هولاندا ستسلّم له، زيادة على السلاح المتفق عليه، جميع الأسرى المغاربة الذين عندها، في مقابلة إطلاق سراح أسراها حسماً لمادّة هذه القضية، وفي ضمن ذلك عدم ضياع سلعه المجلوبة من هولاندا بواسطة ابن عمه الرسول طوليدانو، وهي ذات قيمة كبيرة.

وزاد السلطان شرطاً آخر، وهو قبول هولاندا أن يوجه لها رسولاً من قِبَله صحبة أحد خدمته من اليهود، ليأتيه بإثني عشرة مائة مكحلة، طبق النوع الذي يريده، ودفع له مثاله...

وأن تُسلِّم له أربعين أسيراً مغربياً زيادةً على ما تقدّم في ظرف سنة من تاريخ المعاهدة الصلحية.

وبعد الاتفاق مع السلطان على هذا، توجّه لطنجة. ولمّا وصلها وجد القنصل الهولاندي ورئيس الأسطول لازالا متغيّبيْن بقادس، فوجّه لهما رسالة خاصّة، صحبة سفينة خاصّة، يُعلمهما فيها بما اتّفق عليه مع جلالة السلطان، ويطلب منهما التعجيل بالحضور، لتصفية القضية نهائياً بدون تطويل ولا مماطلة.

ولكن، لمّا وصلت السفينة وحَمَلَة الرسالة الذين بها إلى قادس، وجدوا الأسطول الهولاندي سافر منها راجعاً إلى أوربا، وترك المركب الذي فيه السِّلع الموقوفة، والسِّلاح المعدّ لفداء الأسرى موقوفاً ومؤمناً بمرسى ليشبونة البرتقالية، حتى لا يمدّ الإصبان يدهم إليه، لأنهم في حالة حرب مع السلطان بسبتة[187].

وطال انتظار ميمران بطنجة، ثم اضطرّ لمبارحتها والرجوع إلى مكناس لأمر أوجب عليه ذلك.

ثم وجّهت الحكومة الهولاندية رسالة أخرى إلى السلطان المولى إسماعيل تخبره فيها بأنها عمّا قريب ستوجّه قطعاً من أسطولها إلى طنجة، ومعها من ستكلّف بإتمام ما بُدئ من تصفية مسائل الأسرى من الجانبين.

وفي أواسط شهر فبراير سنة ثمان وتسعين وستمائة وألف (أواسط فبراير 1698/ أوائل شعبان 1109)، وصلت إلى طنجة بعض قطع هذا الأسطول، وانتظرت وصول قطع أخرى عدة أيام. ولمّا تأخرت عن موعدها، رجعت إلى قادس، ومن قادس ولّت وجهها شطر البلاد الهولاندية.

وهكذا، بقيت مسألة الأسرى معلقة مرة أخرى.

وفي الثامن والعشرين من يناير سنة تسع وتسعين وستمائة وألف (28 يناير 1699/26 رجب 1110)، وصلت إلى مرسى العدوتين قطعتان من هذا الأسطول، مشحونتان بأنواع السلاح والمعدات الحربية، كالبارود، والبنادق، والسيوف، والشواقر، والجمالات، والقلوع لتجهيز السفن القرصانية.

---

187) ملخص من مذكرات ج. ب إسطيل المحررة بالرباط، من فاتح فبراير إلى فاتح مايه 1697/ من 09 رجب إلى 09 شوال 1108، من ص 481 إلى ص 490، من المجلد الرابع من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

وهكذا، كانت تتردّد هذه السفن الهولاندية على مرسى العدوتين من حين لآخر، حاملة هذه المواد والعدد الحربية، التي كان لا يستغني عنها قراصنة العدوتين، السلاوية والرباطية، من غير اعتبار للجو المتغير، والطقس المكفهر، والحبل المتوتر بين الدولتين، بسبب عدم الاتفاق على فداء الأسرى من الطرفين، واختلاف المواعد، وإسناد التنفيذ إلى كل قنصل أو ربّان قرصان معاند.

قال طيراس في تاريخه[188] :

"إن المواصلة التجارية المغربية الهولاندية لم تنقطع، ولم يؤثر عليها صعوبة المخابرة في فكاك الأسرى وفدائهم...".

وأخيرا، تم تنفيذ الفداء بين الطرفين، كما كان يريده المولى إسماعيل، سنة ثلاث وسبعمائة وألف (1114/1703)، وسنة أربع وسبعمائة وألف (1115/1704) على يد القائد علي ابن عبد الله، مع زيادة ستمائة إيكوس لكل رأس، بعد مرور سنين عديدة، بسبب عدم انقياد القناصل الهولانديين وربابنة سفنهم، وتعصبهم لآرائهم، ومسارعتهم لمبارحة المياه المغربية قبل إنجاز مهمتهم[189].

وعقب هذا الفداء، عقدت هولاندا مع المغرب معاهدة سنة أربع وسبعمائة وألف (1115-1116/1704).

وبمقتضاها فدى قنصلها بالرباط عددا من أسرى دولته الذين كانوا ما يزالون بمكناس[190].

ثم توالت الرسل والسفراء بين هذه الدولة الهولاندية والسلطان المولى إسماعيل، في شأن الفداء، وبذل في ذلك كل نفيس وغال من العدد الحربية والأموال الطائلة[191].

ومن جملة ما تمّ من الفداء في ذلك العهد، أنه لمّا أسر قراصنة هذه الدولة الأميرال الكبير عبد الله ابن عائشة سنة إحدى عشرة وسبعمائة وألف (1123/1711)، تَمَّ فداؤه سنة

188) ص 274، من ج 2.

189) ص 226، من المجلد السادس من «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»، السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا.

190) ص 434، من نفس المصدر ونفس المجلد.

191) ص 387، من نفس المصدر ونفس المجلد.

ثلاث عشرة وسبعمائة وألف (1224/1713) بأحد عشر أسيرا هولانديا[192]. وسياتي بيان ذلك عند الكلام على ترجمته في جملة رؤساء البحر بالعدوتين.

وفي هذه السنة أمضى المغرب معاهدته الصلحية مع الدولة الهولاندية. ومع ذلك كان القراصنة يجور بعضهم على بعض، وتقع المبادلة بينهم بعد ذلك بعوض.

وعلى كل حال، فقد كان فداء هؤلاء الأسرى يقع بين المغرب والبلاد الفلاماندية كغيرها من الدول الأوربية مبادلة وبعوض زُمراً وأفرادا، كلّما دعت الحاجة والمصلحة إلى ذلك بين الطرفين.

وقد كان المغرب يستفيد من ذلك استفادة كبرى، زيادة على إطلاق سراح الأسرى بما كان يجلبه ويقتنيه من السلع والسلاح والأدوات الأخرى، وما تُجهز به السفن البحرية، وغير ذلك مما يُنمّي به موارده التجارية، ويصلح حالته العامّة الاقتصادية.

هذه أخبار أسرى هولاندا والمغرب وما تطوّرت فيه من الأطوار في العهد الإسماعيلي، منذ سفارة أبي علي الحسن بن محمد سْكيريدو الرباطي سنة ست وثمانين وستمائة وألف (1097/1686)، إلى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وألف (1125/1713) أي نحو سبع وعشرين سنة.

وقد التقطناها وجمعناها من رسائل ومذكرات قناصل فرنسا بالمغرب في تلك المدة التي كانوا يرفعونها لوزرائهم، ورجال حكومتهم، واعتمدنا في ذلك على مجموعة «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة» السلسلة الثانية من وثائق الدولة العلوية بفرنسا. ولم نقف حتى الآن على صكوك الرسائل الشريفة، والوثائق الرسمية بنصها التي كانت تصدر من ملك المغرب، وحكومة هولاندا في هذا الشان، لأننا لم نتصل حتى الآن بالسلسلة الثانية من وثائق الدولة الهولاندية، وإن كنّا قد علمنا جملة ما راج في القضية بدأ وتماما، والله الموفق بمنه.

والحاصل ممّا استعرضناه من الحوادث والأخبار المتعلقة بهؤلاء الأسرى المغاربة بأوربا، وموقف السلطان المقدس المولى إسماعيل منهم، هو أنّهُ كان، رحمه الله، مهتما بأفراد رعيته، حامي حمى وطنه، شديد الشّكيمة في دينه، حتى أنه كان كلّما جاءه سفير أو رسول أو راهب يطلب فداء الأسرى، يعرض عليه الإسلام قبل كل شيء.

وقد خاطب ملوك أوربا كجاك الثاني، ملك إنجلترا، ولويس الرابع عشر، ملك فرنسا بمكاتب عديدة، يدعوهم فيها إلى الإسلام، ويبيّن لهم محاسنه وفضائله، ويطالبهم باحترام

192) ص 540 من نفس المصدر ونفس المجلد.

أساطيله القرصانية، السابحة في البحار، واسترجاع أسرى المسلمين وفدائهم بمن تحت يده من الأسرى المسيحيين، والتخفيف عنهم من الأشغال الشاقة، الخارجة عن الطاقة، التي كانوا مطوقين بها، وسيف الرُّعب والإرهاب مُصْلَت على رؤسهم.

وسنرى فيما سيأتي اهتمام حفيده السلطان الجليل أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله بهذه المسألة العظيمة، وما بذله فيها من الجهود والأموال الطائلة، وما وجّهه من السفراء لإنقاذهم واسترجاعهم لأوطانهم وبلادهم؛ وكان لا يفرق بين جميع الأسارى، سواء كانوا مغاربة أو من أي دولة أخرى مسلمة، إذ الشرط عنده أن يكونوا مسلمين لا غير.

المبحث الرابع

فداء الأسرى في عهد السلطان مولاي أحمد بن إسماعيل

لمّا توفي المولى إسماعيل، رحمه الله، في الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف (28 رجب 21/1139 مارس 1727)، وظهرت بوادر الثورة في المملكة المغربية، أظهر الأسرى الذين كانوا مستعملين في بناءاته بمكناس تمرُّدهم في الخدمة، ونبذوا أدوات البناء من أيديهم، وصاروا يتربَّصون الدوائر عسى أن يجدوا ملجأ أو طريقا إلى فرارهم أو إطلاق سراحهم.

واغتنم الأوربيون هذه الحوادث، فطالبوا بتوسيع نطاق تجارتهم، وفداء أسراهم، وإطلاق سراحهم، وخصوصاً هولاندا وإنجلترا، وبعثوا الرسل والسفراء إلى الملوك لعلَّهم يُحصلّون على مطالبهم، فلم يفوزوا إلاً بفداء عدد قليل من الأسرى، كما سيُعلم ممَّا سياتي(193).

وقد كانت بيعة المولى أحمد بن إسماعيل بعد وفاة والده باتِّفاق من قواد العبيد وذوي الشوكة من جيش الودايا والعلماء والأشراف.

قالوا : واختاروه دون إخْوته لاتِّصافه بالجود والكرم، حتى إنَّ أحد الأسرى الإنجليز حدّث عنه في رحلة له، بأنَّ العسكر فرحوا بولايته لكونه أسدى إليهم جمّ العطاء.

---

193) «تاريخ إفريقيا الشمالية» لأندري جوليان (André Julien)، ص 240-241، ج 2، من الطبعة الثانية.

وأخبر أسير إنجليزي آخر بأنّ أهل مكناس، التزموا بيعته، لمّا رأوا عزمه على تدمير مدينتهم بالمدافع إن أحجموا[194].

وقد كان الأسرى عموماً مهتمين بولاية من سيخلف الملك الرّاحل، وما سينهجه من السياسة في حقّهم، ولذلك كتبوا في رحلاتهم ومذكراتهم عن ولاية كلّ سلطان من السلاطين الذين تولّوا بعد وفاة المولى إسماعيل من أولاده حسب ما ظهر لهم، وتجلّى في جو سياستهم، ونطاق استعبادهم.

وتطميناً لبعض قناصلهم، كتب في العشرين من ذي القعدة عام تسعة وثلاثين ومائة وألف (20 ذي القعدة 09/1139 يوليوز 1727) رسالة إلى القنصل الإنجليزي بتطوان والذين معه يعلمهم فيها بولاية الباشا علي بوشفرة على تطوان مكان الباشا أحمد الريفي... وأنهم لا يرون منه إلا المجاملة والصيانة لأموالهم وأنفسهم. وبعد ذلك كانت سفارة السفير جوهن روسيل (John Russel) [195].

---

194) «إتحاف أعلام الناس»، لابن زيدان، ص 295-296 من ج 1.

195) نفس المصدر والجزء ص 296.

المبحث الخامس

سفارة جوهن روسيل (John Russel) الإنجليزي إلى السلطان المولى أحمد بن إسماعيل

قال جاك كايي (Jacques Caillé) في كتابه «التاريخ الصغير للمغرب»[196]:

في الرابع عشر من شتنبر سنة سبع وعشرين وسبعمائة وألف (24 شتنبر 01/1727 محرم 1140)، أي بعد وفاة المولى إسماعيل ببضعة أشهر، وصل إلى جبل طارق صحبة سفينة إنجليزية خصوصية جوهن روسيل (John Russel) الموجه من قبل ملك إنجلترا شارل الثاني إلى مكناس، ليقوم بالسفارة لدى الأعتاب السلطانية، ويتولى القنصلية بتطوان.

وكان صحبته عدة أشخاص من ذوي المراتب الرسمية في الدولتين المغربية والبريطانية، منهم طبيب السفير، والقبطان بريثويط (Braithwate) والحاج عبد القادر لوباريس، الذي كان أميرالاً بسلا وتوجّه في رسالة خاصة أواخر العهد الإسماعيلي إلى لوندرة.

ولمّا وصل هذا الوفد إلى تطوان، واطّلع على الحالة المتجلية بالمغرب من الاضطراب الذي حدث بعد وفاة السلطان، ولاسيما المنافسة التي بين قائدي طنجة وتطوان، أحجم عن التوجه إلى مكناس، واضطرّ إلى الإقامة بهذه المدينة نحو الشهر منتظراً ما تسفر عنه الحوادث.

---

196) ص 15 من جزء السلسلة الثانية.

وفي أثناء إقامته بتطوان، اتَّصل بعدّة شخصيات من موظفيها، وأهمهم أمين ديوانتها السيد الحاج الوقاش، واستحكمت بينهما أواصر الصداقة. فاعتنى به وأكرمه ونعَّمه، وأقام له ضيافة كبيرة ببستان له يبعد عن تطوان ببضعة كيلومترات.

ووصف هذه الضيافة ومن حضرها، وما اشتملت عليه من الفرش الأنيق، والأثاث والرياش الفاخر، وأنواع الأطعمة والأشربة اللذيذة الشهية، وأجواق الطرب المتنوع: الأندلسي والفلكلوري، وصفاً كاشفاً وفيه أمور... خارجة عن موضوع بحثنا.

وقال النقيب أبو زيد ابن زيدان في «إتحافه»:[197]

لمّا بلغ لعلم السلطان المولى أحمد وصول هذا السفير وإجحافه عن الإتيان لمكناس، كتب له رسالة يقول فيها:

... وبعد، فقد أخبرنا الباشا أحمد بن علي الريفي بأنكم وصلتم إلى جبل طارق ومعكم صاحبه الذي كان في عاصمة مملكتكم، وأخبرنا أيضاً بما تؤملون مِنّا من تجديد العهود التي كانت بين والدنا - رحمه الله - وبين دولتكم.

وعليه، فأقدمْ إلينا صحبة الباشا المذكور، وها مكاتب الإيصاء عليك بالطريق حتى تصل لدينا مصوناً من كل مروّع أنت ومن معك من الأصحاب. وزاد أنَّ الصاحب الذي أشار إليه في هذا المكتوب، سمَّاه صاحب الأصل المنقول منه "بوكلي" كان وجّهه المولى إسماعيل سفيراً لملك إنجلترا، وفي أوبته من سفارته اتَّصل به نعي مُرْسِلِه أثناء الطريق.

وكان هذا السفير من جملة أعوان القائد أحمد الريفي، وهو الذي أشار على السلطان المرحوم بتعيينه سفيرا، وهل هو الحاج عبد القادر لوباريسْ الذي ذكره كايي "Caillé" - كما تقدم - أم غيره؟ لا ندري.

والذي عند النقيب المذكور -كما سياتي- هو أن لوباريسْ هذا إنَّما أوفده السلطان المولى أحمد إلى السفير الإنجليزي لياتي به من جبل طارق.

وزاد النقيب قائلا:

ولمّا حدث ما حدث بين القائد أحمد، وبين أهل تطوان، وعلم هذا السفير (المغربي) بذلك، والحال أنه تطواني الأصل والاستيطان، كبُر عليه ذلك، ولم يدر أين تكون وجهته. فإن

---

197) ص 295 من ج 1.

قصد الريفي بطنجة، ربّما لا يأمن على عائلته بتطوان من التضييق بهم، وسلبهم أمتعتهم ومالهم نكاية له، وإن قصد أهله بتطوان، لا يدري ماذا تلد له الليالي.

وقد كان كل من الريفي، وأهل تطوان، لمّا علموا بقدومه، وجّه إليه يأمره بالنزول من البحر لديه، فازدادت حيرته، حتى همّ بالرجوع من حيث جاء إلى أن تطمئن البلاد، وترجع المياه لمجاريها.

وقد كانت صحبةَ هذا السفير الإنجليزي هدايا من ملك الإنجليز إلى مُرسله.

ولمّا اتّصل الخبر بالمولى أحمد، أوفد إليه الحاج عبد القادر لوباريسْ بجبل طارق يأمره بالقدوم لحضرته بمكناس. وعند ذلك، لم يجد بُدًّا من التوجه للقائد أحمد الريفي بطنجة، فتوجه إليه، ثم ذهب للحضرة السلطانية بمكناس. انتهى باختصار.

ثم قال كايي[198] :

بارح السفير تطوان، ومن كان في معيته، وكذلك الحاج الوقاش، متوجهين إلى مكناس، يوم ثاني نونبر سنة سبع وعشرين وسبعمائة وألف (02 نونبر 17/1727 ربيع الأول 1140). ووصلوا إليها يوم العشرين منه (05 ربيع الثاني).

وكانت مهمة هذا السفير التي كُلّف بها، تجديد المعاهدة السابقة التي بين المغرب وبريطانيا، وتقديم بعض الشكايات المتعلِّقة بالأسرى، الذين أسرهم القراصنة السّلاويون، وفداءهم.

الهدية التي جاء بها السفير

عملاً بمقتضى العادة التي كانت متقررة وجارية في ذلك العهد بين ملوك أوربا وملوك المغرب، فقد جاء هذا السفير بهدية نفيسة مهمّة من دولته إلى السلطان، تشتمل على :

- ثُريا كبيرة ذات إثني عشر غصنا من البِلّوْر الصّافي.
- وصندوق مملوء بالفخار الصِّيني الرفيع.
- وثلاث علب كبيرة من الفخّار الصّيني أيضاً مملوءة بالمُربّبات والحلاوي المتنوعة.

---

198) ص 18 والتي بعدها من «تاريخ المغرب الصغير»، السلسلة الثانية.

- وبندقية.

- وطبنجة.

- وعلبة مملوءة بالمجوهرات والتُّحف الغريبة.

- وثمانية وعشرين قُرصاً معجوناً بالسكَّر الملكي.

- وثمان عشرة ليبرة[199] من الشّاي الرفيع.

- وثمان وسبعين قطعة من الملف الجيِّد.

- وأربعة صناديق مملوءة بأنواع المنسوجات الفلورانسية.

- وصندوق آخر مملوء بالمنسوجات الهولاندية.

- وصندوق مملوء بقطع من الديباج المزركش، والأقمشة الحريرية المتموِّجة والمزخرفة بالخيوط الذهبية.

مقابلــة السلطـــان مولاي أحمد للسفير

في الثاني والعشرين من نونبر سنة سبع وعشرين وسبعمائة وألف (22 نونبر 27/1727 ربيع الثاني 1140)، استقبل السلطان المولى أحمد السفير ومن معه من أصحابه، وانضاف إليهم قائد تطوان، والأميرال الرئيس لوباريسْ، بمشوره بالقصر الملكي بالحضرة المكناسية، في احتفال كبير، انْحَشَر النّاس إليه من أطراف المدينة، حتى كان المخازنية والوَزَعَة يذودونهم عنهم، ويفسحون لهم الطريق.

وبعد انتظارهم ساعة كاملة، فُتحت الأبواب في وجوههم وقابلوا السلطان وهو جالس تحت رواق من عود مظلل، وتقدّم إليه السفير وخضع وخنع وطأطأ الرأس ثلاث مرات، وقدّم إليه كتاب سلطانه، شارل الثاني في منديل من حرير، والهدية التي جاء بها، وزاده عليها ساعة ذهبية من عنده، وألقى خطبته المعتادة، وترجمها الرئيس لوباريسْ حالاً إلى

199) الليبرة الإنجليزية تساوي خمسمائة غرام.

العربية، وأجابه السلطان عليها بقوله : حسن، حسن، حسن، وأمر أحد قواده بالاعتناء بالسفير ومن معه، وإكرام مثواهم، والاهتمام بمؤونتهم.

وانتهت المقابلة في ضجة واختلاط بين العساكر والمخازنية والعبيد والمتفرجين.

وفي المساء، ذهب السفير للسلام على وزير السلطان، وقدّم له هدية خاصة به من جملتها منجانة، وأشياء أخرى، وقابله مقابلة جميلة، وهشّ وبشّ في وجهه.

وبعد هذه المقابلة، وما احتفّ بها من المجاملة، جدّد السفير المعاهدة التي كانت انعقدت بين دولته والدولة المغربية، سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وألف (1133/1721)، على يد رئيس الأسطول ستيوارت (Stewart)، ولكنه لم يحصل إلاّ على إطلاق سراح اثني عشر أسيراً من أسرى جنسه لا غير، مع أنّه كان يطالب بخمسين.

ولمّا رأى أن ذلك يستدعي طول المخابرة، والمقام بمكناس، والنفقات الكثيرة، لاَ سيِما في ذلك الوقت الحرج، فقد اختصر واقتصر على ما حصّل عليه.

وفي مدّة إقامته بمكناس، استضافه ومن معه جماعة رهبان الدير الإصباني الخاص بالأسرى، وبعض المغاربة الذين كانت له علّقة بهم، وكذلك بعض المسيحيين الذين أسلموا، وكانوا موظفين بالجيش المخزني، كرئيس مسبك المدافع وغيره، ممّن اتّصل به.

وبارح مكناس يوم السابع عشر يناير سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وألف (17 يناير 04/1728 جمادى الآخرة 1140) في كفالة باشا طنجة أحمد بن علي الريفي. وانضمّ إليه آخرون، حتى صارت جماعتهم قافلة، ومرّوا في طريقهم على سيدي قاسم، والقصر الكبير والعرائش وأصيلا، ولقوْا في سفرهم هذا مشقة شديدة، وتعباً بسبب الأمطار المتهاطلة مدة سفرهم، حتى امتلأت الأودية، وانقطعت السبُل.

وأخيراً، وصلوا إلى طنجة أواخر شهر يناير (أواخر جمادى الآخرة)؛ وقابلهم القائد أحمد الريفي مقابلة رسمية، ولقي السفير منه صعوبات فيما يرجع للأسرى الذين جاء بهم معه، ولأداء أجور الفرقة من الجيش التي رافقته في الطريق من مكناس إلى طنجة.

وبعد تَسْوية جميع المسائل والخلافات، بارح طنجة في سفينة خاصّة أقلّته إلى جبل طارق في السابع من فبراير سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وألف (07 فبراير 17/1728 رجب 1140)[200].

وبذلك انتهت مهمة سفارته.

---

200) ملخص من «التاريخ الصغير للمغرب»، لكايي (Caillé)، من ص 18 إلى ص 24، السلسلة الثانية.

المبحـث الســادس

فداء الأسرى في عهد السلطان
المولـى عبد الملـك بن إسماعيـل[201]

لمّا خلع العبيد السلطان أبا العباس المولى أحمد الذهبي بن اسماعيل، بايعوا مكانه أخاه السلطان أبا مروان عبد الملك بن إسماعيل.

وكانت أيامه أيام حروب مع أخيه المخلوع، إلى أن انتهت بموتهما معا. رحمهما الله.

وفي عـهده لم تتـغير حـالة الأسـرى، ولم يقع فـيهم فـداء، إلاَّ أنَّه وصلت بعـثـة رهبـانيـة فرنسية إلى مكناس، راغبة في الاتصال بأخيه، فوجدته قد تمَّ خلعه، وانعقدت بيعة المولى عبد الملك خلفاً عنه، فاقتبلها في مشوره على العادة، وحيث إنها لم تكن حاملة لرسالة رسمية من ملك فرنسا، فقد ردّها، ولم يسمع مطالبها، وأنعم عليها بإطلاق سراح أسيرين فرنسيين ضيافة لها، وكتب كتاباً بذلك إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر، يقول فيه :

بسم الله الرحمان والرحيم

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم

عن أمر عبد الله، الغالب بالله، أمير المومنين، بن أمير المومنين، المجاهد في سبيل رب العالمين.

201) «إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس»، لابن زيدان، ص 312، من ج 5.

ثم الطابع الشريف بداخله :

عبد الملك بن أمير المومنين اللّٰه وليُّه

وبدائرته : ومن تكن برسول الله نصرته... البيت

أيده الله ونصره، وظفّر جنوده المباركة وعساكره، وحفظه وكان له ومعه، في جميع الحركات والسكنات، آمين يارب العالمين.

إلى طاغية الفرنصيص، وكبير قومه، وأهل جنسه، لويس الخامس عشر.

السلام على من اتبع الهدى

أمَّا بعد، فاعلم أن حَمَلَته، - الفرايلية من جنس الفرنصيص- كانوا جاءوا لحضرتنا العلية بالله للملاقاة مع أخينا مولاي أحمد، ووجدوه قد وقع ما وقع، من نصر الله عبده، المعترف بإحسانه ونواله، الطالب من المولى جلّ جلاله أن يعينه على القيام بحق عباده، تلاقوا معنا في مشورنا السعيد، فطالبناهم في كتابك الذي كتبته لعلي مقامنا باللّٰه، على العادة المعروفة، فلم نجد بأيديهم مكتوباً نتكلّم به معهم، فما أمكننا إلاّ أن أنعمنا عليهم بزوج (2) نصارى من الفرنصيص، حيث وقفوا بأبوابنا العلية بالله، ضيَّفناهم بهما، وإن أرادوا الكلام معنا، فلياتوا بكتابك على عادة السلاطين.

والسلام على من اتَّبع الهدى.

وفي الثامن عشر من شوال عام أربعين ومائة وألف (18 شوال 28/1140 مايه 1728)،

انتهى باختصار.

المبحث السابع

فداء الأسرى في عهد السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل

لمّا توفي المولى أبو مروان عبد الملك بن إسماعيل، وأخوه المولى أبو العباس أحمد الذهبي، بويع، بعدهما، أخوهما المولى عبد الله بن إسماعيل، وخُلع مرارا، وتكرّرت بيعته، وتجدّدت دولته، بسبب الاضطراب والحروب التي كانت بينه وبين إخوته المنازعين له في إمرته...

وفي عهد ولايته سنة خمس وستين ومائة وألف (1752/1165)، كما في «الاستقصا»[202]، قَدِمَ عليه أهل تطاوين برياسة القائد الوقاش بفاس، لحضور عيد المولد الكريم، وبيدهم هدية مقدارها ثلاثون ألف مثقال.

وقَدِمَ صحبتهم باشادور الاصبنيول، ومعه مائة ألف ريال، وما يناسبها من الحرير والملف والكتان وغير ذلك، بقصد فكاك الأسرى من جنسه، فقبض المال، وقال للباشادور: "حتى تأتوا بأسرى المسلمين الذين عندكم، وأعطي للعبيد من ذلك المال ريالين لكل واحد، وأعطي نِسَاءَهُم مثل ذلك، وكانوا ألفين ومائتين".

وفيه أيضا:[203]

في سنة ست وستين ومائة وألف (1753/1166)، انعقدت الشروط بين المولى عبد الله، وبين جنس الإصطادوس (الدولة الهولاندية)، وهم سبع قبائل من الفلامنك، وهي اثنان

---

202) ص 85، من ج 4، طبع القاهرة. وص 212 من ج 6 لطبعة وزارة الثقافة، سنة 2001.

203) نفس المصدر، ونفس الصفحة والجزء. وص 213 من نفس الجزء والطبعة.

وعشرون شرطا، مرجعها إلى عقد الأمان والصلح بين الإيالتين، وأن يجعل جنس الإصطادوس قنصلا أو أكثر بالبلد الذي يختاره من بلادنا، ويكون يعطي خطّ يده المسمى ب : "الباسبورط" لمن يسافر من مراكبنا إلى جهة بلادهم، وكذلك هم أيضا إلى غير ذلك.

وقد أثبت أبو زيد ابن زيدان هذه المعاهدة في «إتحافه»[204].

ولا بأس أن ندرجها هنا، لارتباطها بموضوعنا، مع إصلاح بعض الألفاظ التي لا تغير شيئا من المعنى، ونصها :

نص المعاهدة المبرمة بين المولى عبد الله وبين الدولة الهولاندية

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على من لا نبي بعده

ثم إمضاءه : عبد الله كان الله له.

هذه نسخة شروط الصلح والسبب بين سيدنا نصره الله، السلطان الأمجد، الشريف الأسعد، سيدنا ومولانا عبد الله، بن مولانا إسماعيل، قدّس الله روحه، آمين، سلطان مراكش وفاس ومكناسة والغرب، مع الإصطادوس، المعظمين في بلادهم، وهم سبعة من قبائل الفلامنك، مفاصلين، بأمر سيدنا وتفويضه نصره الله، والباشادورات : فْرَنْصِصْكْ ودون اليوزبوطلير بأمر وتفويض الإصطادوس المتاويين[205] المذكورين، مع وكيل سيدنا ومولانا نصره الله، وهو خديمه القائد محمد الوقاش، ووكيل الإصطادوس المذكورين افْرَنْصِصْكْ بُوطْلِيرْ، وأخيه لويز.

الشرط الأول :

انبرم الصلح، وتصحح العهد بين سيدنا ومولانا عبد الله، نصره الله، وبين الإصطادوس المتاويين.

204) ص 484، من ج 4.

205) متاويين : يعني متحدين أو مجتمعين.

ومن يوم عهد الصلح، يكون فيه الأمان التام، يأمن الخائف فيه من الجهتين، وكل ما وقع من الزمان الفايت من الگيرة (الحرب)، وغيرها فهو منسي، وهذا الصلح دائما - إن شاء الله - من الجانبين ورعيتهم، ومن اليوم للأمام، تكون المحبة وعهد دائم من الجانبين.

الشرط الثاني :

جميع سفن الفلامنك وسفن رعيتهم المعروفين للديوان المذكور، سواء كانوا نصارى أو أهل ذمة من الذين تحت أيديهم، إن دخلوا مرسى من مراسي طاعة سيدنا ومولانا نصره الله، بقصد الترصية خيفةً من البحر، أو بقصد التجارة، لا يتعدى عليهم أحد، ولا يعطون سوى عُشر سيدنا ومولانا - نصره الله - من غير أن يخرق عليهم أحد عادة جديدة، والسلعة التي تبور لهم في البلاد، بعد أن كانوا أدّوا عُشرها، إن أرادوا أن يحملوها أو يتراجعون بها حيث شاءوا، بل حيث يظهر لهم براً أو بحراً من غير لازم آخر يلزمهم، بوجود سيدنا -نصره الله- وكمال إحسانه، وكذلك إن ورد مركب من مراكبهم لبلاد من بلاد طاعة سيدنا ومولانا أدامه الله، وكانت عنده سلعة، وأراد أن ينزل منها طرفا من تلك البلاد، والباقي يسافر به لغيرها، نطلب من سيدنا - أيده الله - أن لا يعترض أحد لذلك المركب، ولا يكرهه على إنزال تلك السلعة في البلاد التي يرضى بها، أو لا يعطي إلاّ عُشر السلعة التي أنزل في البلاد من غير معارض له في ذلك، بوجود سيدنا ومولانا نصره الله.

وكل ما كان محسوباً من آلة الحرب كالبارود والعدّة واللوح للسفن، وما أشبه ذلك، إن جاء به مركب من مراكبهم بمرسى من مراسي سيدنا -نصره الله- ، بقصد السبب، فلا يلزمهم عليه عُشور، بوجود مولانا وسيدنا نصره الله.

الشرط الثالث :

إن جميع سفن الفلامنك التي يهيج عليها البحر، أو يفرّون من عدوهم، إنْ دخلوا مرسى من مراسي سيدنا ومولانا - نصره الله -، لا يلزمهم بارود[206]، ولا مخطاف، ولا غيره مما هو معلوم من لازم المراسي ووظائفها بفضل سيدنا نصره الله.

206) كانت السفن الأجنبية، إذا أرست بمرسى من المراسي المغربية، وأطلقت مدافع التحية المعتادة، وأجابت أبراج المرسى بمثلها، فإن ثمن بارود تلك المدافع، يؤديه رئيس تلك السفينة، أو قنصل دولته، إن كان موجودا بتلك المرسى.

وكذلك مراكب طاعة سيدنا إنْ وردت على مرسى من مراسي الفلامنك في هذه الحالة المذكورة، لا يلزمهم شيء إن شاء الله.

الشرط الرابع :

إن جميع سفن الفلامنك تسافر في البحر من غير أن يتعدّى أحد عليهم في مراكبهم في مال ولا سلعة ولا رئيس ولا بحري ولا راكب، إنْ كان معهم من غير الفلامنك، إذا كان تحت سنجق الفلامنك، سواء كانت السلعة له أو لغيره، بفضل سيدنا نصره الله.

الشرط الخامس :

إن جميع مراكب سيدنا القرصانية وغيرها، إن تلاقوا في البحر مع سفائن البزركان، وأراد أحدهما أن ينظر باسبورط، يبعث إليها رجلين من غير القدّافين ينظرون ذلك ويرجع كل واحد منهم لمركبه من غير تعدي، ولا تعارض، ولا يطلع منهم للسفينة، إلاّ من يجيب رئيسها، وكيف يورّي له هو مبين هذا الشرط يسرحه، وإن سافر مركب من مراكب سيدنا – نصره الله– القرصانية وغيرها، يكون عنده باسبورط بخط قونصو الفلامنك المقيم بطاعة سيدنا نصره الله، فإنْ كان القونصو غائبا، فتُجّار الفلامنك، وإنْ لم يحضروا تجار الفلامنك، فمن تُجّار النصارى المقيمين بطاعة سيدنا نصره الله، وإن كان عنده ذلك، يورّيه للرئيس، ولا يتعدّى عليه، ويسرّحه في الحين والساعة.

الشرط السادس :

لا يتعدّى رئيس ولا بحري من طاعة سيدنا – نصره الله – على سفن الفلامنك، ولا يُنزلون منها راكباً من أي جنس كان، إنْ كان تحت سنجق الفلامنك، ولا يترامى عليه أحد.

الشرط السابع :

لا يتعدى أحد على سفائن الفلامنك التي تُحَرِّت، قُرصاناً أو زركانا، في طاعة سيدنا نصره الله، ولا يأخذ له شيئا من السلعة ولا القلوع، ولا غير ذلك من سائر حوائج المراكب

المعلومة، ولا ركابه، ولا رئيسه بوجود سيدنا نصره الله، ويكونون امْتَاعْ رُوسهم، من غير أسر؛ وأهل طاعة سيدنا نصره الله، يأخذون بأيديهم، ويعينونهم إنْ وقع شيء من ذلك، ربّما تفسد السلعة، أو يموت أحد من أهل ذلك المركب، فلا يضيع شيء من متاعه، بوجود سيدنا نصره الله، ويدفع ذلك للرئيس، أو لمن له الأمر، يأخذ السلعة، ويعطي الأجرة لمن يُعينهم؛ وأهل المركب يتوجّهون حيث شاءوا، ولا يتعرَّض لهم أحد.

الشرط الثامن والتاسع :

لا يأتي أحد من أهل طاعة سيدنا نصره الله، ولا من طاعة الفلامنك إلى طاعة أخرى، ويعمل سنجقا غير سنجقه، ويقرصنون على من له صلح معهم من طاعة سيدنا، وطاعة الفلامنك كذلك أيضا بالشرط الذي هو لعمالة أخرى، غير التي هو صلح معها، وجميع سفن سيدنا - نصره الله - لا تأتي لطاعة الفلامنك، ولا تقرصن عليها ولا على نواحيها.

الشرط العاشر :

إن جميع من كان عدواً لطاعة سيدنا، ويأخذ غنيمة لا يدخل بها طاعة الفلامنك، يبيعها ولا غير ذلك، وذلك من كان عدواً للفلامنك لا يدخل طاعة سيدنا نصره الله، يبيع الغَنيمة التي يغنمها للفلامنك، وكذلك إن كان بمرسى من طاعة سيدنا مركب من أعداء الفلامنك، وكان مركب من مراكب الفلامنك بتلك المرسى السعيدة، لا يتعدى عليه أحد، ولا يقربه بسوء. وإن كان مركب من مراكب الفلامنك على سفر من تلك المرسى، فلا يترك مركب العدو يسافر إلاّ بعد سفر الفلامنك بأربعين ساعة.

الشرط الحادي عشر :

إذا أخذ الفلامنك سفينة من أعدائه وأعداء سيدنا نصره الله، ودخل بها إلى مرسى من طاعته، وأراد بيعها، فلا يتعرض له أحد ولا ينازعه، وكلما ينزلوا من السلعة بخاطرهم في البر، يعطوا ما يلزمها من العُشر من غير زيادة، وإن توقفوا على ما يقضونه من الفريشك بسعر السوق لما يأكلونه، فلا يلزمهم عليه خارج، بوجود سيدنا نصره الله.

الشرط الثاني عشر :

إنْ ورد مركب من قرصان الفلامنك على مراسي سيدنا نصره الله، فالقونصو الفلامنك يعلم به حاكم البلد، إذْ ربّما يكون عنده أسير فرّ له، وإنْ دخله الشك، وأنّ الأسير فرّ إلى المركب، فيسأل رئيس المركب هل هناك أم لا ؟ ورئيس المركب يقبضه له. وإن لم يكن هناك، وقال له رئيس المركب: ما هوشي عندي، فلا يتعدّى أحد على رئيس القرصان، ولا على القونصو، ولا على أحد من التجار. وإذا تحقق الخبر على ذلك الأسير، وأنّه هرب إلى ذلك المركب من غير علم الرئيس، وأخفَوْه عنه البحرية، فالقونصو يكتب للأسطادوسْ، ويحكم في الذي أخفاه، وربّ الأسير يقبض مال الأسير.

الشرط الثالث عشر :

من اليوم الذي انعقد هذا الصلح، لا يقع أَسْرٌ على أحد من رعية الفلامنك، لا نصارى ولا أهل الذمّة، ولا على من يكون تحت سنجقهم، وإذا أُخذ مركب بعدما عُقد الصلح، فيُرجَّع، ولا يُطالبُ أهله في فِدْية ولا في غيرها.

الشرط الرابع عشر :

إذا مَاتَ أحدٌ من التجَّار من رعية الفلامنك، وترك سلعة أو متاعاً لا يتعدّى عليه أحد من عمّال سيدنا نصره الله، ولا يأخذ من ذلك شيئا، وإذا أوصى الهالك عليها أحداً، فتبقى في يده، سواء كان وارثه أو شريكه، أو وكيله، فإنْ كان حاضراً، بقيت بيده، وإنْ كان غائباً ولم يحضر أو توفي، فالقونصو الفلامنك يأخذها ويدفعها لأربابها، وإنْ لمْ يكن القونصو حاضراً، فتجار الفلامنك المقيمون في البلاد يحوزونها ويبعثون بها لأربابها، من غير معارض لهم في ذلك، بوجود سيدنا نصره الله.

الشرط الخامس عشر :

تُجّار الفلامنك المقيمون بطاعة سيدنا نصره الله، من النصارى الفلامنك، أو من أهل الذِّمَّة، إذا جاؤوا بسلعة لا يعطون عُشرها إلاّ منها، وكذلك حاكم البلاد إذا كانت بيده سلعة،

لا يكلّفهم يأخدونها منه كرهاً، إلاّ عن خاطرهم ورضاهم بذلك. وكذلك ريّاس المراكب، لا يحكم عليهم أحد من حُكّام البلاد، ليحملوا سلعة في مراكبهم إلى بلاد أخرى، إلاّ أنْ رضي بذلك الرئيس، وكذلك حاكم البلاد لا يثقفّ سفينة ولا رئيساً ولا بحرياً، وقونصو الفلامنك وتجارهم لا يقبضهم أحد في ديْن أحد، إلاّ إذا كانوا ضامنين عليه. وكذلك سفينة الفْلاَمَنْكْ، إذا عملت زْمَنْطُوطْ[208]، لا يُتّخذ فيه لا القونصو ولا التجّار، وإنّما القونْصو يكتب للأسطادوس بَاشْ يفتشوا عليها.

الشرط السادس عشر :

وكذلك النصارى الفلامنك، وأهل الذمّة منهم، إذا وقعت بينهم دعوى أو خصام أو موت أو جرح، فالقونْصو الفلامنك الذي بيده تولية الإسطادوس يحكم بينهم.

الشرط السابع عشر :

إذا كان المسلم خصما مع نصراني، فحاكم البلاد مع القونصو يفاصلهم، وإن وقع أمر من نصارى الفلامنك، وجرحوا المسلم، فيرفع أمرهم لسيدنا نصره الله، وهو ويحكم فيهم، وإن هرب صاحب الدعوى، فلا يُقْبَضُ فيه أحد من تجار الفلامنك، ولا القونصو.

الشرط الثامن عشر :

إنّ ديوان الإسْطادُوسْ، يبعثون قونصو واحداً أو أكثر لطاعة سيدنا نصره الله، للموضع الذي يريدون، والقونصو المذكور، لا يتعدّى عليه أحد في ماله، ويستوصى به خير. وكذلك التجّار المقيمون بطاعة سيدنا نصره الله، وتراجمتهم، وسماسرهم، ويطلعون للمراكب التي ترد لطاعة سيدنا نصره الله، ولا يتعدى أحد عليهم. وكذلك يسافرون في البرّ للموضع الذي يريدون من طاعة سيدنا نصره الله، وكيف يريدون دفن موتاهم، لا يتعرّض لهم أحد، ولا يمنعهم من صلاتهم المعهودة من دينهم. والقونصوات والتجّار هم الذين ينظرون من يصلح لهم من السّماسرة والتّراجمة.

---

208) كلمة عاميّة، ومعناها الذي يعمل عملا ليس من شأنه، ولا هو مكلف به، ويتحمل مسؤوليته، ويؤاخد به.

الشرط التاسع عشر :

إذا وقع شئ ممًا يوجب نقض الصُلح بحسب ما يقتضيه رأيه الرشيد، فيُعلم بواجب ذلك، ويُؤجِّل القونصو الذي بطاعة سيدنا نصره الله أجلاً مبلغه ستة أشهر، ريثما يجمع القونصو ماله الذي يكون متفرقاً في دين أو معاملة، ويرجع لبلاده هو وجميع من يكون من التجّار بطاعة سيدنا نصره الله، بأمتعتهم وأولادهم وأصحابهم، ولا يتعدّى عليهم أحد، بوجود سيدنا نصره الله.

الشرط العشرون :

إنْ كان أحد من جنس الفلامنك راكباً في مركب أعداء سيدنا نصره الله، وظفر بذلك المركب سيدنا نصره الله، لا يتعرّض أحد لذلك الراكب الذي هو من طاعة الفلامنك، سواء كان نصرانياً أو ذمياً، ولو كان تحت سنجق العدو، ولا يتعرّض أحد لسلعته. وكذلك إنْ كان أحد من طاعة سيدنا نصره الله راكباً في مراكب الذين هم أعداء للفلامنك، وظفر بهم الفلامنك، لا يأخذ أحد شيئاً لذلك الراكب الذي هو من طاعة سيدنا نصره الله، لا سلعة ولا شيئاً من متاعه.

الشرط الحادي والعشرون :

إنْ تبيَّن على أحد أنه نقض الصلح، وسعى في المسائل التي تكون سبباً في ذلك، وكان نصرانياً، يعلمنا به سيدنا نصره الله، ويحكم فيه، ويردّ كلّ ما أخذه. وكذلك إن فعل ذلك أحد من طاعة سيدنا نصره الله، يحكم فيه، ويردّ كل ما أخذ، ويكون الأجل في ذلك ستة أشهر، ريثما يحصل الخبر، ويأتي الجواب.

الشرط الثاني والعشرون :

يجعل سيدنا نصره الله علامته المباركة على هذا الصلح، ويجعل الأسطادوس علامتهم بخط العجم، في الوقت الذي يساعد الهوى والريح.

وهذا الصلح مبدأه من يوم الكتب، بعقد صحيح، وأنْ يأمر سيدنا نصره الله، حكّام طاعته، ويُعرّفهم بأمر الصلح، ويُبيّنه لهم، ليَلاّ يتعدّى أحد لكونه لا علم له بأمر هذا الصلح المبارك، مع جنس الفلامنك، وأن يكون كل أحد على بصيرة من ذلك. وكذلك يفعل الأسطادوس في جميع طاعتهم، بوجود سيدنا نصره الله.

والســــــــلام.

ويُؤخذ من هذه المعاهدة، أن حركة القرصنة المغربية، وخصوصاً السلاوية الرباطية، بقيت جارية في أعمالها الحربية، وغاراتها البحرية، بعد انتهاء الدولة الإسماعيلية، ولم تُؤثر عليها الاضطرابات الداخلية، واستمرّ تردّد السفراء والرّسل والبعثات الدينية على بعض الملوك، متزلّفين طالبين راغبين في بقاء الحالة السلمية، مع الدولة العلوية، وإطلاق سراح أسراهم بواسطة المخابرة السياسية.

وذكر جاك كايي في «التاريخ الصغير للمغرب»[209]، نقلاً عن القنصل شينيي (Chénier) أن السلطان المولى عبد الله، أذِنَ مراراً متعددة في فداء بعض الأسرى ومبادلتهم، وتمّ ذلك على يده، وفي عهده، سنة سبع وثلاثين وسبعمائة وألف (1149/1150-1737).

209) ص 33 من السلسلة الثانية.

المبحث الثامن

فداء الأسرى في عهد السلطان
أبي الحسن علي بن إسماعيل

لم نقف على أنه وقع تغيير في حالة الأسرى بمنّ أو فداء في عهد هذا السلطان، وإنما أورد له النقيب أبو زيد ابن زيدان في «إتحافه»[210] رسالة كتب بها لسفير فرنسي ذكر أنه وقف على أصلها في المكتبة الوطنية بباريس، يأذن له بالقدوم عليه، ولا يرى إلاّ ما يسره.

نص الرسالة :

بعد البسملة والحوقلة بالله العليّ العظيم،

ثم الطابع، بيضوي الشكل، بداخله :

"أمير المومنين أبو الحسن علي الشريف بن أمير المومنين إسماعيل الشريف

الله وليه ومولاه.

وبدائرته : "لا إلاه إلاّ الله وحده، صدق الله وعده، ونصر عبده، لا إلاه إلاّ هو، الأمر كلّه لله"

210) ص 447-448 من ج 5.

إلى الباشادور الفرنسيس، سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن بالله واهتدى،

أمَّا بعد، فاعلمْ أنَّ خبرك وصل لمقامنا العالي بالله، وأنَّك أردت أن تقدم إلى أبوابنا العلية، وتوقَّفت على إذننا، فمرحبا بك، وأقدم في الأمان على سبيل الفَوْر، وما نعمل لك إلاّ ما يسرك ويرضيك، وما ترجع إلاّ على خاطرك، وكما تحبّ وترضى، وكلُّ ما جئت عليه، نقضيه لك إن شاء الله تعالى.

والسلام على من اتَّبع الهدى.

وكُتب في الخامس عشر من جمادى الأولى عام ثمانية وأربعين ومائة وألف

(15 جمادى الأولى 03/1148 أكتوبر 1735).

ولم يُسَمِّ فيه المكتوب له.

وأثبت له النقيب المذكور رسالة أخرى خاطب بها ملك فرنسا لويس الخامس عشر يُعلمه فيها بجلوسه على عرش والده، وأخيه أبي العبّاس أحمد، وأنَّه اطَّلع على كتاب أخيه المذكور الذي بيد أحد الفرنسيين طوماس، وأقرَّ جميع ما فيه من السلم والهدنة، وطلب منه أن يُوجّه له سفيراً من قبله، ووعده بقضاء مطالبه، وحتى الأسرى، فهو مستعدّ لفدائهم.

نص الرسالة :

بعد الحمدلة والحوقلة والطابع، كما تقدّم :

إلى الروا لويس الفرنسيسي.

أما بعد، فاعلم أنَّا لمّا جلسنا على سرير ملكنا، واستولى سلطاننا وأمرنا على إيّالتنا السعيدة، الدانية والبعيدة، وأمدّنا الله تعالى بالمدد، والعَدَد والعُدَد، وجمع المولى سبحانه كلمة جيوش الإسلام، وسائر أقطارنا، الخاص منها والعام، وانعقد بذلك الإبرام، ذلك بتقدير العزيز العلاّم، وردتْ علينا الوفود، أهل الحواضر والباد، على الرّسم المألوف المعهود، المؤدي إلى صلاح البلاد والعباد، أقْررْنا كل أحد على ما أقرّه والدنا وأخونا مولاي أحمد، قدّس الله أرواحهم، وأبّد في الفردوس نفوسهم الكريمة وأرواحهم، وأجرينا كلاًّ على ما كان عليه.

ولمّا مثل بين أيدينا النصراني طوماس، وتصفّحنا كتاب أخينا المذكور الذي بيده، الجاري على مقتضى شرعنا الكريم المطاع، أعزّه الله، من شأن الهدنة والسلم، والفداء، المأمور بهم معكم، وجّهنا لكم مسطورنا هذا المبارك الأسمى، واقتفينا في ذلك بكتاب أخينا الأعز الأحمى، فوجه لنا باشادورك، وكل ما في خاطرك وأردته لدينا نقضوه لك بحول الله وقوّته، وحتّى هؤلاء النصارى الذين هم هنا بمقامنا العالي بالله أسارى، إن أردت فديتهم، والكلام معنا في شأنهم، فابعثْ باشادورك عليهم نبعثهم لك.

والسلام على من اتبع الهدى.

كُتب في رابع شوال ..... انتهى ما وُجد.

ولا ندري هل قدم هذا السفير، وهل تمّ شيء من الفداء في عهد هذا السلطان ؟

كما أنّنا لم نقف على ذكر لحركة في فداء الأسرى في عهد هذا السلطان أبي عبد الله، محمد، المعروف بابن عربية، وأخويه السلطان المولى المستضيء، والسلطان المولى زين العابدين، ولعلّ ذلك لاشتغالهم بمحاربة بعضهم بعضا.

والحَاصِلُ، مِنْ تَتَبّع أخبار هؤلاء الملوك السبعة، وهم :

- المولى أحمد الذهبي.
- المولى عبد الملك.
- المولى عبد الله.
- المولى علي، المعروف بالأعرج.
- المولى مُحمَّد، المعروف بابن عربية.
- المولى المستضيء.
- المولى زين العابدين.

الذين تعاقبوا على العرش العلوي، بعد وفاة والدهم السلطان الأعظم المولى إسماعيل، أنَّهُ لم يحصل انقطاع أو انفصال في المواصلة مع جلّ الدول الأوربية، سواء في المسائل التجارية أو السياسية المتعلقة بفداء الأسري، وحلّ عقد القضايا القرصانية البحرية، وإنما

حصل فتور في عهد بعض أولائك الملوك، مدّة الثلاثين سنة التي مرّت بين وفاة السلطان المذكور سنة تسع وثلاثين ومائة وألف (1727/1139)، ووفاة ولده السلطان المولى عبد الله، سنة إحدى وسبعين ومائة وألف (1757/1171)، وولاية نجله وخليفته السلطان المجدد لمراسم الدولة، والمحيي لمعالمها، أبي عبد الله سيدي محمد بن عبد الله، وحينئذ استؤنفت المواصلة، واتّصل حبلها بنظام تام، مع الدول الخارجية كلّها، إسلامية ومسيحية، بواسطة السفراء إلى الملوك والأمراء.

وقد بذل رحمه الله جهودا جبّارة بسياسيته الرشيدة، وآرائه الموفّقة السديدة، وكلمته المسموعة النافذة في فكاك الأسرى، بالفداء والمنّ وبذل الأموال الطائلة، وهو ما سنراه في الفصول الآتية.

انتهى

ويليه الجزء الرابع، ويبتدئ بـ :

«عن اهتمام السلطان سيدي محمد بن عبد الله

بفداء الأسرى وسياسته الخارجية الرامية إلى ذلك وعن محاولته

وضع حد للقرصنة المستفحلة وعن السفارات الموجهة لهذا الغرض،

وعن عقد المواصلة والمؤازرة مع الدولة العثمانية»

مُلحق

فيه صور للمآثر التاريخية
الواردة في الجزء الثالث

لوحة رقم 1

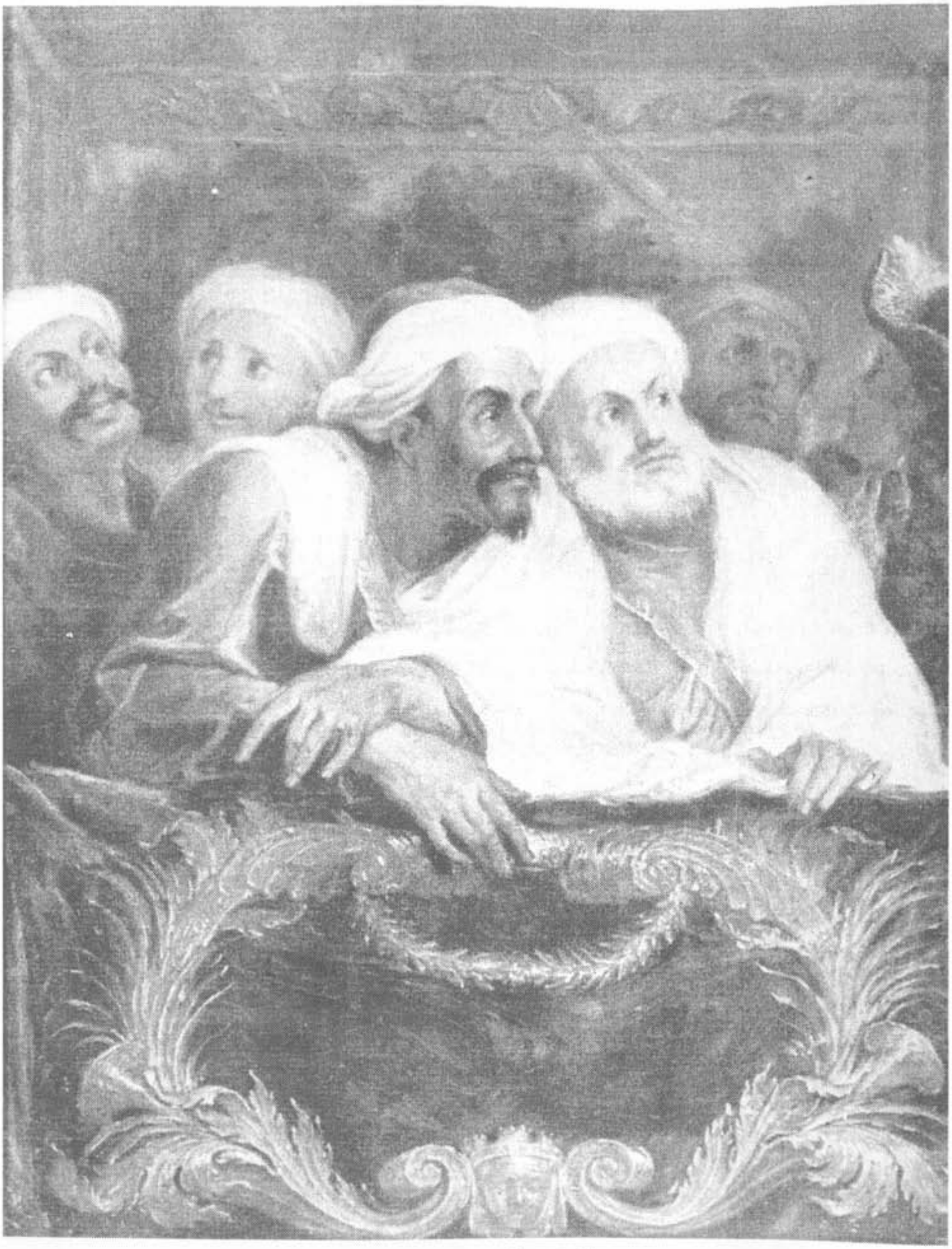

السفير المغربي محمد تميم

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

بيير دو سنيڤال

لوحة رقم 2

استقبال المولى إسماعيل للسفير الفرنسي سانت أولون

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

پيير دو سنيڤال

لوحة رقم 3

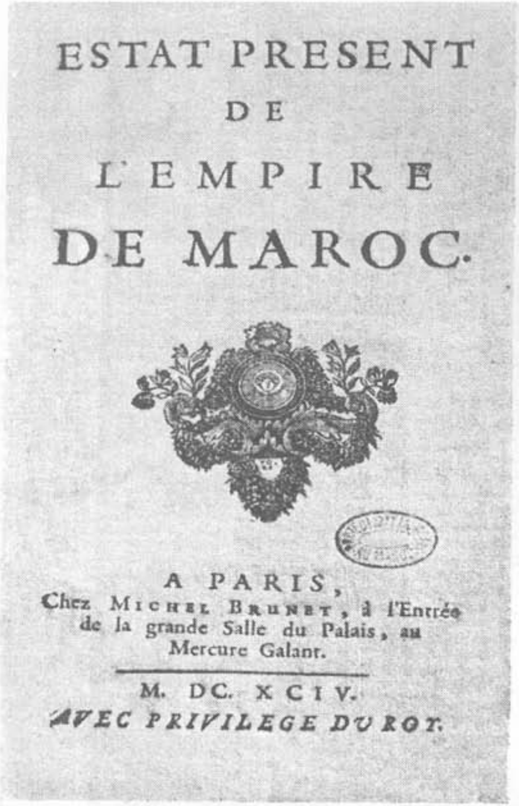
ESTAT PRESENT
DE
L'EMPIRE
DE MAROC.

A PARIS,
Chez Michel Brunet, à l'Entrée
de la grande Salle du Palais, au
Mercure Galant.

M. DC. XCIV.
AVEC PRIVILEGE DU ROY.

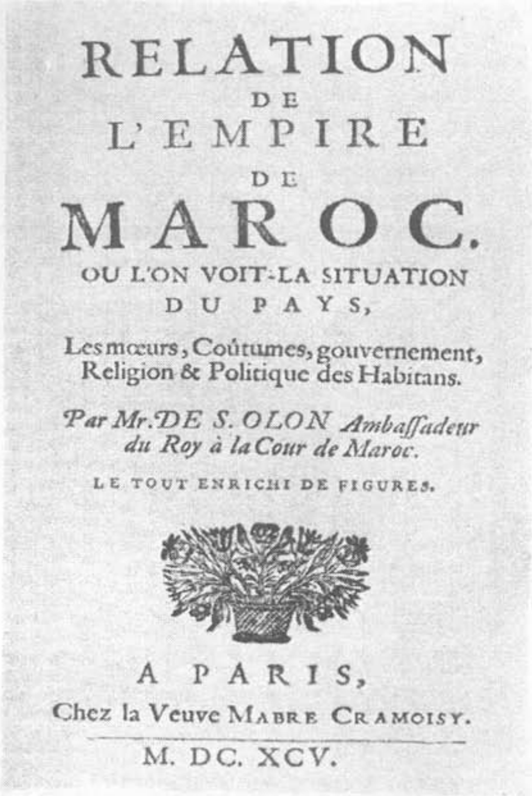
RELATION
DE
L'EMPIRE
DE
MAROC.
OU L'ON VOIT LA SITUATION
DU PAYS,

Les mœurs, Coûtumes, gouvernement,
Religion & Politique des Habitans.

Par Mr. DE S. OLON Ambassadeur
du Roy à la Cour de Maroc.

LE TOUT ENRICHI DE FIGURES.

A PARIS,
Chez la Veuve Mabre Cramoisy.

M. DC. XCV.

عنوانان لكتابي السفير الفرنسي دوسانت أولون
سفير لويس الرابع عشر إلى المولى إسماعيل
منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»
پيير دو سنيڤال

لوحة رقم 4

رسالة من المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر

فاتح ربيع الأول 22/1103 يونبر 1691

محفوظة في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

بيير دو سنيڤال

لوحة رقم 5

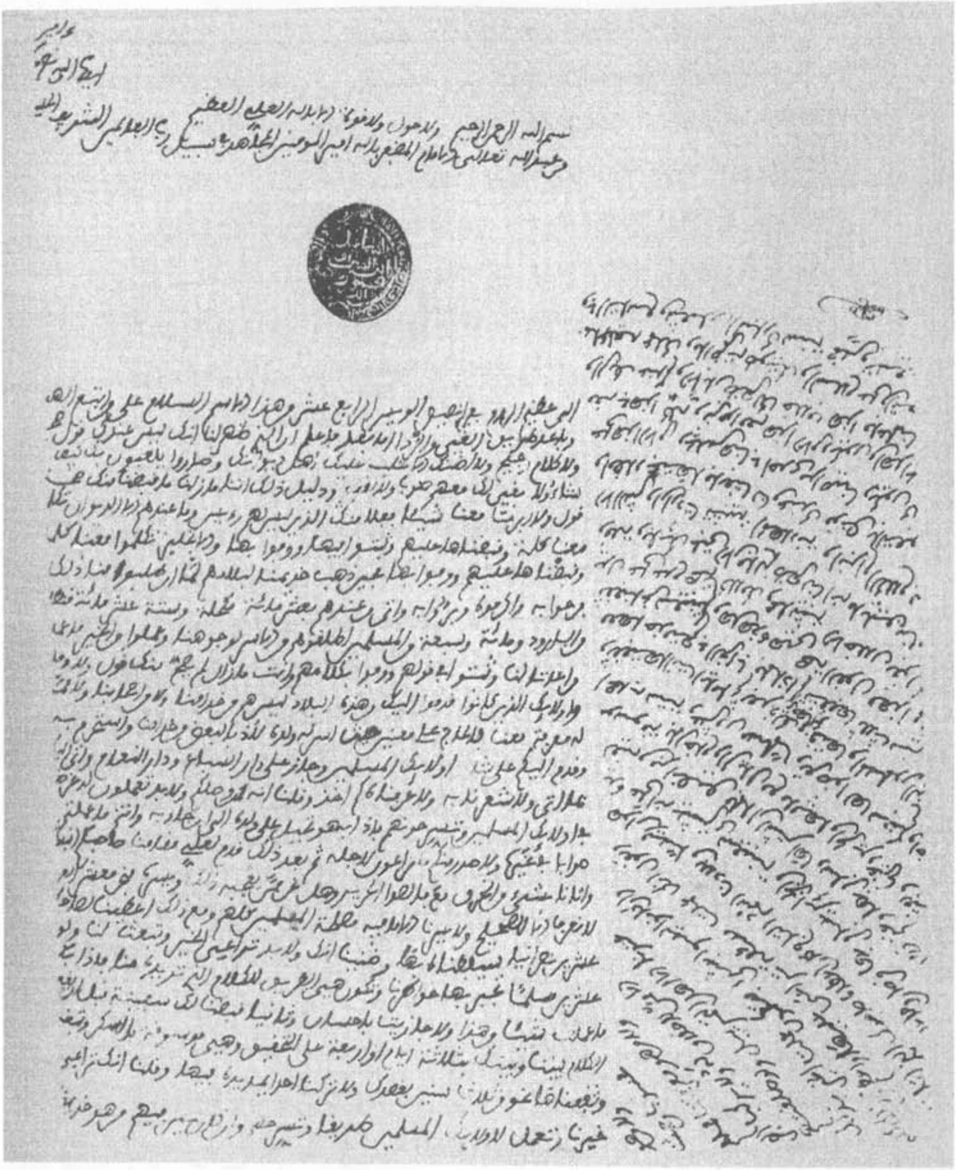
بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

رسالة من المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر

(9 شعبان 1095) (22 يوليوز 1684)

نسخة من الصورة الأصلية المحفوظة في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

بيير دو سنيڤال

لوحة رقم 6

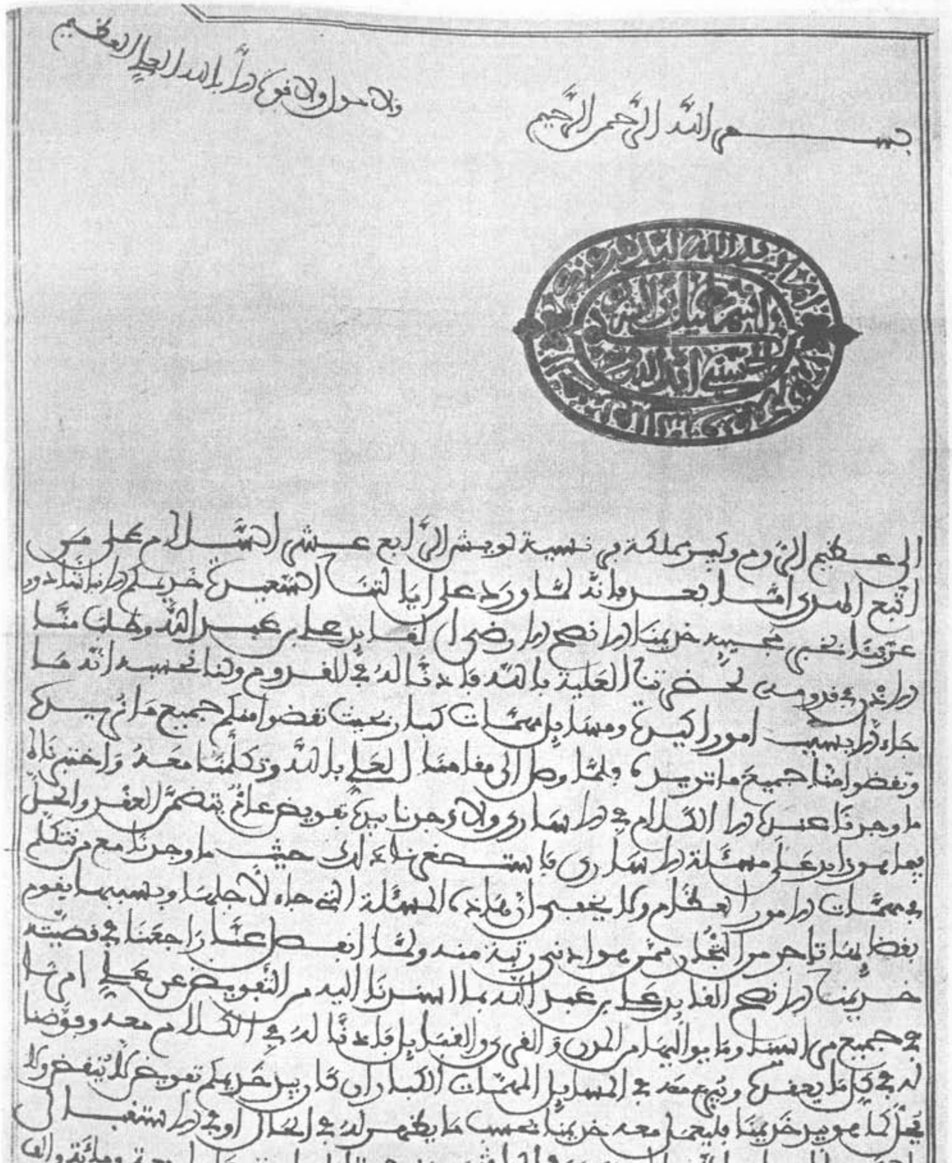
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر 10 ذو الحجة 12/1104 غشت 1693

نسخة من الأصل المحفوظ في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

پيير دو سنيڤال

لوحة رقم 7

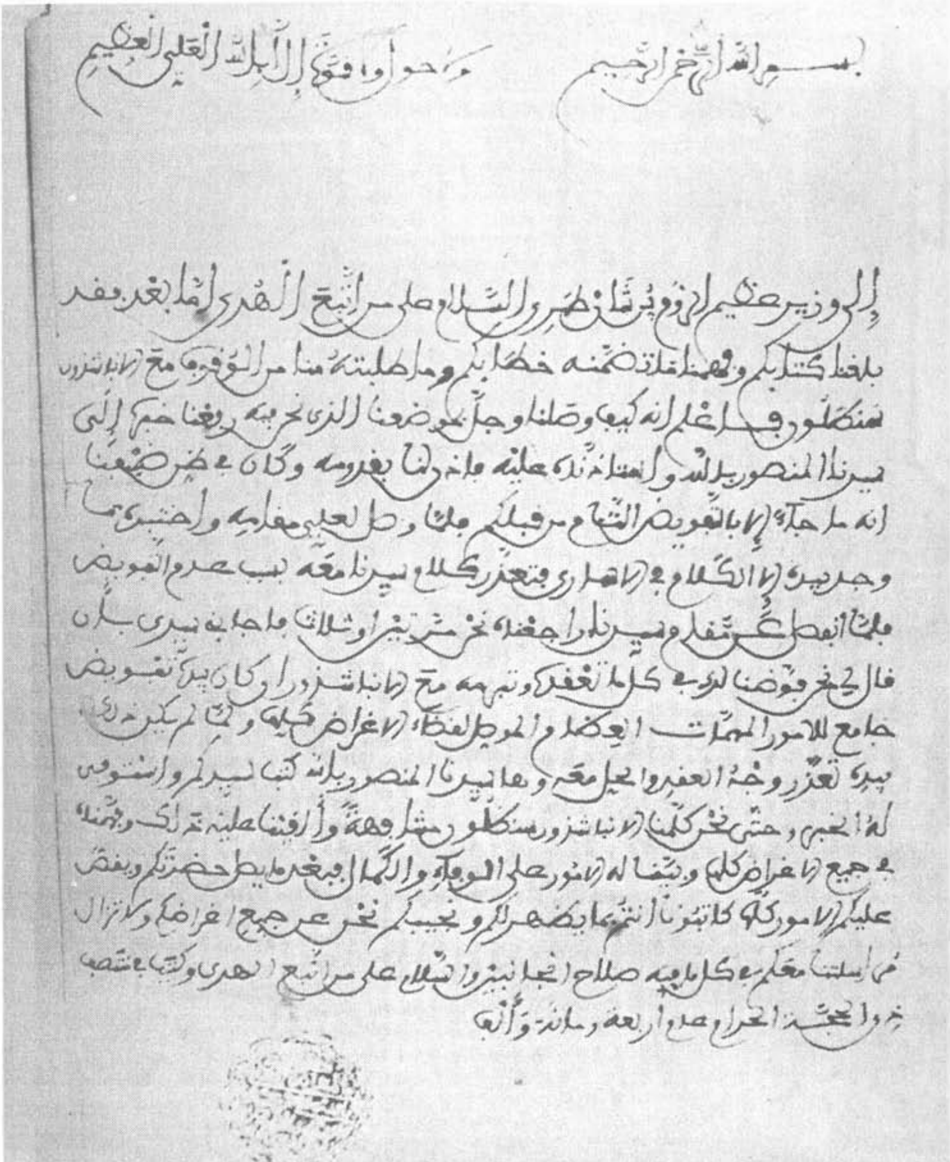

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

إلى الوزير عظيم الروم بونشرطران والسلام على من اتبع الهدى أما بعد فقد
بلغنا كتابكم وفهمنا ما تضمنه خطابكم وما طلبته منا من الوفق مع الاباتشدور
[illegible] فاعلم انه كيف وصلنا وحل بموضعنا الذي نحن به رفعنا خبره إلى
سيدنا المنصور بالله وأعلمناه بذلك عليه فأذن لنا بقدومه وكان في ظننا
انه ما جاء إلا بالتفويض التام من قبلكم فلما وصل لعلي مقامه واختبرناه
وجربناه في الكلام في الأسارى فتعذر بكلام سيدنا معه بسبب عدم التفويض
فلما انفصل عن مقام سيدنا رجعنا نحن [illegible] وسألناه فأجابه سيدي بأن
قال لي نحن فوضنا لكم في كل ما تفعلوه وتمضوه مع الاباتشدور وكان سيدي تفويض
جامع للأمور المهمات العظام والموصل لقضاء الاغراض كلها ولما لم يكن عند
سيدي تعذر وجه الفعل والحل معه وها سيدنا المنصور بالله كتب لسيدكم واستوفى
له الخبر وحتى نحن كلمنا الاباتشدور [illegible] مشافهة وأوقفناه عليه [illegible] وجهتنا
في جميع الاغراض كلها وبينا له الامور على الوفاء والكمال فبعد ما يصل حضرتكم ويقص
عليكم الامور كلها كاتبونا انتم بما يظهر لكم ونجيبكم نحن عن جميع اغراضكم ولا نزال
من [illegible] معكم في كل ما فيه صلاح الجانبين والسلام على من اتبع الهدى وكتب في منتصف
ذي الحجة الحرام عام اربعة ومائة وألف

رسالة من علي بن عبد الله إلى بونشرطران

15 ذو الحجة 17/1104 غشت 1693

نسخة الأصل المحفوظ في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

بيير دو سنيڤال

لوحة رقم 8

عبد الله بن عائشة عن وثائق : المكتبة الوطنية بباريز

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

بيير دو سنيڤال

لوحة رقم 9

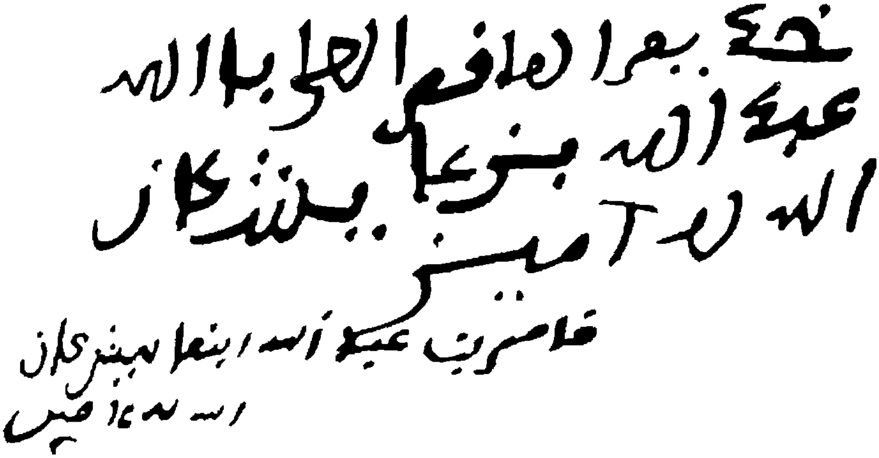

توقيع السفير ابن عائشة

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

پيير دو سنيڤال

لوحة رقم 10

الأميرة الفرنسية دوكونتي

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

بيير دو سنيڤال

لوحة رقم 11

السفير محمد بن حدو، نشر بإذن مكتبة صاحبة الجلالة البريطانية

منقولة من كتاب «ينابيع تاريخ المغرب غير المطبوعة»

پيير دو سنيڤال

الفهرس

الفصل الأول : عن القرصنة وتحديدها، وتاريخها، وأسبابها، وعن المسؤول عنها 3

المبحث الأول : القرصنة، تعريفها وأنواعها. كورسير (Corsaire) **وبيراط** (Pirate) 5

المبحث الثاني : لمحة من تاريخ القرصنة القديمة 9

ـ القرصنة خلال العهود الغابرة 9

ـ القرصنة خلال القرون الوسطى 11

ـ الأخوان بابا عرُّوج وخير الدين باشا 13

المبحث الثالث : محاولة الدول الأوربية إيقاف تيار الأعمال القرصانية 15

المبحث الرابع : من المسؤول عن القرصنة ؟ 19

المبحث الخامس : استفحال القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط وما نشأ عنها من الأسر والاسترقاق 21

ـ حالة أسرى المسلمين بأوربا والجهود المبذولة في فدائهم 22

ـ بعض أعيان المسلمين الذين امتحنوا بالأسر بسبب القرصنة 23

* الأمير علي بن مجاهد العامري 23

* السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطّاسي المعروف بالبرتقالي ... 24

* قاضي سلا أبو علي الحسن ابن عشرة 24

* أبو الحسن الوزّان المعروف بليون الإفريقي 25

* أبو الحسن علي بن مصباح ابن عسكر 25

* الشيخ أبو محمد عبد الله المعروف بالكوش 26

* الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي 26
* العلاّمة أبو عبد الله محمد ابن خروف التونسي 27
* قاضي سلا أبو العباس أحمد، المعروف بابن القاضي 27
- إرغام الأسرى على مفارقة دينهم واستعارة أسماء ذوي الرياسة
والجاه منهم 33
- وصف حالة الأسرى ومعاملتهم 34

الفصل الثاني : عن عواقب القرصنة الوخيمة : الأسر، والاسترقاق والفتنة في الدين ؛ وما تستوجبه الشريعة والأخلاق من العمل لتفادي ذلك 39

مبحث فريد : الجهود المبذولة في فداء الأسرى 41
- اعتناء ملوك المسلمين بفكاك الأسرى وفدائهم 47
- اهتمام ملوك الدولة العلوية بفداء الأسرى 49
- موقف المولى إسماعيل من فداء الأسرى 50

الفصل الثالث : عن السفارات المبعوثة لإصلاح الحالة الناجمة عن القرصنة، والمحاولات الرامية إلى إثبات السلم ومبادلة الأسرى أو فدائهم 53

المبحث الأول : سفارة الحاج محمد تميم التطواني إلى فرنسا وما نتج عنها 55
- سفر السفارة 56
- مقابلة السفير الحاج محمد تميم للويس الرابع عشر 57
- المذاكرة في الصلح وتحرير صك المعاهدة 58
- احتياطات الفرنسيين بعد وصول سفير المغرب إلى بلادهم 58

- ما أظهره الفرنسيون من الحفاوة للسفير 59
- استقبال لويس الرابع عشر السفير الحاج محمد التميم استقبال الوداع 59
- مبارحة السفير الحاج محمد تميم باريس ورجوعه إلى المغرب 61
- سفر السفير الحاج محمد تميم إلى مكناس وما نشأ عن ذلك من الرسائل 62
المبحث الثاني : سفارة السانت آمان (Saint-Amans) إلى المولى إسماعيل 69
- وصول السفير سانت آمان (Saint-Amans) إلى تطوان 72
- مبارحة السفير لتطوان في طريقه إلى المحلة السلطانية 73
- مبارحة السفير رباط الفتح ووصوله إلى المحلة السلطانية 74
- استقبال المولى إسماعيل للسفير سانت آمان (Saint-Amans) 74
- المذاكرة في المعاهدة الصلحية ومسائل الأسرى 75
- استقبال المولى إسماعيل للسفير سانت آمان (Saint-Amans)
مقابلة الوداع 78
- مبارحة السفير سانت آمان (Saint-Amans) المحلة السلطانية
راجعا إلى بلاده 79
- قصة الأسير عبد الحق معنينو 80
المبحث الثالث : سفارة الحاج محمد تميم الثانية إلى فرنسا 89
- سبب هذه السفارة 89
المبحث الرابع : عدم تطبيق المعاهدة التميمية وما نشأ عنها 95
**المبحث الخامس : القنصل جان بابتيست – إيسطيل (Jean-Baptiste Estelle)
وتدخله في شؤون الأسرى** 99
- نص رسالة المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر في شأن فداء الأسرى ... 103
**المبحث السادس : سفارة الفارس دو سانت أولون (Le chevalier de Saint-Olon)
لإثبات السلم وفداء الأسرى** 109

- وصوله إلى تطوان 110

- وصوله إلى مكناس واستقبال السلطان المولى إسماعيل له ومذاكرته في إثبات السلم وفداء الأسرى 112

- مقابلة المولى إسماعيل له مقابلة الوداع 113

- مبارحته تطوان راجعا إلى بلاده 114

المبحث السابع : سفارة الأميرال عبد الله ابن عائشة إلى فرنسا لإثبات السلم وفداء الأسرى 119

- تمهيد 119

- نص التفويض الإسماعيلي للسفير عبد الله ابن عائشة 120

- نص رسالة عبد الله ابن عائشة إلى لويس الرابع عشر 122

- أعضاء سفارة عبد الله ابن عائشة وما استصحبه من الزاد والأمتعة 123

- مبارحة ابن عائشة المغرب 124

- مُقَام ابن عائشة بمرسى بريسط (Brest) 124

- رحلته من بريسط إلى باريس 126

- وصوله إلى باريس 127

- استقبال لويس الرابع عشر له 128

- المخابرة في فداء الأسرى 131

- مُقَام ابن عائشة بباريس ومحافظته على شعائر دينه 133

- زياراته لمعاهد باريس ومتاحفها ونوادره فيها 134

- تدمر الحكومة الفرنسية من طول مقام ابن عائشة بباريس والنفقة عليه 138

- تقرير رجوع ابن عائشة إلى المغرب وما نشأ عنه من الحوادث والمراسلات .. 140

- وداع ابن عائشة للويس الرابع عشر 141

- حادثة 143

- كتاب عبد الله ابن عائشة إلى الأسرى المغاربة يعلمهم فيه بعدم نجاحه في خلاصهم ويُصبّرهم ويسلّيهم 145

- استدراك 148

- العنوان 148

- مبارحة عبد الله ابن عائشة لباريس 148

- مراسلات ابن عائشة لبعض وزراء فرنسا أثناء رحلته 149

- نص رسالة ابن عائشة إلى بونشرطران 149

- نص رسالة ابن عائشة إلى بونشرطران وطورسي 150

- نص رسالة ابن عائشة إلى جوردان 153

- نص رسالة ابن عائشة 154

- إبحار عبد الله ابن عائشة من مرسى بريسط ووصوله إلى مرسى العدوتين ... 155

- توجه ابن عائشة لمكناس لإخبار السلطان بما راج في سفارته 155

- نص رسالة المولى إسماعيل إلى لويس الرابع عشر 157

- نص الرسالة 158

- محاولة فرنسا فكاك أسراها لواسطة تجارها بالعدوتين السلاوية الرباطية 161

المبحث الثامن : تردُّد البعثات الرهْبانية برياسة الأبوين بوسنو ونولاصك (Busnot et Nolasque) على المولى إسماعيل لفداء الأسرى 163

- إسناد المخابرة في فداء الأسرى إلى القائد علي بن عبد الله 165

- نص الرسالة 166

- نص الرسالة 168

الفصل الرابع : عن بعض المعلومات المتعلّقة بالأسرى المغاربة الذين كانوا مستعملين في الأوراش والسفن الحربية المجذافية (Les Galères) الفرنسية 173

مبحث فريد : قائمة أسماء بعض الأسرى المغاربة بفرنسا ما بين سنة 1700/1111 و1727/1139 وبعض الرسائل الصادرة عنهم إلى ذويهم 175

الفصل الخامس : عن استيناف تبادل السفارات بين المغرب ودول أوربا لفداء الأسرى وإثبات السلم واسترجاع الكتب العربية 237

المبحث الأول : سفارة أبي عبد الله محمد بن عبد الوهاب الغسّاني إلى إصبانيا لفداء الأسرى واسترجاع الكتب العربية 239

- آل الوزير الغسّانيون 239
- أبو عبد الله محمد بن عبد الوهّاب الوزير الغسّاني 240
- وفاته 241
- موجب السفارة 242
- نص رسالة المولى إسماعيل إلى كارلوص الثاني 243
- السفير الغسّاني بإصبانيا 246
- وصول السفير إلى مدريد 246
- مقابلة السّفير مع الملك 247
- الكتب المشترطة في فداء الأسرى 248
- انتهاء مهمة السفير بإصبانيا وطلبه الرجوع إلى بلاده 249
- الهدية التي قدّمها ملك إصبانيا للسفير لمّا عزم على الرجوع لبلاده 250
- مآل الأسرى المغاربة بإصبانيا بعد رجوع السفير منها 250
- كيفية تسليم الأسرى بسبتة 251

المبحث الثاني : سفارة القائد أحمد بن حدو العطّار إلى انجلترا لعقد الصلح وفداء الأسرى 255
- أحمد بن حدّو الريفي 255
- القائد أحمد بن حدّو العطّار 256
- مكانة القائد ابن حدّو العطّار من السلطان المولى إسماعيل 257
- أسباب السفارة وموجباتها 258
- توجّه السفير أحمد بن حدّو العطّار إلى انجلترا 260
- استقبال الملك له 261
- المعاهدة الصلحية وما نتج عنها 262
- رجوع السفير بن حدو العطار إلى المغرب 262
- محنة السّفير أحمد بن حدُّو العطَّار بعد رجوعه من سفارته 263
- عدم المصادقة على المعاهدة التي عقدها السفير ابن حدّو وما نشأ عن ذلك... 264
- فتح طنجة 266
- الحالة السياسية والحربية بين إنجلترا والمغرب بعد فتح طنجة 266
المبحث الثالث : سفارة الحسن بن محمد سْكِيرِيدُو إلى هولاندا لإثبات السّلم وفداء الأسرى وما احتفّ بها ونشأ عنها 269
- تمهيد 269
- السفير الحسن بن مُحمَّد سْكِيرِيدُو الرباطي 270
- سفارته 271
- رجوع السفير سْكيريدو إلى بلاده وما نتج عن ذلك 272
- كتاب إسماعيلي إلى الحكومة الهولاندية في شأن هذا القنصل 275
- رسالة اليهودي حايم طوليدانو إلى هولاندا وما تطورت فيه من الأطوار 277

المبحث الرابع : فداء الأسرى في عهد السلطان مولاي أحمد بن إسماعيل 289

المبحث الخامس : سفارة جوهن روسيل (John Russel) **الإنجليزي إلى السلطان المولى أحمد بن إسماعيل** 291

- الهدية التي جاء بها السفير 293

- مقابلة السلطان مولاي أحمد للسّفير 294

المبحث السادس : فداء الأسرى في عهد السلطان المولى عبد الملك بن إسماعيل. 297

المبحث السابع : فداء الأسرى في عهد السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل 299

- نص المعاهدة المبرمة بين المولى عبد الله وبين الدولة الهولاندية 300

المبحث الثامن : فداء الأسرى في عهد السلطان أبي الحسن علي بن إسماعيل 309

- ملحق 313

- الفهرس 327